العالم الإسلامى
بين
التخلف الحضارى ورياح العولمة

د. فـــؤاد البنـــا
أستاذ الفكر السياسى الإسلامى
بجامعة تعز - اليمن

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٩٣٨٣

الترقيم الدولي: I . S . B . N

977 - 265 - 676 - 0

al-maktabeh
www.
.com

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٢١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أخرج العرب والعالم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن الجهل إلى العلم، ، ومن الشتات إلى التوحد، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة، ومن الخوف إلى الأمن.

أما بعد:

فإن الله خلق هذا الإنسان للعبادة، وهى عمارة هذا الكون وفقًا لمنهجه وهداه، وأودع فى الكون مفردات العمار والدمار، قبل أن يخلق الإنسان واضعًا فيه استعدادات الخير والشر، حتى يتم الإبتلاء: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك: ٢].

ولقد ظلت الحياة مستمرة منذ بدء الخليقة على شكل سلسلة من الصراعات بين الحق والباطل، والتداول على هذه البسيطة بحسب امتلاك كل طرف لأسباب عمارة الحياة وسنن الحضارة. ولما جاء الإسلام نفخ فى أبنائه روح القوة والفاعلية، وأرشدهم إلى الإمساك بأزمَّة الاستعمار ومقاليد الحضارة، من علم وبحث وعمل وفكر واجتهاد وجهاد، وكانت النتيجة أن دارت الأيام معهم ودانت الأمم لهم، ودالت الحضارة فى صالحهم.

ووفقًا للسنن الاجتماعية التى دخل بها المسلمون حلبة التحضر والتقدم، فقد خرجوا وفقًا لهذه القوانين، عندما سرَت إليهم أدواء الأمم من قبلهم، واجتاحتهم آفات الحضارات، فخرجوا من ميدان التنافس الحضارى العالمى، وغشيتهم روح الجهل والتخلف والاستكانة.

وفى العصر الحديث، كان جهل المسلمين بأوضاع بعضهم أحد مظاهر هذا التخلف الحضارى، ولما كانت الأمة الإسلامية عريضة المساحة، كثيرة الأفراد، ومتعددة الشعوب والقضايا، كان لابد من معرفة الحد الأدنى مما يجب على المسلم معرفته - خاصة إذا كان طالب علم - حول أوضاع إخوانه المسلمين فى قارات

الدنيا، ومن هنا ظهرت كتب عديدة حول حاضر العالم الإسلامى، نستطيع أن نشير إلى أهمها كالتالى:

أولاً: حاضر العالم الإسلامى، للكاتب الأمريكى الشهير لو ثروب ستودارد:

ويؤسفنا أن نقول: إن هذا الكتاب هو أول وأهم كتاب صدر فى العصر الحديث عن حاضر العالم الإسلامى، وهو لمؤلف أمريكى، حيث لم يتصدى لهذا العمل مسلمون بالصورة المطلوبة.

صدر هذا الكتاب بالإنجليزية سنة ١٩٢١م؛ وتُرجم إلي عدة لغات، أهمها: الألمانية والتركية والفرنسية والعربية.

وقد ترجمه إلى العربية الكاتب اللبنانى عجاج نويهض سنة ١٩٢٢م، ثم أرسله إلى أمير البيان شكيب أرسلان سنة ١٩٢٣م ليكتب له مقدمة، لكن أرسلان الذى أعجب بفكرة الكتاب أفاض بالكثير من التعليقات والحواشى بل والإضافات فى كل موضوعات الكتاب، وكان أن وصلت إلى عدة فصول، كتبها خلال عامين، وبالتالى أصبح حجم ما كتبه أرسلان أكثر من كتاب ستودارد الأصلى.

وفى عام ١٩٢٤م بدأ الشيخ محب الدين الخطيب بطباعة هذا الكتاب فى مطبعته «المطبعة السلفية»، وأنجزه فى ربيع سنة ١٩٢٥م، ووصلت أعداد هذه الطبعة إلى ثلاثة آلاف نسخة، ثم توالت الطبعات لهذا الكتاب.

ويمكن أن نوجز ملاحظاتنا على هذا الكتاب فى أربع نقاط:

الأولى: ضخامة الكتاب، واتساع موضوعاته، وتشعب قضاياه، حيث يتكون من أربعة أجزاء فى مجلدين كبيرين، استطرد الأمير مرات فيهما فى قضايا ليست من جوهر الموضوع الذى جاء من أجله الكتاب.

الثانية: انعدام المنهجية فى معالجة الكتاب لقضايا وموضوعات العالم الإسلامى، وخاصة الإضافات والفصول المهورة بقلم الأمير شكيب أرسلان[1].

---

(١) عن أسباب فوضى التعليقات التى أضافها الأمير، انظر: مقدمة المترجم عجاج نويهض للكتاب: حاضر العالم الإسلامى. ط٤ (بيروت دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م)، (١/ ٣٢ - ٣٧).

الثالثة: اشتمال الكتاب على عدد من الأخطاء والثغرات والنواقص، إذ رغم موضوعية ستودارد -كما تتضح من ثنايا الكتاب، وكما شهد بها الأمير شكيب- فإن تعدد موضوعات الكتاب، واتساع رقعته لتشمل مساحة العالم الإسلامى أجمع بجغرافيته وتاريخه وثقافته وهمومه، أدت إلى بروز عدد من الأخطاء، أشار إليها أرسلان فى مواضعها، وخاصة أن المؤلف أمريكى وليس عربيًا ولا مسلمًا، ومهما تكن معرفته فلابد أن تظل هناك بعض النواحى المعتمة فى دراسته.

الرابعة: قِدَم معلوماته، هذا الكتاب ألف عام ١٩٢١م، والعالم يسير بسرعة رهيبة، حيث تغيرت الكثير من التفاصيل، واختلفت الكثير من القضايا، وكمثال بسيط تحدث المؤلف عن سكان العالم الإسلامى، فذكر أنهم ٢٥٠ مليون نسمة، ثم صحح أرسلان هذا الرقم، بسبب الفارق الزمنى، فذكر أنه ٣٠٠ مليون نسمة.

وكان المؤلف فى عام ١٩٢٤م قد قام بسياحة فى عدد من بلدان المسلمين -من بينها فلسطين والأردن ومصر وتركيا- ثم ظل يتابع تطورات المسلمين، وكان آخر حياته يهم بإعداد طبعة جديدة للكتاب، تستوعب المستجدات حتى منتصف القرن العشرين، لكن المنية عاجلته عام ١٩٥٠م قبل أن يتم له ما أراد.

ثانيًا: سلسلة كتب الشيخ محمود شاكر حول حاضر العالم الإسلامى:

يعتبر الشيخ محمود شاكر أبرز علماء المسلمين ممن اهتموا فى هذا القرن بالكتابة حول أوضاع المسلمين وقضاياهم فى كل مكان، ومن هذه الكتب:

١- ثلاثة كتب عامة وهى: العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه -المسلمون تحت السيطرة الشيوعية- المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية.

٢- أكثر من ثلاثين كتابًا فى سلسلة واحدة تسمى «مواطن الشعوب الإسلامية» استعرض فيها قضايا المسلمين فى معظم بلدان آسيا وأفريقيا الإسلامية بلدًا بلدًا.

٣- سلسلة كتب حول جغرافية العالم الإسلامى، وهى سبعة تحدثت عن: الكشوف الجغرافية، وعن العالم الإسلامى عامة ومناطق منه، مثل المنطقة العربية ووادى النيل، وعن سكان العالم الإسلامى، واقتصاديات العالم الإسلامى، وجغرافية البيئات.

وبهذا يكون عدد الكتب التى أصدرها هذا العالم حول حاضر العالم الإسلامى أكثر من أربعين كتابًا، وليس من الممكن أن يحيط بها طالب العلم المبتدئ، لذلك ظللت أبحث عن كتاب واحد يمكن أن يركز قضايا العالم الإسلامى ويبسطها ويقدمها لطالب العلم.

ثالثًا: كتب متنوعة حول حاضر العالم الإسلامى:

قام بعض العلماء -مشكورين ومأجورين إن شاء الله- بتأليف بعض الكتب تحت عنوان «حاضر العالم الإسلامى» حاول كل منهم أن يصف ما يحدث فى العالم بطريقته، وبعض هذه الكتب قررت فى بعض جامعات العالم العربى، وهى:

١- حاضر العالم الإسلامى للدكتور على جريشه.

٢- حاضر العالم الإسلامى لمحيى الدين قضمانى.

٣- حاضر العالم الإسلامى لمنير الغضبان.

٤- حاضر العالم الإسلامى لياسين الغضبان.

٥- حاضر العالم الإسلامى للدكتور محمد رضا بشير القهوجى.

وقد ركز كل كتاب اهتمامه على قضايا معينة فتوسع فيها على حساب قضايا أخرى، ثم أن كل هذه الكتب قديمة باستثناء الكتاب الأخير للقهوجى، وما قلناه عن كتاب ستودارد بشأن القِدم ينطبق على هذه الكتب، مع فارق نسبى، أما كتاب القهوجى، فرغم حداثته فإن أكثر من نصف مساحته يتحدث عن كيفية انتشار الإسلام فى العصور الأولى، وكيف قامت الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب العربى وفى الإندلس، وكيف سقطت، وبذلك فإنه أقرب إلى كتب (التاريخ) منه إلى (الحاضر). وهذا الكلام ينطبق إلى حد ما على الكتب الأخرى على اعتبار أن ما حدث فى القرن التاسع عشر والعشرين أصبح تاريخًا بالنسبة للحاضر.

وإضافة إلى ذلك كله، فإن السنوات المتأخرة شهدت تطورات متسارعة، سواء على صعيد القضايا السابقة، أو القضايا المستجدة، وكلها بحاجة إلى دراسة ومعرفة وتحليل.

وعليه، فقد حزمتُ إرادتى وحزمتْنى، فى ضرورة تأليف كتاب شامل عن قضايا وأحداث العالم الإسلامى المعاصر، يتم فيه استيعاب أهم ما ورد فى الكتب السابقة، وتحليل أهم الأحداث والتطورات الجديدة، مع تقديم المعلومة الموثقة والمركزة، والأرقام الصحيحة والوسطية، كل ذلك بحجم بسيط وأسلوب سهل، بحيث يفهمه طالب العلم البسيط، ويشبع رغباته الأولية ويوفر أبجديات هذا الحاضر- العلم - وفى نفس الوقت يشعر القارئ أن ما بين يديه إنما هو رؤوس أقلام أو عناوين ومفاتيح، وأن التوسع فى المعرفة ممكن بل ولازم ومتوفر، حيث اعتنيت بتسجيل عدد من المصادر والمراجع فى نهاية كل قضية أو موضوع أكتب عنه.

وقد التزمت فى دراستى هذه المنهج العلمى شكلاً ومضموناً بقدر استطاعتى، وبحسب ظروف الدراسة، وقد قسمتها إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: الطريق إلى (حاضر العالم الإسلامى)، ويتكون من ثلاثة مباحث:

الأول: العالم الإسلامى معنى ومبنى.

الثانى: أطلس الجسد الإسلامى.

الثالث: أهمية دراسة حاضر العالم الإسلامى.

الفصل الثانى: خماسية المعضلات الكبرى للعالم الإسلامى، ويتكون من ستة مباحث:

الأول: التخلف الحضارى وضعف الفاعلية.

الثانى: غياب الاستقلال الكامل ودخول (جُحْر الضب)!

الثالث: التآكل السياسى وإهدار حقوق الإنسان وحرياته.

الرابع: الظلم الاجتماعى والعبث المالى.

الخامس: تفرق (القلوب) وتمزق (القوالب).

السادس: المخرج من معضلات (العالم الإسلامى).

الفصل الثالث: المناطق الساخنة فى العالم الإسلامى، ويتكون من أربعة مباحث:

الأول: المناطق الساخنة فى أفريقيا.

الثانى: المناطق الساخنة فى آسيا.

الثالث: المناطق الساخنة فى البلقان وشرق أوروبا.

الرابع: السرطان اليهودى يستوطن القلب ويشل الأطراف.

الفصل الرابع: خماسية القنابل الموقوتة.. فى بلدان العالم الإسلامى، ويتكون من خمسة مباحث:

الأول: القنبلة الدينية.

الثانى: القنبلة الطائفية.

الثالث: القنبلة العرقية.

الرابع: القنبلة الحدودية.

الخامس: القنبلة الديمغرافية القسرية.

الفصل الخامس: العالم الإسلامى ورياح العولمة، ويتكون من أربعة مباحث:

الأول: المقدمات والميلاد.

الثانى: العولمة: المعانى والمجالات.

الثالث: آليات أمركة العالم بدعوى العولمة.

الرابع: المسلمون والعولمة.

وعلى كل، فهذا هو جهد المقل، اعتبره مجرد مفاتيح لأبواب أرجو أن تولج، عبر القراءة المستمرة، فالقراءة هى العلم، والعلم هو الحياة، أما الجهل فهو الموت الخادع. أرجو أن أكون قد وُفقت، وأن يكون صوابى قد أذهب خطئى وبرر غفرانه، وخاصة أننى اجتهدت وحرصت على بلوغ الكمال البشرى الممكن، ولا أظننى قد بلغته. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

د/ فؤاد عبد الرحمن البنا

مدينة تعز - اليمن

الفصل الأول

الطريق إلى (حاضر العالم الإسلامى)

ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العالم الإسلامى معنى ومبنى

أولاً: معنى العالم الإسلامى

ثانيًا: مقومات العالم الإسلامى

المبحث الثانى: أطلس الجسد الإسلامى

أولاً: عبقرية الموقع

ثانيًا: السكان

ثالثًا: الثروات

المبحث الثالث: أهمية دراسة حاضر العالم الإسلامى

أولاً: الاهتمام بالعالم الإسلامى فريضة شرعية

ثانيًا: ضرورة واقعية

المبحث الأول

العالم الإسلامى معنى ومبنى

أولاً: معنى العالم الإسلامى:

- العالم لغة: اسم الخلق من مبدئهم إلى منتهاهم.

- العالم اصطلاحًا: المجتمع الواسع الذى يقطن بقعة شاسعة من الأرض، ويلتقى بعضه مع بعض فى قواسم مشتركة، وفى صفات تميزه عن غيره.

ويعد هذا التعريف التجريدى لمصطلح (العالم)، وبما أن مصطلح الإسلام معروف لدى الجميع، فيمكن أن نعرف العالم الإسلامى كالتالى: يطلق العالم الإسلامى بصورة أساسية على مجموعة الدول التى يشكل المسلمون فيها نصف السكان على الأقل، ويطلق كذلك - بدرجة أقل - على الشعوب والمجموعات الإسلامية التى تعيش وسط أمم أكبر منها، بحيث يبدو المسلمون كأقلية، مثلما هو الحال فى الهند.

ويُلاحظ أننا أطلقنا التعريف على الأرض التى تسكنها غالبية مسلمة، حتى ولو لم يطبق شرع الله فيها، بخلاف (الأمة) التى يرى كثيرون ضرورة توفر هذا الشرط فيها، ومن هؤلاء الشهيد سيد قطب الذى يعرِّف الأمة بأنها: (جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامى.. وهذه الأمة - بهذه المواصفات - قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا)[1].

وكان علماء الفكر السياسى فى الإسلام قد دأبوا على تقسيم الكرة الأرضية أو البشر جميعًا إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة دور: دار الإسلام: وهى التى يطبق شرع الله فيها كاملاً، عقيدة ومنهاجًا، وفلسفة، ونظامًا، ودار العهد: وهى التى لا تدين

(١) معالم فى الطريق : ص (٦).

بالإسلام، لكنها توادع المسلمين وتسالمهم، ودار الحرب: وهى التى ليست مسلمة، ولا مسالمة للمسلمين.

وبموجب هذا التقسيم، الذى يشبه تعريف سيد قطب للأمة، يكاد ألا تكون هناك دار إسلام، بل هناك دار مسلمين، وهى التى نطلق عليها هنا العالم الإسلامى.

ويمكن أن نطلق على العالم الإسلامى مصطلح الأمة المسلمة، على الأقل من الناحية اللغوية، فالأمة تأتى بمعنى العالم المتميز فى شىء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكذلك قوله ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»[١].

وقد أطلق المفكر الإسلامى مالك بن نبى على العالم الإسلامى مصطلح (محور طنجة - جاكرتا) وهو هنا يبدو متأثرًا بسياسة المحاور التى كانت قائمة فى القرن الماضى، حيث كان يوجد فى العالم محوران: المحور الشيوعى، والمحور الرأسمالى، وهنا يصبح المحور بمعنى المعسكر، وكعادة الغربيين فى انتقاص الأخرين، فإنهم يطلقون على المنطقة الممتدة ما بين المغرب وإندونيسيا منطقة (قوس الأزمات)، وهذه المنطقة ليست إلا العالم الإسلامى. وبقدر ما يجسد هذا المصطلح استعلاء الغربيين فإنه يجسد أيضًا وبصورة أكبر محنة (حاضر العالم الإسلامى)! ومهما يكن من اختلاف بين هذه المصطلحات، فإننا نقصد بالعالم الإسلامى، جميع المسلمين سواء كانوا أكثريات أو أقليات، وسواء كانوا ملتزمين بالإسلام أو متفلتين، وبالتالى فإن هذه الدراسة مهتمة بدراسة الخطوط الرئيسية فى (حاضر المسلمين).

ثانيًا: مقومات العالم الإسلامى:

هناك مجموعة من الأساسيات والقواسم المشتركة (المقومات) التى تمثل الجامع للمسلمين فى هذا العصر، حتى مع غياب الدولة الواحدة التى تلم شعثهم (الخلافة)، وفى مقدمة هذه الأسس أو المقومات:

(١) أخرجه أبو داود.

١- الدين الواحد والثقافة المشتركة:

الإسلام عقيدة وشريعة، شعائر وشرائع، يمثل العنوان الأبرز الذى يميز المسلمين بعالم خاص عن غيرهم من العوالم والأمم، فالمسلمون جميعًا يؤمنون بأركان الإيمان الستة، بما فيها من توحيد لله فى الربوبية والألوهية والصفات، ويؤمنون بسائر الملائكة والكتب والرسل، ثم يؤمنون بأن كل شيء فى هذا الكون لا يأتى صدفة، ولكن بقدر، وكذلك يؤمنون بالبعث والرجوع إلى الله، حيث الجنة هى ثواب الطائعين، والنار هى ثواب العاصين.

ويجمع المسلمون على أركان الإسلام الخمس، ولو فى الجانب النظرى عند البعض، فالشهادتان هما بوابة الدخول إلى عالم المسلمين الواسع، وأداء الصلوات الخمس فى اليوم والليلة إضافة إلى صلاة الجمعة الأسبوعية، وصيام شهر رمضان من كل عام، وكذلك أداء مناسك الحج فى الأراضى المقدسة فى موسم معين من العام لمن امتلك الاستطاعة ولو مرة فى العمر، كلها من الشعائر التى تجسد وحدة المسلمين فى أنحاء العالم. ويلحق بالجانب النظرى من الأمور التى تميز المسلمين بثقافة خاصة، العادات والتقاليد العامة وبالذات الأمور التى تدخَّل الشرع فى تنظيمها، مثل الأمور ذات الصلة بالمرأة وتكوين الأسرة، وبصورة العلاقات الإنسانية والتكافل الاجتماعى.

٢- التاريخ المشترك:

تنتمى أكثر الشعوب إلى الإسلام منذ القرن الهجرى الأول، وبعض الشعوب التى انتمت إلى العالم الإسلامى فى فترات متأخرة، سواء عن طريق الفتوحات (أوربا الشرقية) أو الدعوة والاحتكاك (جنوب شرق آسيا)، كلها عاشت فى كنف أمة واحدة منذ قرون، ولم تكن تعرف هذه الأمة الحواجز القومية أو الإنسانية أو الوطنية أو الجغرافية، فقد قامت دول هنا وهناك كانت تتمدد إلى أكثر مساحات العالم الإسلامى وأصبحت أكثر هذه الشعوب لا ترى لها تاريخًا إلا منذ بعثته ﷺ أو منذ دخولها فى الإسلام.

هذا التاريخ المشترك شهد اندماج آمال المسلمين وتوحد آلامهم أمام الأعداء الذين لم يفرقوا بين شعب وشعب، وخاصة الصليبيين والتتار.

وقد انتعشت فى بلدان المسلمين حضارات ودول، عادت بالكثير من الخير على أبنائها طيلة قرون مضت، بل وعادت بالخير على حاضر المسلمين اليوم، حيث ورَّثوا ثقافة مشتركة أنتجوها جميعًا، واستفادوا منها جميعًا فى كل جوانب الحياة الإنسانية والمادية، وخاصة فى الفقه والفكر والفلسفة والأدب والتصوف، وفى الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء وغيرها.

٣- الترابط الجغرافى:

العالم الإسلامى يتركز فى قلب الكرة الأرضية فى سلسلة من الأراضى والشعوب المرتبطة ببعضها منذ الأزل، وهذا الترابط -الذى سيتضح فى المبحث القادم- شكَّل إحدى المقومات التى يرتكز عليها العالم الإسلامى اليوم.

٤- التحديات المشتركة:

لقد أفرزت العقيدة والثقافة الواحدة، والتاريخ المشترك، والموقع الجغرافى المترابط، تحديات مشتركة، فالحضارات المعاصرة اليوم هى امتداد لحضارات تاريخية كانت قد استهدفت المسلمين جميعًا، وهى تستهدفهم اليوم بنفس القدر، حيث تضعهم كلهم فى سلة واحدة، وإن اقتضت استراتيجياتهم تفريق المسلمين والبدء بالأهم والأخطر قبل غيره، ضمن أولويات مرسومة ومعايير محددة، وهى ذات صلة بالاستراتيجية العظمى لمواجهة العالم الإسلامى.

ويشترك العالم الإسلامى فى تحدى (الاستعمار)، فالأغلبية الساحقة من الشعوب المسلمة استعمرت من قبل الاستعمار الغربى، الذى مازال يتعامل معها كمناطق نفوذ له، مع بعض التعديلات لإعطاء الولايات المتحدة الأمريكية دورًا أكبر بحكم تزعمها للعالم الغربى.

ويتحد المسلمون فى تحدى (التخلف) بصوره المختلفة - والذى سيكون موضوع الفصل الثانى- فالحال من بعضه، والاختلافات نسبية، أما جوهر التخلف فهو يعصف بالجميع، حيث إن كل الدول الإسلامية بمصطلحات الجغرافيا السياسية

والجغـرافيا الاقتـصادية تدخل ضمن إطار واحد، فـعندما يُقسم العـالم إلى شرق وغرب، تنتـمى الدول الإسلامية إلى الشـرق المتخلف، وعندما يُقـسم العالم إلى الشمال الغنى ودول الجنوب الفقير، تنتمى كل دوله إلى الجنوب، وحينما يُقسم إلى عالم متقدم وعالم متخلف (أو عالم ثالث)، تنتمى كل دوله إلى العالم الثالث.

الجـدير بالذكر أن العـالم اليوم مـتفق عـلى أن روسيـا التى تنتمى إلى أقـصى الشمال الشرقى من الكرة الأرضية، هى من دول الغرب، بينما ألبانيا التى تقع فى قلب أوروبا هى من دول الشرق! لماذا؟ لأن الأولى مسيحيـة والثانية إسلامية، وقل مثل ذلك فى جهتى الشمال والجنوب بالنسـبة للبوسنة والهرسك التى تقع فى قارة أوروبا، أى: فى الشمال، ومع ذلك فهى من دول الجنوب الفقيرة، لأنها مسلمة، بينما استراليا التى تقع فى جنوب الكرة الأرضية ليست معدودة ضمن دول الجنوب الفقيـرة، لأنها مسيحـية وغنية بالفعل!. إذن، التحـديات مشتركة، وتمثل مـقومًا أساسـيًا من مقـومات العالم الإسـلامى، وخاصة بـعد ظهور الموجـة الجديدة من الاستـعمار منذ حـرب الخليج الثانيـة ومن بعد أحـداث (أيلول ٢٠٠١م)، حيث ظهرت ما تسمى بالعـولمة، وهى ليست سوى طبعة منقحة من كتـاب (الاستعمار) -كما سنـعرف - واسفرت المخططات المختـلفة والوافدة من الغرب عن اسـتهداف جماعى للعالم الإسلامى.

إذن، هذا هو تعـريف العالم الإسـلامى، وهذه هى أهم مقـوماته التى تجـعله جسدًا واحدًا، كما اتضح من خلال مواقف الشـعوب الإسلامية والأقليات المسلمة فى العـالم من انتفـاضة الشـعب الفلسطينى وثورات الأقـصى. فمـا هى الملامح الأساسية لهذا الجسد الضخم؟.. هذا ما سنعرفه فى المبحث التالى.

***

المبحث الثانى

أطلس (الجسد الإسلامى)

العالم الإسلامى، مهما تناءت أطرافه، واتسعت مساحاته، وتباعدت أقاليمه، هو من الناحية الشرعية والواقعية كالجسد الواحد، فأين يقع بالضبط؟ ومن هم سكانه؟ وما هى ثروته؟

أولاً: عبقرية الموقع:

يقع العالم الإسلامى فى قلب العالم القديم ممسكًا بأطرافه، حاضنًا لمجموعة من أهم أنهاره، مطلاً على العديد من بحاره ومحيطاته، ومتحكمًا بعدد من أهم المضائق المائية فى العالم، ومكتظاً بالعديد من أهم الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية والطاقية والبحرية.

١- الموقع:

يمتد العالم الإسلامى على بقعة واسعة من الأرض، فمن المحيط الأطلسى غربًا حتى مياه المحيط الهادى شرقًا، من خط طول ٢٠ غربًا حتى خط طول ١٤٠ شرقًا، أى: ما يساوى ١٨٠٠٠كم، وهذا الامتداد قريب من نصف محيط الكرة الأرضية، أما بالنسبة إلى درجات العرض فتقع أكثر بلاد المسلمين شمال خط الاستواء ما عدا شواطئ إفريقية على المحيط الهندى فتسايرها على درجات كثيرة جنوب خط الاستواء، ثم إن أغلب أراضى إندونيسيا تقع فى المنطقة الاستوائية، وهذا الامتداد يتجاوز درجة العرض ٥٠ شمالاً [١].

٢- المساحة:

يقع معظم العالم الإسلامى فى أكبر قارتى العالم وهما آسيا وأفريقيا، إضافة إلى مساحات قليلة فى أوروبا، رغم أن حوالى نصف قارة أوروبا كانت فى بعض فترات التاريخ جزءًا من العالم الإسلامى.

---

(١) محمود شاكر: العالم الإسلامى والسيطرة عليه: ص (٢١، ٢٢).

تبلغ مساحة العالم الإسلامى ما يقارب ربع مساحة اليابسة، حيث يحتل ثلثي مساحة أفريقيا وثلث مساحة آسيا[١].

وإذا علمنا أن مساحة آسيا تبلغ ٤٤,٣٩١ مليون كم٢، فهذا يعنى أن مساحة البلدان الإسلامية تصل إلى قرابة ١٥ مليون كم٢. أما مساحة أفريقيا فتصل إلى ٣٠,٢٤٣,٩١٠ كم٢ ونصيب العالم الإسلامى فيها يفوق العشرين مليون كم٢. إذن تبلغ مساحة العالم الإسلامى أكثر من ٣٥ مليون كم٢. هذا غير المساحات التى توجد فى أوروبا، لكنها قليلة، وتساوى هذه المساحة ثلاثة أضعاف ونصف مساحة قارة أوروبا بأجمعها.

وبهذا يتفوق العالم الإسلامى فى المساحة على أكبر ثلاث دول فى العالم من حيث المساحة مجتمعة، وهى: روسيا، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكية، التى تساوى فقط قرابة ربع مساحة العالم الإسلامى.

يضم العالم الإسلامى قرابة ستين دولة، أصبح أربع وخمسون منها أعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى، تتباين فى كل شىء، فى المساحة والسكان والثروة والمناخ، لكنها تنتمى إلى عالم واحد، وأكبر الدول الإسلامية مساحة هى كازاخستان، ويأتى ترتيبها التاسعة فى العالم، وتليها السودان فى المركز الثانى فى العالم الإسلامى، وفى المركز العاشر على مستوى العالم.

٣- المناخ:

بسبب هذا الموقع العريض والمساحة الكبرى للعالم الإسلامى، فيمكن القول بإيجاز: إن فيه كل أنواع المناخ الموجودة فى الكرة الأرضية، باستثناء أسوأ مناخ فيها، وهو المناخ القطبى البارد، وبالتالى فإن تربة العالم الإسلامى صالحة لاستنبات كل أنواع الشجر والمحاصيل الزراعية، ولرعى وتربية كل أنواع الحيوانات والطيور، إضافة إلى انعكاس هذا المناخ الواسع التنوع على الأحياء البحرية الموجودة فى المحيطات والبحار والخلجان والبحيرات التى يطل عليها العالم الإسلامى.

(١) محمود شاكر: العالم الإسلامى والسيطرة عليه: ص (٢٢).

ثانيًا: السكان:

يمثل إحصاء سكان العالم الإسلامى، إحدى مظاهر التخلف والتفكك التى يعانى منها المسلمون، فمنذ عشرين عامًا (تقريبًا) وأنا أسمع الكثير من الشعراء والخطباء والكتاب يقولون عن المسلمين: إنهم أمة المليار، فهل توقف الزمن عند المليار؟.. كلا، لكن الزمن توقف فى عقول المسلمين، حيث يتقدم البشر جميعًا إلا المسلمين. إذن نستطيع القول بأن هناك مجازفة فى الأعداد الحقيقية للمسلمين، ولكن يمكن القول إبتداء: إن خُمس سكان العالم هم من المسلمين، والنسبة ترتفع باطراد، نظرًا لعاملين:

الأول: أن نسبة الخصوبة عند المسلمين هى الأعلى فى العالم:

والثانى: أن الإسلام هو الأسرع انتشارًا بين الأديان، وذلك فى أوساط غير المسلمين عمومًا والوثنيين خاصة، وإن كنا نرى مع ذلك أن فى هذا الأمر مبالغة مقصودة من قِبل بعض الدوائر الغربية كجزء من حملة التفزيع من المسلمين.

ويشهد الواقع أن المجلات الغربية تطلع من حين لآخر بإحصائيات عن تعداد السكان المسلمين، ونسبة زيادتهم، وتعرض ذلك كله بلهجة المتخوف وأحيانًا بلهجة التحذير من هذا التمدد الديمغرافى، ومن ذلك ما نشرته الصحف السويدية عام ١٩٨٦م تحت عنوان (المسلمون قادمون) وما نشرته الصحف السويسرية فى نفس العام تحت عنوان (الإسلام أسرع الأديان تقدمًا فى العالم) وما نشرته مجلة (التلغراف) اللندنية عام ١٩٨٨م تحت عنوان (الإسلام أكثر الديانات انتشارًا فى العالم)[١].

ومازلنا مع عدد السكان المسلمين، حيث ذهبت منظمة المؤتمر الإسلامى إلى أن المسلمين فى مطلع التسعينات من القرن العشرين كانوا يشكلون ٢٣,٢٪ من سكان العالم، أى: أنهم ١,٢٠٠ مليار نسمة من خمسة مليارات[٢]. وفى نفس الفترة تقريبًا أصدر المركز العالمى للكتاب الإسلامى فى الكويت كتابًا تحت عنوان (حاضر العالم الإسلامى ١٩٩٢ - ١٤١٣) جاء فيه أن المسلمين يشكلون ١,٥ مليار

(١) مجلة المجتمع (الكويت): العدد ٨٨٦، ٣٠ صفر ١٤٠٩هـ - ١١ أكتوبر ١٩٨٨م ص (٣٦).
(٢) مجلة الدعوة (المصرية): ٢ مارس ١٩٩٥م - شوال ١٤١٥هـ، ص (٩).

نسمة، أى ربع سكان الأرض إذا كانوا ستة مليارات نسمة[١]. وبين هؤلاء وأولئك يذهب د/ القرضاوى إلى أن عدد المسلمين مليار وثلث المليار نسمة[٢].

ومهما يكن العدد المضبوط فإن عدد السكان فى العالم الإسلامى هو أكبر عدد ينتمى إلى دين واحد، ويعيش فى نسق واحد، فى مجموعة من البلدان المرتبطة ببعضها، بعكس المسيحية التى قد يكون أتباعها أكثر من المسلمين، لكنهم موزعون فى قارات وبلدان متباعدة، تفصل بينها فواصل طبيعية مثل المحيط الأطلسى الذى يفصل بين أوروبا وأمريكا، أو فواصل طبيعية وبشرية، مثلما هو الحال بالنسبة للفلبين، وهى الدولة المسيحية الوحيدة فى آسيا.

وينتمى العالم الإسلامى من الناحية الجنسية إلى ثلاثة أجناس رئيسية: الجنس القوقازى، الجنس الزنجى، الجنس المغولى، وأهم الشعوب التى تنتمى إلى عالم الإسلام، يأتى فى المقدمة الشعب العربى الذى يبلغ تعداده حوالى ثلاثمائة مليون نسمة، ويتكلمون العربية، ثم شعب شبه القارة الهندية، وهو أكبر الشعوب الإسلامية إذا اعتبرناه شعبًا واحدًا، ويتكلم أبناؤه لغة الأوردو فى باكستان والهند، وتكتب بحروف عربية، إضافة إلى اللغات الإقليمية واللغة العربية عند كثير من المتدينين، واللغة البنغالية فى بنجلاديش والبشتو فى أفغانستان، وكلاهما تكتبان بالحروف العربية.

أما الشعب الثالث فهو الفرس، ويتكلمون اللغة الفارسية وهم فى إيران وأذربيجان وطاجيكستان، وتكتب الفارسية بالحروف العربية فى إيران. وفى المناطق التى كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتى، بعد الاستقلال طالبت العرب بإرسال مناهج ومعلمين حتى يكتبوا لغاتهم - سواء الفرس أو الأتراك - بحروف عربية، كما كانت قبل الاحتلال السوفيتى، لكن العرب كانوا يغطون فى نوم عميق، فقامت الدول الغربية بالتعاون مع تركيا بدفع تلك الجمهوريات لكتابة لغاتها بالحروف اللاتينية.

والشعب الرابع - أو القومية الرابعة - هى القومية التركية، وهى تضم دولاً عديدة أهمها: تركيا، تركمانستان، أوزبكستان، كازاخستان.

---

(١) حاضر العالم الإسلامى، المركز العالمى للكتاب الإسلامى، الكويت ص (٢٠) (بتصرف)

(٢) المسلمون والعولمة: ص (١٥٢).

القومية الزنجية هى الخامسة، وهى تضم معظم المسلمين فى قارة أفريقيا من غير العرب، وخاصة فى غرب وشرق القارة، ويتكلمون لغات شتى، بعضها مازالت تكتب بالحروف العربية مثل اللغة السواحلية فى شرق أفريقيا والصومال.

أما القومية السادسة فهى القومية الملاوية التى تضم المسلمين فى إندونيسيا وماليزيا والفلبين وإمارة بروناى وبعض جزر المحيط الهندى. وتأتى إندونيسيا - كدولة - الأولى فى العالم الإسلامى من حيث عدد السكان.

وهناك قوميات وشعوب إسلامية متوسطة وصغيرة، من أهمها: شعوب القوقاز، مثل: الشيشان والتتار والأنجوش، وكذلك الشعب الكردى، ثم السلاف فى أوروبا وخاصة فى ألبانيا والبوسنة والهرسك، وهما الشعبان الوحيدان فى قارة أوروبا اللذان يمثل المسلمون فيهما الأكثرية العددية.

ومثلما أن آسيا وأفريقيا حازتا معظم مساحة العالم الإسلامى فهما أيضًا تحوزان معظم السكان فيه، غير أن عدد المسلمين فى آسيا أكثر من أفريقيا، حيث أن مسلمى أفريقيا يساوون نصف مسلمى آسيا، مع أن أفريقيا القارة الإسلامية الوحيدة، حيث تصل نسبتهم فيها إلى ٦٠٪ من جملة سكان القارة.

وكانت بلدان العالم الإسلامى قد حاولت، بعد إحراق الصهاينة للمسجد الأقصى فى ١٩٦٩م، أن تبنى لها مظلة سياسية موحدة، وبالفعل تم تأسيس منظمة (المؤتمر الإسلامى)، وإنضمت إليها الدول الإسلامية تباعًا، وقد عقدت ثمان قمم إسلامية دون أن تحقق شيئًا من طموحات المسلمين، لكنها تعبر -على الأقل- عن الوحدة النفسية القائمة عند الشعوب المسلمة.

وقد عقدت القمة السابقة فى ١٣ - ١٥ ديسمبر ١٩٩٤م فى مدينة الدار البيضاء، وحضر الاجتماع اثنان وخمسون زعيمًا ومسئولاً من اثنين وخمسين دولة، وقد حاولتُ البحث عن آخر الإحصاءات السكَّانية فيها، إضافة إلى المساحة، وخرجت بالجدول التالى:-

الجدول رقم (١) من أعداد المسلمين ومساحات بلدانهم المنتمية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي[١]

اسم الدولة	المساحة	عدد السكان	العاصمة
إندونيسيا	١,٩٠٤,٤٤٣	٢١٩,٢٦٦,٥٥٧	جاكرتا
إيران	١,٦٣٣,١٩٠	٦٧,٤١١,٠٠٠	طهران
العراق	٤٣٨,٣١٧	٢٣,١١٥,٠٠٠	بغداد
الأردن	٨٩,٥٥٦	٥,٠٨٣,٠٠٠	عمّان
الكويت	١٧,٨١٨	٢,١٩٠,٠٠٠	الكويت
قرغيزستان	١٩٨,٥٠٠	٤,٩٢٩,٠٠٠	بيشيك
لبنان	١٠,٤٥٢	٣,٦١٩,٩٧١	بيروت
ليبيا	١,٧٥٩,٥٤٠	٥,١١٤,٠٣٢	طرابلس
ماليزيا	٣٢٩,٧٥٨	٢٣,٢٥,٠٠	كوالالمبور
جزر المالديف	٢٨٩	٣١٠,٤٢٥	مالى
مالى	١,٢٤,١٩٢	١١,٢٣٤,٠٠٠	باماكو
موريتانيا	١,٠٣١,٠٠٠	٢,٦٦٢,١٥٥	نواكشوط
المغرب	٤٥٣,٧٣٠	٣٠,٢٠٥,٣٨٧	الرباط
نيجيريا	٩٢٣,٧٦٨	١٢٣,٣٣٨,٠٠٠	أبوجا
عُمان	٣٠٩,٥٠٠	٢,٥٣٢,٥٥٦	مسقط
باكستان	٧٩٦,٠٩٥	١٥٠,٦٤٨,٠٠٠	إسلام أباد
فلسطين	؟!	؟!	القدس
قطر	١١,٤٢٧	٦٩٧,١٢٦	الدوحة
السعودية	٢,٢٤٠,٠٠٠	٢٢,٢٤٥,٧٥١	الرياض

(١) المصدر: هذه البيانات مأخوذة من عدة مصادر متفرقة وجزئية، وخاصة السكان، لكن أهمها على الإطلاق مأخوذ عن (أطلس العربى). مراجعة وتدقيق: إبراهيم حلمى الغورى (حلب: المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية ودار الشرق، ٢٠٠٢م).

اسم الدولة	المساحة	عدد السكان	العاصمة
السنغال	١٩٦,٧٢٢	١٠,٣٩٠,٢٩٦	داكار
سيراليون	٧١,٧٤٠	٥,٥٠٩,٢٦٣	فريتاون
الصومال	٦٣٧,٧٠٠	٧,٤٣٣,٩٢٢	مقديشو
السودان	٢,٥٠٥,٨٠٠	٣٦,٠٨٠,٣٧٣	الخرطوم
سوريا	١٨٥,١٨٠	١٧,٧٥٨,٩٢٥	دمشق
طاجيكستان	١٤٣,١٠٠	٦,٣٧٤,٠٠٠	دوشانبى
تونس	١٦٤,٤١٨	٩,٦٤٥,٤٩٩	تونس
تركيا	٧٧٩,٤٥٢	٦٦,٦٢٠,١٢٠	أنقرة
تركمانستان	٤٨٨,١٠٠	٥,٢٣٩,٠٠٠	عشق آباد
أوغندا	٢٤١,٠٣٨	٢٣,٤٥١,٦٨٧	كمبالا
الإمارات	٨٣,٦٠٠	٢,٨٣٥,٠٠٠	أبو ظبى
اليمن	٥٢٧,٩٦٠	١٧,٥٢١,٠٨٥	صنعاء
أفغانستان	٦٥٨,٠٩٢	٢٦,٦٦٨,٢٥١	كابول
ألبانيا	٢٨,٧٤٨	٣,٤٠١,١٢٦	تيرانا
الجزائر	٢,٣٨١,٧٤١	٣١,٧٨٧,٦٤٧	الجزائر
أذربيجان	٨٦,٦٠٠	٧,٧٣٤,٠٠٠	باكو
البحرين	٧٠٧	٦٩١,٠٠٠	المنامة
بنغلاديش	١٤٧,٥٧٠	١٢٩,١٤٦,٦٩٥	داكا
بنين	١١٢,٦٢٢	٦,٥١٦,٦٣٠	بورتونوفو
برونای	٥,٧٦٥	٣٣٠,٦٨٩	بندر سرى بيغاوان
بوركينا فاسو	٢٧٤,٢٠٠	١١,٩٤٦,٠٠٠	واغادوغو
الكاميرون	٤٧٥,٤٤٢	١٥,٨٩١,٥٣١	ياوندى
تشاد	١,٢٨٤,٠٠٠	٧,٩٧٧,٠٠٠	انجامينا
جزر القمر	١,٨٦٢	٥٨٠,٥٠٩	مورونى

اسم الدولة	المساحة	عدد السكان	العاصمة
جيبوتى	٢٣,٢٠٠	٦١٨,٦٨٠	جيبوتى
مصر	١,١٠١,٤٤٩	٦٨,٤٩٤,٥٨٤	القاهرة
الغابون	٢٦٧,٦٦٧	١,٢٤٤,١٩٢	ليبرفيل
غامبيا	١١,٢٩٥	١,٣٨١,٤٩٦	بنجول
زنجبار*	-------	---------	دار السلام
غينيا	٢٤٥,٨٥٧	٧,٦١٠,٨٦٩	كونا كرى
غينيا بيساو	٣٦,١٢٥	١,٢٦٣,٣٤١	بيساو
موزمبيق	٨٠١,٥٩٠	١٩,١٠٥,٠٠٠	مابوتو

وبعد قراءة الجدول رقم (١) ينبغى مراعاة ملاحظة جوهرية، فهناك نسبة من عدد السكان الإجمالى للدول الإسلامية، ينتمى إلى ديانات غير الإسلام، وتصل هذه النسبة إلى ١٢٪ وفى المقابل فإن ثلث السكان المسلمين فى العالم، ليسوا فى دول إسلامية، أى: أنهم أقليات منتشرة فى مختلف أنحاء العالم.

ثالثًا: الثروات:

يمتلك العالم الإسلامى الكثير من الثروات الهائلة، وهى هبات ربانية لا دخل للإنسان فيها غالبًا، ابتداء من الموقع الذى أعطى العالم الإسلامى أهمية استراتيجية فى الجوانب الإنتاجية والتجارية والسياسية، حيث يرتبط الموقع بالمضائق المائية وبكثرة البحار والمحيطات، وبتنوع المناخ، وبكثرة الأنهار وسعة الأرض الصالحة للزراعة.

١- الثروة الزراعية والمائية:

يمتلك العالم الإسلامى مساحات شاسعة صالحة للزراعة، وخاصة فى المناطق الاستوائية فى إندونيسيا وماليزيا والسودان وجنوب الصومال ووسط وغرب

* زنجبار كانت دولة إسلامية حتى احتلتها تنزانيا، لكنها أعطتها نوعًا الحكم فى نظام فدرالى؛ مراعاة لخصوصياتها كإقليم ذى غالبية مسلمة، بل وأكثرية عربية، حيث ينتمى كثير من سكانها إلى أصول عربية، وخاصة إلى عمان واليمن، ولذلك فلم نجد لها إحصاءات مستقلة عن تنزانيا.

أفريقيا، وكذلك فى المناطق الموسمية التى تأتى فى الدرجة الثانية بعد المناطق الاستوائية من حيث غزارة الأمطار وخصوبة الأرض الزراعية.

وهناك مناطق وأحواض الأنهار التى تتوزع بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة، ابتداء بأطول أنهار العالم وهو نهر النيل الذى يأتى من وسط أفريقيا شمالاً فيمر بالسودان ومصر قبل أن يصب فى البحر المتوسط مشكلاً دلتا من أخصب بقاع الدنيا.

وفى منطقة الهلال الخصيب وتركيا تجرى عدة أنهار صغيرة وكبيرة، أهمها الفرات ودجلة، وفى غرب أفريقيا يجرى نهر النيجر ويمر ببلدان عدة كلها إسلامية، إضافة إلى نهر السند العظيم فى باكستان، ونهر الكانج الذى يصب فى بنجلاديش التى تغرق معظم أراضيها فى فصل الصيف، بسبب غزارة الأمطار وكثرة الأنهار والتى تفيض بقوة فى هذا الموسم من كل عام، وكذلك أنهار إندونيسيا ووسط آسيا وماليزيا، وأنهار صغيرة فى لبنان وسوريا والمغرب والصومال وغيرها.

كل هذه الأمطار والأنهار توفر مياهًا جوفية، يمكن استغلالها جميعًا فى رى أراضى شاسعة، إذا استصلحت فى طول العالم الإسلامى وعرضه، ويكفى أن نعرف أن دولة واحدة فى العالم الإسلامى، وهى السودان يطلق عليها بعض العلماء (سلة غذاء العالم) ففيها أراضى شاسعة ومياه وفيرة تكفى لسد حاجة عشرات الملايين من الغذاء، وبتكلفة بسيطة جدًا. ولكن مازال البون شاسعًا بين الإمكانات فى العالم الإسلامى الطبيعية، وبين الكائن، أى: المستثمر المستفاد منه بالفعل، سواء فى هذه الثروة أو فى غيرها من الثروات.

وأهم الموارد الزراعية فى العالم الإسلامى: القطن والزيتون والفواكه والتمور والمطاط والتوابل والجوت، وهذه السلع يحتل فيها العالم الإسلامى المركز الأول[1] ويكفى أن نعرف أن العالم الإسلامى ينتج نصف إنتاج العالم من القطن و ٩٠٪ من المطاط، حيث تنتج دولة واحدة هى نيجيريا ٧٠٪ منه، وهناك أيضًا الأرز والقمح وقصب السكر، لكنها لا تكفى حاجات المسلمين.

(١) محمود شاكر: العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه: ص (٢٥، ٢٦).

٢- الثروة المعدنية:

يمتلك العالم الإسلامى نسبًا عالية من المعادن التى اكتشفها واستخرجها الإنسان، ومازالت كثير من أراضيه بكرًا لم تمتد إليها يد إنسان.

ومن هذه المعادن: القصدير الذى يمتلك ٥٦٪ مما يمتلكه العالم أجمع، الكروم ٤٠٪، النحاس ٢٥٪، الفوسفور ٢٥٪، المنجنيز ١٤٪، البوكسايت ٢٣٪[١].

وينتج العالم الإسلامى كميات أقل من معادن أخرى، مثل الحديد والفحم والذهب والفضة والكوبالت والرصاص، وبعض هذه المعادن يزداد فيها الإنتاج ليشكل نسبة كبيرة، مثل الذهب الذى أصبح ينتج بكميات كبيرة فى السعودية وكازاخستان.

وإذا اعتبرنا أن موارد الطاقة من ضمن الثروة المعدنية، فإن العالم الإسلامى يحوز قصب السبق فيها ويستحوذ على حصة الأسد،حيث يمتلك كميات هائلة من النفط والغاز فى كثير من أقطاره متركزة فى ثلاث مناطق رئيسية، وهى بالترتيب من حيث إمتلاكها للاحتياطيات:

منطقة الخليج العربى أولاً، حيث السعودية والعراق والكويت والإمارات وغيرها، ثم منطقة بحر قزوين، وكل الدول المطلة على هذا البحر إسلامية باستثناء روسيا، وكلها تنتج النفط بكميات كبيرة، وكذلك الغاز، وتمتلك احتياطات أكبر، وهناك شمال أفريقيا، حيث الجزائر وليبيا ومصر، إضافة إلى نيجيريا وفى مجال النفط الذى يعتبر مصدر الطاقة الأول فى العالم يمتلك المسلمون ٧٥٪ من احتياطاته على مستوى العالم[٢].

٣- الثروة الحيوانية والسمكية:

بما أن أراضى العالم الإسلامى واسعة المساحة والتنوع المناخى، فمن الطبيعى أن تكون هناك مراعى واسعة لمختلف أنواع الحيوانات، حيث توجد كميات هائلة من الجمال والماعز والأبقار وغيرها. ويكفى أن نعرف أن دولتين عربيتين هما السودان

(١) محمود شاكر: اقتصاديات العالم الإسلامى: ص (٢٢٨).

(٢) د/ محمد رضا القهوجى: حاضر العالم الإسلامى: ص (١٢).

والصومال تستأثران بـ٩٠٪ من صادرات العالم من لحوم الإبل. ومع ذلك، فإن تقصير المسلمين فى الاستفادة من معطيات العلم بالصورة المطلوبة حال بينهم وبين الاكتفاء فى اللحوم والألبان، فبينما يمثل المسلمون حوالى ربع سكان العالم (٢٥٪) فإن إنتاجهم من اللحوم يصل إلى ٦,٦٩٨٪ من إنتاج العالم، والألبان ٦,٢٧٨٪، أى: أن العجز كبير جدًا فى هاتين السلعتين الغذائيتين.

أما الأسماك فإن الحال لا يختلف عن الحيوانات، من حيث الممكنات والإنتاج الفعلى، فالعالم الإسلامى يطل على سواحل واسعة تعد بعشرات الآلاف من (الكيلومترات) فى عشرات البحار والبحيرات والخلجان والمحيطات والأنهار، لكن الاكتفاء الذاتى فى مجال الكائنات البحرية غير موجود، إذ أن العالم الإسلامى لا ينتج سوى ٨,٩٥٤٪ من إنتاج العالم من الأسماك، وقل مثل ذلك وربما أشد فى قضية استغلال واستثمار الأملاح الموجودة فى البحار بكميات مختلفة، وتوازى الكثير من المعادن، وأكثر بحار العالم امتلاكًا لهذه الثروة هو البحر الميت، حيث قدر العلماء ما يختزله هذا البحر من أملاح بمئات المليارات من الدولارات!!.

وهكذا فإن البون الشاسع فى امتلاك العالم الإسلامى للثروات الطبيعية، وبين استفادة المسلمين منها، يذكرنا بالمثل العربى الذى يقول: (جوهرة بيد فحام)!.

٤- الثروة البشرية:

وقد سبق أن تحدثنا عن عدد سكان العالم الإسلامى الهائل، والذين يمثلون ثروة ضخمة لو كانوا فاعلين، ووُضعوا ضمن مخطط للعمل والإنتاج، كل فى مجاله، ولكن الحال يقول: إن هناك عشرات الملايين بلا عمل، فأرقام المنظمة العربية للتنمية الصناعية تقول: إن عام ٢٠٠٠م سجل وجود ١٢,٥ مليون عاطل عربى[1] وربما كان الحال أسوأ فى كثير من البلدان الإسلامية الأخرى. أما عن الكفاءات العلمية التى هى الثروة الحقيقية لأى أمة، فهى فى بلاد المهجر، وستتحدث عن هذا الموضوع فى الفصل القادم.

***

(١) مجلة العربى - الكويت: العدد (٥١٩) - فبراير ٢٠٠٢م ص (٩٨).

المبحث الثالث

أهمية دراسة (حاضر العالم الإسلامى)

تنبع أهمية دراستنا وقراءتنا لحاضر العالم الإسلامى من ناحيتين: الأولى: أنها فريضة، والثانية: أنها ضرورة، وسنتحدث عنهما باختصار.

أولاً: الاهتمام بالعالم الإسلامى فريضة شرعية:

وحينما نقول: فريضة، فإن المسلم الذى يقوم بها كتابة أو قراءة يُؤجر عليها، وإذا لم يقم بها أحد من الأمة بما يلبى حاجات المسلمين، فالأمة كلها آثمة.

وقد استنبطنا هذه الفريضية من عموم الآيات والأحاديث التى تعتبر المسلمين أخوة وأمة واحدة، وتحثهم على الاهتمام بشؤون إخوانهم، معرفة وسؤالاً ومساعدة، حتى يصل الأمر إلى ربط المصير بالمصير، على اعتبار أن كل فرد إنما هو خلية فى جسد هذه الأمة، وأن كل شعب إنما هو عضو فى هذا الجسد الذى لابد أن يتألم كله إذا أصيب منه عضو، هذا إذا كان العضو حياً.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]

وحذرنا الله فى آيات كثيرة من الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

والإسلام يحب النظام والترتيب في كل شيء، حتى في حالة القتال التي يختلط الحابل فيها بالنابل، ويلتحم الراكب فيها بالراجل، ومع ذلك فإن الله يحث المسلمين على التوحيد في تلك الأثناء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والنبي ﷺ في عشرات الأحاديث أكد مثل هذا المعنى، قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه[١]، وعن النعمان بن بشير قال: قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢]، وعن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[٣]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه، وماله، ودمه، التقوى هاهنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[٤]، وعن أنس -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٥]، وعن أنس -أيضًا- قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا...»[٦].

ثانيًا: ضرورة واقعية:

الإسلام يجعل المسلمين أمة واحدة، لاعتبارات مرتبطة بالواقع، مهما كان توسعها الأفقي (شعوب - قوميات - أجناس - قبائل) أو توسعها الرأسي (تتابع الأجيال والأمم والحضارات عبر قرون طويلة) فعلى المستوى الرأسي، فإن السابق مأمور أن يراعي مصالح اللاحق، ولذلك أوقف عمر بن الخطاب أرض السواد في العراق، ورفض توزيعها على المقاتلين. وأمر الإسلامُ اللاحق بالإقتداء في الخير بالسابق، ومراعاة حرمته، والدعاء له.

يقول الدكتور القرضاوي: (إن الأمة كلها متكاملة على اختلاف الأمكنة وامتداد الأزمنة، وأنها -على مر العصور- حلقات متماسكة، يعمل أولها لخير آخرها،

---

(١)، (٢)، (٣) متفق عليه. (٤) أخرجه الترمذي. (٥) متفق عليه.

(٦) راجع بقية الحديث في صحيح البخاري.

ويغرس سلفها ليجنى خلفها، ثم يأتى الآخر فيكمل ما بدأه الأول، ويفخر الأحفاد بما فعله الأجداد، ويستغفر اللاحق للسابق، ولا يلعن آخر الأمة أولها)[١].

وإذا كانت الأمم الأخرى تتجمع وتتوحد، ويهتم بعضها بشأن بعض، ويتعاون الجميع على ما يهمهم، سواء فى مجال جلب المنافع أو دفع المضار، أو حتى سلب حقوق الآخرين، فإن من الضرورة بمكان أن نصنع مثل ذلك، فالإسلام فى قواعده الأصولية يقول: (إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، ويجب أن يتم التعامل مع العدو بالمماثلة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وهناك فى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تتحدث عن وجوب الولاء للمسلمين والبراء من أعدائهم، ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ووجوب التعاون مع أهل الخير على البر والتقوى والتناهى عن الإثم والعدوان، وهناك آيات وأحاديث تحث على مناصرة المظلوم ومواجهة الظالم وإغاثة اللهفان ومساعدة المحتاج، هكذا بصورة عامة، فكيف إذا تعلق الأمر بمسلم شقيق لأخيه فى العقيدة والعبادة والتراث والثقافة والعادات والآلام والآمال والمصالح؟.. لا شك أن يصبح أوجب؛ لأن هذه الواجبات كلها لا تتحقق إلا إذا وجد عالم مستقل متميز للمسلمين، ويعرف كل مسلم عن إخوانه ما يرتبط بهذه القضايا جميعًا.

وفى هذا العصر الذى تتكتَّل فيه الدول، وتتجمع فيه الأمم، وتتعاون فيه الحضارات، فإن دراسة العالم الإسلامى والتحام أبنائه يصبح أكثر وجوبًا وأكثر ضرورة، وخاصة أن التطور الإعلامى جعل العالم قرية واحدة، فقد أصبح من الممكن أن تعرف ما يدور فى كل أنحاء العالم وأنت فى غرفة نومك!

وإن كثافة التحديات التى تواجه المسلمين اليوم بعامة، وكثرة الأعداء الذين يواجهونهم كافة ويرمونهم عن قوس واحدة، معتبرين إياهم شيئًا واحدًا، كل ذلك يحتم ضرورة دراسة (حاضر العالم الإسلامى) حتى يعرف كل مسلم ما يحدث

(١) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى: ص (١٥٥).

لأشقائه، فيقوم بالواجب، حفاظًا على ذاته أولاً فى الدنيا؛ لأنه لا بقاء ولا مكانة محترمة فى هذا العالم إلا للأقوياء والمتوحدين، ثم رغبة فيما عند الله فى الأخرة واتقاء لعذابه[١].

ولابد أن كل متابع للأحداث منذ (أيلول ٢٠٠١م) سيدرك بجلاء أن دراسة وتضامن العالم الإسلامى صار أكثر ضرورة، حيث أصبح الغرب يعادى المسلمين جميعًا بحجة محاربة الإرهاب، ولابد أن (العدو المشترك يوحد المتخاصمين) أو كما قال أحمد شوقى: (إن المصائب يجمعن المصابين)!. وإذا لم تجمع هذه المصائب التى تنزل على المسلمين، وكل هذه التحديات التى تواجه أمتهم، إذا لم تجمعهم، فماذا سيجمعهم؟!

وهكذا فإن أهمية دراسة (حاضر العالم الإسلامى) تنبع من رؤيتين، إحداهما: رؤية نظرية، وهى أن الدين يوجب مثل هذا الاهتمام، والأخرى: رؤية عملية مرتبطة بالواقع المعاش، حيث يحتم واقع المسلمين والتحديات التى تواجههم على كل المستويات وفى كل المجالات، تحتم عليهم الاهتمام ببعضهم لمعرفة ماذا يدور حتى لا تُؤكل أقطار المسلمين قطرًا قطرًا.

*** مراجع إضافية:**

لمن أراد الاستزادة حول موضوع هذا الفصل فيمكنه الرجوع إلى المراجع التالية:

١- كتب محمود شاكر عامة، وهى كثيرة وخاصة فى هذا الصدد: سكان العالم الإسلامى، اقتصاديات العالم الإسلامى.

٢- إبراهيم أحمد رزقانة: بعض مشكلات الجغرافيا السياسية.

٣- عبد العزيز كامل: جغرافيا الإسلام فى أفريقيا.

٤- محمود طه أبو العلا: جغرافيا العالم الإسلامى.

٥- صلاح الدين الشامى، زين الدين عبد المقصود: جغرافيا العالم الإسلامى.

---

(١) سيتم تناول هذا الموضوع من جوانب أخرى فى أماكن من هذه الدراسة، وللمزيد حول هذه الفقرة يمكن مراجعة: نبيل شبيب: من حدود الصين إلى منطقة البلقان، مستقبل المسلمين مستقبل مشترك فى العالم المعاصر (مجلة فلسطين المسلمة: ديسمبر ١٩٩١م ص (٣٨ - ٤٠).

٦- د/ على جريشة: حاضر العالم الإسلامى.

٧- د. محمد رضا بشير القهوجى: حاضر العالم الإسلامى.

٨- منير الغضبان: حاضر العالم الإسلامى.

٩- ياسين الغضبان: حاضر العالم الإسلامى.

١٠- محيى الدين قضمانى: حاضر العالم الإسلامى.

١١- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامى، تعليق: شكيب أرسلان، ترجمة: عجاج نويهض.

١٢- جمال حمدان: العالم الإسلامى المعاصر.

١٣- د/ يوسف القرضاوى: الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم.

١٤- مجلة الرسالة. لبنان: العالم الإسلامى بالأرقام، العدد ٣٠، ٢٩ أيار ١٩٧٩م، ص (٢٥ - ٣٠).

***

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثانى

خماسية المعضلات الكبرى للعالم الإسلامى

المبحث الأول: التخلف الحضارى وضعف الفاعلية.

المبحث الثانى: غياب الاستقلال الكامل ودخول (جُحر الضب)!

المبحث الثالث: التآكل السياسى وإهدار حقوق الإنسان وحرياته.

المبحث الرابع: الظلم الاجتماعى والعبث المالى.

المبحث الخامس: تفرق (القلوب) وتمزق (القوالب)!.

المبحث السادس: المخرج من معضلات (العالم الإسلامى).

تمهيد

إن وضع العالم الإسلامى المعاصر وضع مؤرق، يحمل الكثير من التباينات المرة، فهو الأكبر مساحة والأفضل موقعًا والأكثر سكانًا والأعرق تاريخًا، والأغنى مواردًا وثقافة، ومع ذلك فهو الأكثر تخلفًا والأقل إنتاجًا والأدنى تقدمًا والأقل فاعلية والأصغر وزنًا فى ميدان الحضارة المعاصرة.

وينتمى العالم الإسلامى إلى ما يسمى بـ (البلاد النامية) فى المجال الاقتصادى وهو المصطلح الدبلوماسى المهذب لمعنى (التخلف) وفى المجال السياسى ينتمى إلى عالم (دول عدم الإنحياز) حيث اللاموقف الحضارى المميز والذى لا يبنى عادة إلا على مقومات الاستقلال والاستغناء.

ولقد أصاب (حاضر العالم الإسلامى) ما أصاب تاريخ الأمم الماضية، ففى المجال النظرى أصيب المسلمون بما أصيبت به الحضارات السابقة، وخاصة حضارتى فارس والروم، بل يبدو أن حال عالم المسلمين اليوم أشبه بحال أعراب ما قبل الإسلام، حيث التفرق والتمزق، وحيث الضعف والوهن وانعدام الفاعلية، ويكاد ينطبق على حال مسلمى هذا العصر، ما قال أحد الشعراء القدامى:

عربٌ رأيت أصح ميثاق لهم ... أن لا يصح لديهم ميثاق

ويبدو أنهم قد أصيبوا بعمى الألوان، حيث فقدوا التفريق بين الغث والثمين، واختلط عليهم الحابل بالنابل، بل وتشابهت عليهم البقر:

وتشابهت سور القرآن عليكم ... فقرنتم الأنعام بالشعراء

وقد تعددت علل العالم الإسلامى، وكثر الدارسون لهذه العلل، واختلف هؤلاء فى تشخيص علل الأمة اختلافًا كبيرًا، جرَّ أحيانًا إلى معارك كلامية وصلت حد التجهيل والتفسيق وربما التضليل والتكفير، وهذا الاختلاف هو بحد ذاته أحد أعراض داء الأمة الكبير.

ولأن علل الأمة الإسلامية بحاجة إلى الكثير من الدراسة والبحث، وإلى الكثير من التدقيق والتمحيص، فقد حاولتُ هنا الإدلاء بدلوى، جاهدًا قدر المستطاع أن أحيط بأمهات المعضلات الكبرى التى يعانى منها عالمنا الإسلامى، بأقل قدر ممكن من الصفحات، مراعاة لطبيعة هذا الكتاب وسياق هذا الموضوع.

وبحسب اطلاعى وفهمى بدا لى أن أدواء العالم الإسلامى الأسياسية تتركز في خمس علل، سنستعرضها متتابعة فى خمسة مباحث، إضافة إلى مبحث سادس عن الخطوط الرئيسية للمخرج من هذه العلل أو المعضلات.

***

المبحث الأول

التخلف الحضارى وضعف الفاعلية

يتكون العالم الإسلامى من بضع وخمسين دولة، إضافة إلى عشرات الأقليات فى مختلف أنحاء العالم. ورغم التفاوت الكبير فى الأجناس والألوان واللغات والعادات والتقاليد والاهتمامات، إلا أن القاسم المشترك بين هؤلاء جميعًا هو التخلف -للأسف الشديد-، فالكثير من هؤلاء ينسبون إلى الشرق المتخلف وإلى الجنوب الفقير وإلى العالم الثالث الذي يطلق على دوله مصطلح (الدول النامية)، بل أن قائمة الدول الأكثر تخلفًا فى العالم (الدول الأقل نموًا) معظمها مسكونة من قبل دول إسلامية، وهناك قليل من الدول الإسلامية التى بدأت تكسر الحواجز وتخالف القواعد، حيث بدأت بالحركة الدائبة نحو الخروج من أسْر التخلف، لكنها لا تتجاوز أصابع اليد، وتعانى من موانع كثيرة، داخلية وخارجية.

وقد أشار شوقى إلى بعض أعراض التخلف التى اعترت هذه الأمة، فقال وهو يخاطب النبى ﷺ:

شعوبك فى شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف فى عميق سبات

ويقول فى موضع آخر:

أدرى رسول الله أن نفوسهم ... ركبت هواها والقلوب هواءُ

رقدوا وغرهمو نعيم باطل ... ونعيم قوم فى القيود بلاءُ

وإن تعجب فعجب أن ترى التناقضات فى حياة هذه الأمة، فإنها الأمة الوحيدة التى أفتتح كتابها المقدس بأية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ [العلق: ١] وضم بين دفتيه عشرات الآيات التى تحث على القراءة والكتابة والعلم والفكر والتدبر والتفكر والنظر والبحث، ومع ذلك فهى أكثر الأمم تخلفًا وجهلاً، والأدهى والأمر أن الوضع يزداد سوءًا مما حدا بكاتب عربى إلى القول بمرارة: (إن التقدم وحده الذى يتخلف والتخلف وحده الذى يتقدم فى الوطن العربى)[1].

---

(١) هو مطاع صفدى.

ويمكن أن نلحظ تجسد هذا التخلف وحركته فى حياة العالم الإسلامى من خلال قناتين أساسيتين، هما: قناة نظرية: وهى الضعف العلمى، وقناة عملية: وهى الضعف العملى

أولاً: التخلف العلمى:

ونعنى هنا بالعلم كل الجوانب النظرية التى تساهم بهذا القدر أو ذاك فى تقدم أو تخلف أى مجتمع، من علم ومعرفة وتكنولوجيا وأبحاث وتجارب، فى كل فروع العلم وميادين المعرفة، وفى كل ميادين الحياة.

وتبرز القراءة كأول مفردة فى هذا المجال، ولكن الحال لا يسر، حيث نسبة الأمية فى العالم الإسلامى هى الأعلى بين الأمم ذات الحضارة والشأن. ويعانى (الكتاب) من أزمات كثيرة جدًا، ولذلك فإن الكتب المطبوعة فى العالم الإسلامى هى الأقل عددًا والأضعف نوعًا، مقارنة بأمثالها فى العالم[١].

وما يحدث فى عالم الكتاب، يتكرر بصورة أسوأ فى عالم الصحف والمجلات والدوريات وكل وسائل الإعلام، إضافة إلى الكمبيوتر والإنترنت، والأرقام التالية ستبين وجه المأساة، وخاصة عند المقارنة مع الدول الغربية، بل حتى مع بعض دول العالم الثالث:

- فى ألمانيا الغربية - أى قبل أن تتوحد الألمانياتان فى ١٩٩٠م - تصدر ١١٩٠ صحيفة يومية عن ٤٠٠ دار للنشر بمعدل ٢٣ مليون نسخة يوميًا (محلية وعالمية) وتصدر ٩٤٠٠ مجلة تطبع حوالى مليون نسخة، ويبث التلفزيون من خلال ثلاث قنوات وتبث الإذاعة من خلال تسع محطات، إضافة إلى محطتين للبرامج الموجهة إلى الخارج، وتبثان باربع وثلاثين لغة[٢].

- وفى ذات السياق تتحدث الأرقام عام ١٩٩٦م عن الولايات المتحدة الأمريكية، فتقول: إن ٤٥ ألف كتاب قد صدرت فى ذلك العام فقط، وإن فيها

---

(١) انظر حول أزمة الكتاب فى الوطن العربى: مجلة الأمة - قطر، العدد (٦٣)، ص (٧٨)، مجلة قضايا دولية - باكستان، العدد (٢٨١)، ٢٢ مايو ١٩٩٥م ص (٣٠).

(٢) مجلة الأمة - قطر، صفر ١٤٠٥هـ، ص (٧١).

ألفًا وخمسمائة جريدة يومية، إضافة إلى ثلاثة آلاف وسبعمائة مجلة متخصصة ومائتين وخمسين مجلة للمهندسين[١].

الجدول رقم (٢) مقارنة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة فى وسائل المعرفة[٢]

مؤشرات محسوبة لكل ألف مواطن (عام ١٩٩٥)	دول صناعية	دول نامية	دول أقل نموا
استهلاك ورق الطباعة	٧٨,٢	٥,٢	٠,٤
عدد أجهزة الراديو	١٠٠٥,٢	١٨٥,١	١١٣,٢
عدد أجهزة التليفزيون	٥٢٣,٦	١٤٥,٣	٣٢,٤
عدد خطوط التليفون	٤١٣,٥	٣٨,٧	٣,٢
عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصية	١٥٦,٣	٦,٥	صفر
عدد مستخدمى الإنترنت	١٧,٩	٠,٥	صفر

ومتوسط العالم الإسلامى فى هذه الأجهزة المرتبطة بالانفجار المعرفى فى هذا العصر والمبينة بالجدول رقم (٢)، هو ذات متوسط الدول النامية أحيانًا. وفى الكثير من الأحيان وفى بعض أوجة المقارنة ينزل المتوسط إلى مستوى الدول المتخلفة (الأقل نموًا). وستتأكد من هذا الأمر من خلال إحصائيات أخرى، وخاصة عندما ندمج متوسطات الدول المتقدمة مع الدول المتخلفة غير العربية، ونأتى بمتوسط عالمى موحد، ونقارنه بمتوسط الدول العربية، كنموذج للعالم الإسلامى.

جاء فى إحصائية علمية أن المتوسط العالمى لامتلاك أجهزة الراديو للألف مواطن و ٣٦٤ جهازًا ينخفض فى الدول العربية إلى ٢٦٤ جهازًا، ويصل المتوسط العالمى لأجهزة التلفزيون ٢٢٨ جهازًا مقابل ١٣٨ جهازًا فى الوطن العربى و١٤٥ جهازًا فى الدول النامية. أما المتوسط العالمى لعدد النسخ من الصحف لكل ألف مواطن فهو ١١٥ نسخة مقابل ٣٥ نسخة فى العالم العربى و٥٠ نسخة فى الدول

(١) مجلة العربى - الكويت، العدد (٤٩٤)، ص (٢٩).

(٢) المصدر: مجلة العربى، العدد (٢٥٢)، ص (٢٨).

النامية، ويبلغ المتوسط العالمى لورق الطباعة لكل ألف مواطن بـ ٢٠,٩، ولا يتجاوز ٢,٩ فى الدول العربية مقارنة بـ ٥,٢ فى الدول النامية[١].

- يبلغ نسبة الربط بشبكة الهاتف ٦٪ فى الدول العربية، بينما تتجاوز ٦٠٪ مواطنًا فى الدول المتقدمة، وفى الإنترنت تصل النسبة فى العالم المتقدم إلى ١٠٪ من السكان مقابل ١٪ للعرب، أما الكمبيوتر فنصيب العرب ٣٠ فى الألف بينما نصيب العالم المتقدم ١٥٠ جهازًا فى الألف[٢].

- أما عن الأمية فى العالم الإسلامى فهى العلامة الأبرز على انحراف عالم المسلمين عن دينهم، بقدر ما هى الآية الكبرى فى تخلفهم عن الركب الحضارى، حيث تختلف التقديرات المتشائمة والمتفائلة ما بين ٤٠-٦٠٪ من مجموع السكان، أى: أن نسبة الأمية فى افضل الأحوال لا تقل عن ٤٠٪ كمتوسط فى العالم الإسلامى فى مطلع الألفية الثالثة وبعد تجاوز القرن العشرين الذى وصف بأنه قرن العلم والانفجار المعرفى.

ووفقًا لأخر الأرقام عن نسبة الأمية فى بعض البلدان العربية، فإن النسبة تصل إلى٥٦٪ فى المغرب و٥٤٪فى السودان و٤٩٪فى مصر و٤٢٪فى العراق و٢٧٪فى السعودية و٢١٪فى الكويت والإمارات وقطر، ٨٪فى لبنان و١٢٪فى الأردن[٣] وهناك بلدان عربية وإسلامية تصل نسبة الأمية فيها إلى أكثر من ٥٠٪ من مجموعة السكان، والعجيب أن الشعب الفلسطينى وحده هو الذى تخلص من الأمية، ولم يبق فيه إلا ١٪ من السكان وهم من كبار السن.

ويأتى انعدام الاهتمام بالبحث العلمى فى العالم الإسلامى كوجه من أوجه مأساة مسلمى هذا العصر، حيث إن متوسط ما تنفقه الدول العربية على البحث العلمى لا يزيد عن ٠,٤٪ مقابل ٢٪ للدول الصناعية و٣٪ لإسرائيل. وهذا العامل ساهم مع عوامل أخرى، من أهمها انعدام الحريات السياسية فى هجرة جماعية للكفاءات العربية والإسلامية الجادة إلى العالم الغربى.

---

(١) مجلة العربى، العدد (٥٢١)، ص (٢٢).

(٢) المصدر نفسه : ص (٢٢، ٢٣).

(٣) المصدر نفسه: ص (٩٨) وانظر عن أرقام الأمية: مجلة الإصلاح - الإمارات، العدد (١٠٥)، ص (٣٨، ٣٩).

وفى هذا السياق جاءت فى افتتاحية إحدى المجلات العربية الجادة الأرقام التالية[١]:- يساهم الوطن العربى فى ثلث هجرة الكفاءات من البلدان النامية - يهاجر ٥٠٪ من الأطباء العرب المتخرجين و٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء إلى أوربا والولايات المتحدة وكندا بوجه خاص - لا يعود ٥٤٪ من الطلاب العرب الدارسين فى الخارج إلى بلدانهم - يشكل الأطباء العرب العاملون فى بريطانيا حوالى ٣٤٪ من مجموع الأطباء العاملين فيها - بلغت خسائر الدول العربية من جراء هجرة الأدمغة العربية فى عقد السبعينات فقط ١١ مليار دولار، وقد تزايدت هذه الظاهرة فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين - ورد فى دراسة حديثة صدرت فى دمشق أن العرب يخسرون كل عام ١,٥٧ مليار دولار بسبب هجرة الأدمغة العربية - ينفق العالم العربى على السلاح ٦٠ مليار دولار فى العام، ولا ينفق على البحث العلمى إلا ٦٠٠ مليون دولار (يهدر بعضها فى المصروفات الإدارية) - تنفق الجامعات العربية ١٪ من ميزانياتها على البحث العلمى، بينما تنفق الجامعات الأمريكية ٤٠٪ من ميزانياتها على قطاع البحث العلمى، ويبدو أن هذا النزيف سيزداد (ويضاعف من حالة «الأنيميا العلمية والعقلية» التى توهن من قوانا وتجرنا لتبعية خلف عدونا).

وفى إحصائية أخرى ورد أن عدد العلماء المهاجرين من العرب فى أواخر الستينات لم يتجاوز ١٤٠ ألفًا، وأن الرقم وصل فى ١٩٩٦م إلى مليون ونصف، مما يعنى أن الهجرة تزيد بمعدل ٣٥٪ سنويًا، وعزا تقريران لليونسكو والإيسيسكو هذه الهجرة إلى شعور العلماء بعدم حصولهم على حقوقهم المادية أو المعنوية فى بلادهم[٢]. وجاء فى تقرير أعدته الجامعة العربية عن هجرة العقول العربية إلى الغرب بأن الخسائر الناجمة عن ذلك بلغت ٢٠٠ مليار دولار، معتبرًا هذه الظاهرة بمثابة الكارثة، وجاء فى التقرير أن إسرائيل تفوقت علميًا عن طريق إغراء العلماء الأجانب وتوطينهم داخل إسرائيل التى احتلت المرتبة ٢٤ بين الدول المتقدمة، والمرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة فى مجال الأبحاث والقدرات العلمية، وكانت

(١) مجلة البيان - لندن، العدد (١٨٠)، شعبان ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م ص (٣).

(٢) مجلة الدعوة - مصر: ذو القعدة ١٤١٧هـ - مارس ١٩٩٧م ص (٦).

اليونسكو قد ذهبت فى تقريرها العلمى الأخير إلى تدنى نصيب الدول العربية من براءات الاختراع التكنولوچى على مستوى العالم، حيث بلغ نصيب أوربا من هذه البراءات ٤٧,٤٪ وأمريكا الشمالية ٣٣,٤٪ واليابان والدول الصناعية الجديدة ١٦,٦[١].

هذه الأرقام فقط من الوطن العربى وهو لا يزيد عن خُمس العالم الإسلامى، فكيف لو أن الأرقام ضمت العلماء المسلمين المهاجرين من البلدان الإسلامية الأخرى، وخاصة الهند وباكستان وإيران وجمهوريات آسيا الوسطى وأفريقيا وإندونيسيا وتركيا وغيرها؟.. لا شك أن العدد سيكون ضخمًا جدًا، وبالتالى فإن هذا النزيف الدائم هو أحد عوامل تخلف الأمة الإسلامية وفقرها الحضارى، وفى الوقت ذاته فإنه أحد عوامل تعزز الحضارة الغربية فى كافة جوانب الحياة.

ثانيًا: التخلف العملى:

إذا أردنا أن نشبه الحضارة بطائر، فإن طائر الحضارة لا يسير إلا بقدمين إحداهما العلم والأخرى العمل، ولا يطير إلا بجناحين: الثراء التكنولوچى والغزارة الإنتاجية. إذًا، فإن الوجه الآخر لعملة التخلف فى حاضر المسلمين هو ضعف العمل وهزالة الإنتاج فى كافة مناحى الحياة.

لقد طغت الأمانى والآمال على فكر مسلمى هذا العصر، وتعلقت أعداد هائلة بالأوهام، مما أضعف العلاقة مع الأسباب وأوهن الإعداد والاستعداد، وانعكس كل ذلك على ضعف الإنتاج كمًا ونوعًا فى الجوانب المرتبطة بحياة الإنسان واستقلاله، غذاءً وسكنًا واتصالاً ومواصلة ومعرفة ورفاهية.

١- العجز الغذائى:

يمتلك العالم الإسلامى كل عناصر الإنتاج الغذائى المتكامل من مناخ متنوع صالح لاستزراع كل أنواع الحبوب والخضروات والفواكه، ومن أراضٍ واسعة تصلح لزراعة كل شىء، ومن مياه كثيرة بحاجة فقط إلى تنظيم استغلالها، وخاصة أن أحواضًا رئيسية لأنهار كبيرة تجرى فى العالم الإسلامى هى من أشد

(١) مجلة الشقائق - الإمارات، العدد (٥٥)، المحرم ١٤٢٣هـ - إبريل ٢٠٠٢م، ص (٨).

مناطق العالم خصوبة، مثل نهر النيل الذى يمر بأراضى عربية وإسلامية طويلة، وهو أطول أنهار العالم قاطبة، وكذلك نهر السند فى باكستان، نهر النيجر الذى يمر ببلدان إسلامية عديدة، ونهر الفرات الذى يمر بثلاث دول إسلامية، ونهر دجلة الذى يمر بدولتين إسلاميتين، وكذلك نهر الكانج الذى يقدسه الهندوس فى الهند حيث يمر فى بنجلادش، إضافة إلى عشرات الأنهار المتوسطة والصغيرة فى جمهوريات وسط آسيا وإيران وماليزيا وإندونيسيا ولبنان والمغرب والصومال وتركيا والسودان وغيرها.

ويطل العالم الإسلامى بعشرات الآلاف من (الكيلومترات) على سواحل غنية بكل أنواع الحياة البحرية التى تصلح كغذاء للإنسان، ابتداء بالمحيط الأطلسى ومرورًا بالبحار: الأبيض المتوسط والأحمر والأسود، حتى الخليج العربى وبحر قزوين والمحيط الهندى وخليج البنغال، فضلاً عن عشرات الآلاف من الجزر فى هذه البحار والمحيطات والخلجان.

والمراعى تتوفر فى كل أنحاء العالم الإسلامى تقريبًا مع اختلاف فى النِّسب، وفى المناخ والرعى المناسبين لأنواع مختلفة من الحيوانات.

ورغم هذا كله، فإن قعود المسلمين عن استصلاح الأرض وزراعتها - مع الأخذ بأسباب الزراعة العلمية ومعطيات التقدم التكنولوجى فى هذا المضمار - أدى إلى تخلف الزراعة وتصحر الأراضى الشاسعة، وضعف الإنتاج الغذائى، حيث نسبة الاعتماد على الواردات من العالم الخارجى تزداد عامًا بعد عام فى معظم دول العالم الإسلامى.

وفى هذا السياق أكد تقرير للمؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا أن العجز الغذائى فى دول منظمة المؤتمر الإسلامى سيصل - وقد تحقق بالفعل - عام ٢٠٠٠ إلى ٨٤ مليون طن. وقال التقرير: إن عدد سكان العالم الإسلامى يزداد بنسبة ٣٪ سنويًا، بينما لا تزيد نسبة الإنتاج الغذائى فى ديار المسلمين عن ١,٥٪ سنويًا[١]، وهذا يعنى أن العجز يزداد عامًا بعد عام، وهذا العجز الغذائى هو أحد أسباب عجز العالم الإسلامى عن مواجهة التحديات التى تحيط به من كل جانب.

(١) مجلة الدعوة المصرية، مارس ١٩٩٥م - شوال ١٤١٥هـ، ص (٨).

هذا العجز المتزايد يحدث عند المسلمين في ذات الوقت الذي يزداد فيه الإنتاج الزراعي في العوالم المنافسة لهم، فضلاً عن الكيان اليهودي المستوطن لأرض العرب في فلسطين، وتأملوا ما يقول الزعيم الصهيوني شمعون بيريز بهذا الصدد: (تمتلك إسرائيل مزية نسبية في استخدام الأبحاث الأساسية والتطبيقية، في الزراعة والتصحر، وقد تمكنت من زيادة دخلها الزراعي، حوالي اثني عشر ضعفًا، خلال خمسة وعشرين عامًا، من (١٩٥٠ - ١٩٧٥م) تقريبًا، دون زيادة حجم الأراضي الصالحة للزراعة، والتقدير هو أن ٩٥٪ من الزيادة تحققت نتيجة العلم والتكنولوجيا، والتخطيط...)[١].

وبقدر ما تؤثر التكنولوجيا في مضاعفة الإنتاج مرات عديدة، فإنها في الوقت ذاته تقلل من الأيدي العاملة في الزراعة، وهذا مكسب مزدوج تحققه التكنولوجيا، لكن المسلمين لا يستفيدون منه حتى بحده الأدنى، إذ أن الأرقام تقول: إن متوسط إنتاجية الفدان في أوربا يساوي ثلاثة أضعاف إنتاج الفدان العربي أما الأمريكي فهو يساوي أربعة أضعاف الفدان العربي.

وتدل الإحصاءات على أن نسبة القوى العاملة في الزراعة في البلدان المتقدمة قد تناقصت من ٣٨٪ من جملة القوى العاملة عام ١٩٥٠م إلى ١٠٪ عام ١٩٨١م، وأن نسبة القوى العاملة في الصناعة قد تناقصت بين عامي (١٩٧٠ و ١٩٨١م) من ٣٨٪ إلى ٣٤٪ وأن نسبة القوى العاملة في قطاع الخدمات (الإدارية بالدرجة الأولى) قد تزايدت بين عام ١٩٥٠م وعام ١٩٨١م من ٣٢٪ إلى ٣٦٪[٢]. وفي المقابل فإن الزراعة في العالم الإسلامي تستأثر بنصيب الأسد من القوى العاملة (حوالي ٦٠٪) دون أن توجد دولة إسلامية واحدة مستكفية من كل السلع الزراعية.

وتزداد مشكلة المسلمين الغذائية تفاقمًا، كلما زادت خطورة وأهمية السلعة الزراعية، فالعالم كله يجمع على أن السلعة الاستراتيجية الأولى في هذا المجال، هي القمح، ونظرًا لأن امتلاك القرار السياسي الكامل في بلدان العالم الثالث ومنها العالم الإسلامي غير متوفر، لعوامل عديدة، فإن (القمح) أصبح بيد الدول

(١) شمعون بيريز: الشرق الأوسط الجديد: ص (١٣٧).

(٢) العربي: العدد (٣٦٢)، يناير ١٩٨٩م، صـ (١٤٥).

الكبرى وسيلة لـ (القمع) عن طريق ممارسة الضغوط لعدم تحقيق الاكتفاء الذاتى منه فى كل بلد على حدة، حتى يصبح نقطة ضعف أساسية فى جدران تلك البلدان.

وإذا ضربنا المثل بأكبر الدول العربية وأقواها، وهى مصر التى تمتلك كل الدول الإسلامية قبولاً لكى تنقاد لها كزعيمة للأمة.. فما هو موقعها من إنتاج القمح؟

تقول الأرقام الرسمية: إن مصر تنتج ٢٠٪ من احتياجاتها القمحية، وقد وافق مجلس الشيوخ الأمريكى على قرار يقضى بإلزام مديرها فى البنك الدولى وبنوك التنمية الإقليمية بعدم الموافقة على منح قروض لمشاريع فى الدول النامية ترمى إلى انتاج القمح(١).

جدول رقم(٣) حول نسبة الاكتفاء الذاتى فى الوطن العربى من بعض السلع الغذائية(٢).

نسبة الاكتفاء الذاتى	القمح	الأرز	الذرة	الشعير	الحبوب الأخرى
١٩٧٥م	٤٤,٢٪	٧٢,٩٪	٨١,١٪	٩٥,١٪	٩٩,١٪
١٩٩٠م	٣٨,٨٪	٥٢,٤٪	٤٧,٠٪	٥٨,٣٪	٩٥,٠٪
٢٠٠٠م	٣٦,٦٪	٤٥,٢٪	٣٤,١٪	٤١,١٪	٩٤,٢٪

ونلاحظ بوضوح من الجدول رقم (٣) حجم الاعتماد الكبير للعالم العربى على الخارج فى استيراد نسب العجز الكبيرة فى سلع رئيسية واستراتيجية، والإشكال ليس فى خطورة نسبة العجز الكبيرة فحسب، ولكن الإشكال يتضاعف ويزداد كلما تقدم الزمن، حيث نلاحظ أن نسبة الاكتفاء الذاتى ظلت تنخفض باطراد، وبالتالى يزداد كل عام ارتفاع نسبة الاستيراد. ومن المنطقى أن الدولة التى (يزداد) اعتمادها على منافسيها وخصومها وخاصة فى السلع الاستراتيجية (تنقص) حريتها وتنخفض فاعليتها ويزداد ضعفها وتخلفها.

(١) مجلة لواء الإسلام - مصر، يونيو ١٩٨٩م، ص (٣٣).

(٢) المصدر: د/ سيف الدين عبد الفتاح: عقلية الوهن- دراسة فى أزمة الخليج ص (٢٠٧).

جدول رقم (٤) حول المعونا الغذائية التى تلقتها المنطقة العربية (١٩٩٠ - ١٩٩٢)[١]

الدولة	حبوب (ألف طن)	زيت (طن)	حليب (طن)
الجـــزائر	٢٠,٠٠٠	٧٨٧,٠٠٠	٩٧٨,٠٠
مـــصـــر	١١٢٤,٠٠	٩٢٦٤,٠٠	٢٧٨٣,٠٠
مـوريتانيـا	٥٩,٠٠٠	١٠٦٧,٠٠	٨١٤,٠٠
المغـــرب	٢١٠,٠٠	٥٠٧٣٤,٠٠	٣٩٢٧,٠٠
الصـومـال	١٦٨,٠٠	٧٦٢٨,٠٠	٧٢٦,٠٠
الســـودان	٤٢٦,٠٠	١١٤١١,٠٠	٣٧٥٨,٠٠
تـــونـــس	١٧٩,٠٠	٣٦١١,٠٠	٣٣٠٣,٠٠
العـــراق	٦٦,٠٠	١٨٣١,٠٠	٥٣٩,٠٠
الأردن	٣٢٠,٠٠	٢٢٧٠,٠٠	١١٤٥,٠٠
لـبـنـان	١٥,٠٠	٥٦٠٨,٠٠	١٨٦٤,٠٠
ســـوريا	١٩,٠٠	١٣٠٣,٠٠	٢٣٢١,٠٠

٢- العجز الصناعى:

تعتبر المجتمعات العربية والإسلامية -فى غالبيتها- مجتمعات زراعية، إذ تصل نسبة القوى العاملة فى الزراعة ما بين ٥٠ - ٨٠٪ من مجموع القوى العاملة، ومع ذلك فقد رأينا التخلف الزراعى فى أسوأ صوره، حيث إن أكثر البلدان العربية والإسلامية تستورد نسبة عالية من حاجاتها الغذائية من الغرب، إما على صورة صفقات تجارية أو على شكل مساعدات لا يمكن أن تكون بريئة، فإن ثمنها لابد أن يكون جزءاً من استقلال الدولة الإسلامية.

أما العجز فى مجال استخراج المواد الأولية وتحويلها إلى صور مختلفة من المصنوعات التى يحتاجها الإنسان فى كل مناحى حياته، فإنه أشد وأنكى، حيث

(١) المصدر: عبد القادر الطرابلسى: أضواء على مشكلة الغذاء بالمنطقة العربية الإسلامية: ص (١٤٠).

يستورد المسلمون -أو أكثرهم- من الآخرين كل شيء من الإبرة حتى الطائرة والصاروخ، رغم أن كل الصناعات التى يحتاجها الإنسان فى الحياة يجعلها الإسلام فريضة كفائية تأثم الأمة كلها إذا لم يوجد فيها من يصنعها، وهذه واحدة من التناقضات الصارخة بين مسلمى هذا العصر وإسلامهم!.

وعندما نستعرض أرقام العالم الإسلامى فى مجال المدخلات الصناعية (المعادن والعناصر الأولية)، نجد الأرقام عالية والنسب مرتفعة مقارنة بأمم الأرض الأخرى، وهذه بعض الأمثلة:

- يمتلك العالم الإسلامى ٥٦٪ من القصدير، و٤٠٪ من الكروم، و٢٥٪ من النحاس، و٢٥٪ من الفوسفات، و٢٤٪ من المنجنيز، و٢٣٪ من البوكسايت.
- بلغ إنتاج الدول الإسلامية فى غرب آسيا من النفط ١٥٧٤٢ مليون برميل فى اليوم، وهو ما يساوى ٦١٪ من إنتاج دول (أوبك) و٢٤٪ من إنتاج العالم أجمع، وتمتلك هذه الدول فى نفس العام ٧٥٪ من احتياطى الأوبك فى النفط و٨٥٪ من احتياطى كل العالم[١].
- وهناك منطقة إسلامية أخرى غنية بالطاقة (نفط وغاز) وهى ثانى أهم منطقة فى العالم من حيث امتلاك الاحتياطى، وتضم الجمهوريات الإسلامية الست التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى، إضافة إلى إيران.
- وفى أفريقيا فإن أغنى المناطق فى إنتاج الطاقة على مستوى القارة هى بلدان إسلامية، وخاصة النفط، حيث تأتى ليبيا والجزائر ونيجيريا ومصر والسودان فى المقدمة.

إذن نستطيع وضع معادلة إسلامية معاصرة حول مدى امتلاك المسلمين للمواد الأولية واستفادتهم منها فى التصنيع، فنقول بأن هناك غنى فاحش فى المدخلات (المواد الأولية) وفقر مدقع فى المخرجات والتى هى سائر أنواع الصناعات، وخاصة الصناعات الثقيلة وصناعة الإلكترونيات وصناعة المعلومات والأسلحة ووسائل المواصلات المتقدمة.

(١) هذه الأرقام مأخوذة عن: د/ رفعت السيد العوضى: «عالم إسلامى بلا فقر»: ص (١٤٠- ١٤٧).

وقد رأينا ما حدث للعراق عندما حُوصر منذ العام ١٩٩٠م حتى سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣م حيث اتضحت هشاشة النظام، وضعف المجتمع العراقى فى الاستفادة من ثرواته الأولية وعائداته فى استزراع الأرض الواسعة والخصبة وفى تصنيعه ولو للسلع الضرورية التى يحتاجها الشعب العراقى مثل الدواء، حيث تقول الأرقام الرسمية: إن أكثر من مليون طفل عراقى قد ماتوا خلال فترة الحصار نتيجة سوء التغذية، وبسبب قلة الأدوية، هذا مع أن المبرر الذى ضرب بسببه هو أنه حاول إيجاد نهضة مادية تؤهل العراق لمغادرة مربع التخلف والتبعية إلى ميدان الحرية وفضاء الاستقلال بالمفهوم الشامل!!

ويبرز هذا التخلف الشائن فى ساحتى المعرفة والإنتاج، ويتجسد من خلال ضآلة متوسط الدخل الفردى أو الدخل القومى فى العالم الإسلامى، مقارنة ببقية دول العالم، وخاصة الدول المتقدمة.

وتتضح المأساة كاملة إذا عرفنا أن متوسط دخل الفرد فى العالم العربى المترامى الأطراف وصاحب الثروات الطبيعية الهائلة، لا يزيد عن ألف ومائتى دولار، بينما متوسط دخل المواطن الإسرائيلى يصل إلى ١٦ ألف دولار، وفى الولايات المتحدة الأمريكية إلى ٣٠ ألف، وفى هونج كونج إلى ٢٧ ألف دولار!!

أما عن مستوى الدخل القومى، فقد كشف تقرير التنمية العربية لعام ٢٠٠٢م والصادر عن الأمم المتحدة أن دخل دولة أوروبية واحدة هى أسبانيا يفوق دخل الدول العربية مجتمعة!. مع العلم أن الدول العربية تفوق أسبانيا مرات كثيرة فى المساحة وعدد السكان، إضافة إلى السواحل الطويلة والثروات الطبيعية الهائلة وعلى رأسها النفط، وينبغى الإشارة إلى أن أسبانيا هى من أكثر الدول الأوربية تخلفًا وآخرها دخولاً عصر الصناعة، حيث كانت حتى السبعينات قريبة الشبه بالدول العربية فى مفردات كثيرة، ومن أهمها النظام السياسى الذى كان نظامًا عسكريًا استبداديًا. وكانت البداية القوية هى التخلص من ذلك النظام، وإرساء النظام الديمقراطى، والتفرغ لبناء الإنسان بناء حقيقياً، وتكشف أرقام التقرير الآنف الذكر، فى هذا السياق. أن أسبانيا. مثلاً ترجمت فى عام واحد ما يصل مجموعه

إلى عشرة آلالف كتاب، وهو ما يفوق كل ما ألف وترجم من كتب وأبحاث ومجلات وجرائد فى الوطن العربى طيلة ذلك العام ذاته!.

وهكذا فإن هذا التخلف الحضارى ينعكس على ضعف الفاعلية فى العالم الإسلامى، حيث لا وزن للمسلمين ولا حساب يوازى أعدادهم وما يمتلكون من طاقات وثروات، وحيث لا قيمة لدماء المسلم ولا حرمة لمقدساته.

وصار وزن إسرائيل -ذلك الكيان اللقيط والصغير- إذا وضع فى كفة الميزان الدولى عمومًا والأمريكى خصوصًا، ووضع العالم الإسلامى فى الكفة الأخرى، صار أثقل من وزن العالم الإسلامى؛ لأنه أكثر فاعلية لأسباب كثيرة، أهمها تماسكه، وإنتاجه، وفعالية الفرد عنده، واستمداده من مصادر المعرفة، واستفادته من معطيات التكنولوجيا المعاصرة، ومساهمته فى صنعها وتطويرها، وهذا كله يعانى من الهزال الشديد عند مسلمى هذا العصر، ولذلك كان هذا التخلف وتلك الخفة فى الميزان الحضارى المعاصر.

وكان هذا الخلل من الفخامة بمكان، بحيث اعتقد كثيرون أن التخلف مرتبط بالإسلام، وأن الفاعلية والتقدم مرتبطان بالغرب، وعلى سبيل المثال فإن مالك بن نبى المفكر الجزائرى الشهير ينقل عن صحيفة (أخبار اليوم) المصرية فى ٢/ ١/ ١٩٦٠م حكمًا غريبًا صدر عن علماء اجتماع أمريكيين مفاده أن (الفاعلية تطورت حيث يوجد الفكر المسيحى واليهودى فقط، فى حين نمت اللافاعلية حيث يوجد الفكر الإسلامى) ويعتبر مالك هذا الحكم خطأ تاريخيًا[1] لكن هذا الخطأ التاريخى فى نظرى لا يوازى الخطايا الكبرى التى ارتكبها المسلمون بحق أنفسهم بسبب هذا التخلف المقيت، حيث أساءوا لحاضرهم ومستقبلهم، بل لم يسيئوا لأنفسهم فحسب، لكنهم أساءوا لدينهم أيضًا، إذ ظن كثير من الجهلة والمفتونين أن جرثومة التخلف تكمن فى الإسلام، مع أنه الدين الوحيد الذى يوفر كل قيم التقدم والفاعلية، ويجعل الأخذ بها فى استعمار الأرض وخلافة الله لبَّ الدين وجوهر العبادة ونهاية الطاعة المطلقة لله.

(١) مالك بن نبى: مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى: ص (١٥٨) (الهامش).

مراجع إضافية حول موضوع التخلف الحضارى وضعف القاعدة:

١- د. نبيل صبحى الطويل: الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين (كتاب الأمة رقم ٧).

٢- د. زغلول النجار: قضية التخلف العلمى والتقنى فى العالم الإسلامى المعاصر (كتاب الأمة، رقم ١٨).

٣- د. أسامة عبد الرحمن: تنمية التخلف وإدارة التنمية: إدارة التنمية فى الوطن العربى والنظام العالمى الجديد (من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية).

٤- هجرة الكفاءات العربية (ندوة فكرية: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦م).

٥- السيد الحسينى: التنمية والتخلف (القاهرة: مطابع سجل العرب، ١٦٨٠).

٦- د. نبيل صبحى الطويل: بؤس المسلمين المتنامى فى عالم الجنوب (بيروت: الرسالة).

٧- د. محمد ماهر حمادة: الكتاب فى العالم(بيروت: الرسالة).

٨- د. أحمد صدقى الدجانى: المعرفة والتقنية والتنمية (بيروت: الرسالة).

٩- مجموعة من الباحثين: البعد الحضارى لهجرة الكفاءات (كتاب الأمة، رقم٨٨).

١٠- د. نادر فرجانى: هدر الإمكانية: بحث فى مدى تقدم الشعب العربى نحو غاياته (مركز دراسات الوحدة العربية).

***

المبحث الثانى

غياب الاستقلال الكامل ودخول (جُحر الضبِّ)!

لقد صار معلومًا من العلم بالضرورة أن أى كيان لا يمكن أن يستعبد كيانًا آخر ما لم تكن القابلية للعبودية متوفرة فيه، ولا يمكن لدولة أن تقود دولة أخرى ما لم تكن القابلية للاستعمار متوافرة فيها.

وقد رأينا فى المبحث السابق كيف أن التخلف يتغلغل فى ثنايا الحياة الإسلامية المعاصرة، هذا التخلف الشامل، وهو الذى يوفر القابلية للتنازل عن بعض مفردات الاستقلالية الكاملة فى حياة مسلمى هذا العصر، ولذلك فإن القوى العالمية الراغبة فى مواصلة استعمار الدول الضعيفة تحافظ على تخلف تلك الدول بكل ما استطاعت، ولو أدى ذلك إلى أن تدفع مبالغ طائلة من ميزانياتها، وقد حدث بالفعل أن بعض دول العالم الثالث حاولت بقوة أن تزرع القمح على سبيل المثال فانبرت لها دول كبرى لتحول بينها وبين هذا الحلم بوسائل كثيرة، وصل بعضها إلى تقديم شحنات قمح مجانية أو بسعر رمزى مقابل وقف محاولات الاستزراع!

هذا الموقف الذى تتبعه الدول الغربية بهذه الصورة أو تلك ينبع من رؤية استراتيجية ترى بأن الإسلام هو العدو الأول، وأن هناك علاقة عكسية بين تقدم الغرب والمسلمين، فكلما تقدم المسلمون تخلف الغربيون، وقد أورد الشيخ محمد الغزالى المعلومة التالية بصدد موضوعنا هذا:

فى عام ١٩٥٢م قال مسئول فى وزارة الخارجية الفرنسية: (العالم الإسلامى عملاق مقيد، لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافًا تامًا، وهو حائر قلق، ضائق بتخلفه وانحطاطه، وإن كان يعانى من الكسل والفوضى غير أنه راغب فى مستقبل أحسن وحرية أوفر، وعلينا أن نبذل كل جهودنا حتى لا ينهض ويحقق أمانيه، ذلك أن فشلنا فى تعويق نهضته يعرضنا لأخطار جسيمة، ويجعل مستقبلنا فى مهب الريح.. إن صحوة العالم العربى وما يتبعه من قوى إسلامية كبيرة نذير

بكارثة للغرب ونهاية لوظيفته الحقيقية فى قيادة العالم)[١] إذن تقدم المسلمين يساوى تخلف الغرب، والعكس صحيح بمنطق هذا المسئول الغربى وصريح عباراته، ولسان حال أكثر المسئولين فى الغرب يرى مثل هذا الرأى، ولذلك فإن الجميع يعمل على إبقاء حالة التبعية قائمة، ويتصدون لكل محاولة للاستقلال والتمييز والاعتماد على الذات.

هناك حديث فيصل فى الإنذار من الحالة التبعية التى يمكن أن يصل إليها المسلمون، حيث قال ﷺ: «لتتبعين سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!» وفى بعض الروايات قالوا: «الفرس والروم؟» قال: «فمن؟!» وتحمل الروايتان تحذيراً شديد اللهجة من التبعية، سواء كانت دينية (اليهود والنصارى) أو سياسية حضارية(الفرس والروم) ويعلق الدكتور يوسف القرضاوى[٢] على هذا الحديث فيقول: يعبر الحديث عن مدى هذه التبعية الذيلية بقوله: (شبراً بشبر)، (وذراعًا بذراع).. ويضرب (جُحر الضبِّ) مثلاً لهذا النوع من الاتباع الأعمى، فجُحر الضبِّ يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة، ومع هذا لو دخل أولئك (المُقَلِّدُونَ) هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المُقَلِّدُون وبتعبير عصرنا: تظهر «مودة» جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز، تسمى «مودة جُحر الضبِّ»!

وقد حرص الغرب بكل الأساليب على إيجاد تيارات وشخصيات على كل المستويات تتبنى الثقافة الغربية بكل ما أوتيت من قوة ومكر؛ لتساعدها فى الوصول إلى مراكز صناعة القرار ومراكز إدارة دفة حياة المسلمين الثقافية والسياسية والاقتصادية.

أولاً: على المستوى السياسى:

حرص الغرب على صياغة المناهج العربية الإسلامية، ابتداء من القس (دنلوب) الذى صاغ المناهج المصرية أيام الاستعمار الإنجليزى لمصر، ومن ثم عممت على

(١) من مقالة للشيخ الغزالى بمجلةالدوحة- قطر العدد (١٠٢)، شعبان ١٤٠٤هـ - يونيو ١٩٨٤م، ص (١٧).
(٢) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى: ص (١٩٢، ١٩٣).

كثير من بلدانه، بحيث يعودون بجلود وألسنة عربية إسلامية، لكن قلوبهم إفرنجية وعقولهم إنجليزية وثقافتهم أمريكية ثم يعمل على تلميع هذه الشخصيات والتيارات، ويحرك الأوضاع الداخلية فى صالح هؤلاء، بحيث يوصلهم إلى مراكز صنع القرار بسرعة وبأقل التكاليف.

ويقسم الغرب القيادات السياسية فى العالم الإسلامى إلى الأصناف التالية:

الصنف الأول: القيادات المتغربة المطواعة للمؤسسات الغربية، والتى صنعها الغرب على عينه وتأكد من ولائها، بحيث أثبتت أنها غربية أكثر من الغرب وملكية أكثر من الملك، ومن أمثلة هؤلاء:

١- الحبيب بورقيبة: وهو أول رئيس لتونس بعد الاستقلال، وكان يلقب بـ(المجاهد الأكبر) لدوره فى الثورة التونسية ضد الفرنسيين، لكنه عند خروج الاستعمار الفرنسى بصورته العسكرية عض بالنواجذ على مخلفات المستعمر، وحرص على إبقاء الروابط الاستعمارية بين البلدين وفى هذا السياق يقول: (إن روح التعاون الفرنسى بالنسبة لتونس ضرورة جغرافيًا، لأن تونس بلاد ضعيفة ولا غنى لها عن الاستناد على دولة كبيرة)!..وكان شعاره دومًا وشعار نظامه هو (ركوب البحر أقرب من عبور الصحراء)، أى: أن تونس أقرب إلى أوربا منها إلى العرب[١].

ومضى بورقيبة بالأعمال يقلد الغربيين فى دخولهم (جُحر الضبِّ) ولم يقلدهم فى حركتهم فى قضاءات العلم والمعرفة والبحث والحريات وحقوق الإنسان وتعمير الأرض وتوفير الرفاهية للمواطنين، أما فى الجوانب الأخرى فحدث ولا حرج:

- منع تعدد الزوجات بقانون أصدره عام ١٩٧٥م، وطالب النساء التونسيات بعدم ارتداء الحجاب، واستهزأ به، وأباح القانون تعدد العشيقات.
- أصدر قانونًا عام ١٩٦٠م، يمنع صيام رمضان من أجل زيادة الإنتاج، وجاهر بالإفطار ليعطى من نفسه القدوة للشعب فى هذا المجال.
- ادعى التناقض فى آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ علانية، وألغى التقويم الهجرى فى تونس، وأغلق (جامعة الزيتونة).

(١) مجلة الإصلاح- الإمارات العدد (٧٢)، ص (١٤، ١٥).

- أصدر سنة ١٩٨١م قانونًا يمنع الطالبات والموظفات من ارتداء الحجاب، وحاول جاهدًا القضاء على لغة القرآن وقيم الإسلام، ثم أصدر قرارًا بإغلاق جميع المساجد فى المدارس والجامعات والمؤسسات الحكومية والمصانع، واعتقال أى فتاة محجبة أو شاب ملتح. أما محاولات استئصال الحركة الإسلامية واقتلاعها من الجذور، فهذا موضوع يطول شرحه، وليس مجاله هنا[١].

٢- محمد زياد برى: رئيس الصومال الأسبق والذى صعد إلى السلطة عبر انقلاب عسكرى عام ١٩٦٩م، وانحرف بقافلة الصومال عن اتجاهها العروبى الإسلامى، وأوصلها إلى مرحلة الذيلية الحقيرة للغرب وقد بدأ هذا الانحراف عام ١٩٧٠م عندما أعلن عن اعتناق الانقلابيين للاشتراكية، وفى ١٩٧١م بيَّن أنها الاشتراكية العلمية (الشيوعية)، وفى ١٩٧٢م أعلن استخدامه الحروف اللاتينية فى الكتابة وهو أمر لم يستطعه الاستعمار طيلة قرون عديدة، وفى ١٩٧٥م أعلن أمام حشد تم جمعه فى العاصمة مقديشو: (إننا بدورنا نحتفل بيوم المرأة العالمى ونعترف بحقوقها، ولقد كنا نسمع فيما مضى عن أقوال تقول: الربع والخمس والثلث والسدس فى الميراث، ولكننا نقول: إن ذلك لا وجود له بعد اليوم، فالولد والبنت متساويان فى الإرث وفى الحقوق، وهذه هى القاعدة الأساسية).

وحينما تصدى علماء الصومال لهذا الانحراف أعدم عشرة منهم، وحكم بالسجن على العشرات مددًا مختلفة، وبعد أن أعدم العلماء ضربًا بالرصاص أحرق أجسادهم بالبنزين، وفى ١٩٨٦م شن حملة شعواء على التيار الإسلامى فاعتقل الآلاف من الإسلاميين، وتعرضوا لمختلف ألوان العذاب بما فيها اغتصاب نسائهم أمامهم، وفى ٣/ ٤/ ١٩٩٨م وقَّع فى مقديشو مع النظام الأثيوبى على وثيقة التنازل عن إقليم أوجادين، وفعل الأمر نفسه مع كينيا التى تحتل أقاليم صوماليه.

ونلاحظ كيف وصل الاعتداء على الشريعة عند محمد زياد برى إلى الأحوال الشخصية التى لم يجرؤ على الاقتراب منها حتى الاستعمار بكل أجناسه، وكذلك

(١) مجلة الاعتصام- القاهرة، المحرم وصفر ١٤٠٨هـ، الصفحة الأخيرة.

الحروف العربية، ونلاحظ أيضًا كيف أن الأنظمة الاستبدادية التى تمارس القمع مع شعوبها، تقدم فى المقابل تنازلات استراتيجية مذهلة فى الجبهة الخارجية، ثم إن اضطهاد ما للقوى الداخلية غالبًا ما يذهب النصيب الأوفر منه إلى التيارات والشخصيات الإسلامية.

وأمثلة هذين الحاكمين كثيرة، منها ذو الفقار على بوتو فى باكستان، ومصطفى كمال أتاتورك فى تركيا، الجدير بالذكر أن الغرب يلجأ أحيانًا إلى (الدعاية السوداء) فى تلميع بعض القيادات، حيث يقوم بمهاجمتها فى وسائل إعلامه بكثافة، ليلفت أنظار شعوبها إليها، لما يعلمه من عاطفية شديدة عند الشعوب الشرقية، وهذا ما حدث أولاً مع مصطفى كمال أتاتورك، ثم أخذ به مع شخصيات كبرى فى الوطن العربى وغيره!!.

الصنف الثانى: القيادات ذات التوجه الاستقلالى الإسلامى:

وهذا الصنف يعمل الغرب على عدم وصوله إلى السلطة ابتداء، وإذا حدث نوع من التجاوز أو سوء التقدير، فإنه يلجأ إلى تحريك كل المتغيرات واستخدام كل الوسائل فى إحراق هذه الشخصيات وتشويهها فى الوجدان الشعبى، ثم يعمد إلى إزاحتها بالأسلوب الممكن الذى لا يلفت الأنظار، ومن أمثلة هذا الصنف:

١- الملك فيصل ملك السعودية -رحمه الله-: فهو الصانع الحقيقى لانتصار رمضان ١٣٩٣هـ، فعند ملحمة العبور وجهت أمريكا تهديدًا للدول العربية، وخاصة السعودية صاحبة الفكرة فى قطع النفط عن الدول الحليفة لإسرائيل، فكان رد الملك فيصل رحمه الله: (كل ثمن يهون فى سبيل الكرامة، وعندما يدعو الواجب نعرف كيف نفجر بترولنا بأيدينا لا بأيدى الآخرين، ونستغنى عن موارده بالتمر واللبن)[1] وقد دفع بالفعل ثمن ذلك الموقف، حين اغتيل على يد شخص قيل: إنه مجنون!!.

٢- محمد ضياء الحق: رئيس جمهورية باكستان السابق: فقد استفاد من ظروف الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية فى محاولة

(١) مجلة المجتمع- الكويت، العدد (٨٦٦)، ص (٢٩).

بناء باكستان كدولة قوية، فأدخل باكستان العصر النووى، وكان قد ذهب بعض علماء الاستراتيجيات إلى أن باكستان إذا ظلت تسير بنفس الوتيرة ستصبح عام ٢٠١٠م إحدى الدول العشر الأولى فى العالم، وحتى لا يحدث هذا فقد تكالب عليه الأعداء من كل جانب.

والقتل على الطريقة الغربية عادة ما يبدأ بقتل الشخصية عن طريق الاتهامات وتشويه الصورة، وهذا ما حدث، ولكن الأمر وصل إلى حد التصفية الجسدية فتحت عنوان (هل قتل ضياء الحق نتيجة مؤامرة يهودية؟!) ذكرت مجلة المجتمع الكويتية[١] أن السفير الأمريكى أرنولد رفائيل الذى قتل فى انفجار الطائرة التى أودت بحياة الرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق، كشفت مجلة (نيوزويك) فى عددها الصادر فى ٢٩ أغسطس ١٩٨٨م النقاب عن أن السفير الأمريكى يهودى، وأنه نجح فى إخفاء يهوديته على ثلاث دول إسلامية، عندما اختارته الإدارة الأمريكية كممثل لها فى أفغانستان وإيران وباكستان، ويذكر المقال أن السفير اليهودى تتلمذ على يد هنرى كيسنجر وأنه قام بأدوار خطيرة بالنسبة لسياسة أمريكا فى تلك المنطقة الحساسة من العالم.

وكانت وسائل الأعلام المختلفة- وخاصة الباكستانية- قد كشفت بعد ذلك أن ضياء الحق كان يحس بأنه مستهدف بالاغتيال، وأنه كان حريصًا على استصحاب السفير الأمريكى لهذا الغرض، حتى أن السفير فى ذلك اليوم حاول الاعتذار مرارًا، لكن ضياء الحق أصر على اصطحابه!.

٣- عمل الغرب مرارًا على إقصاء أو تصفية القيادات التى تستعصى على محاولات التدجين والتتبيع، ومن هذه القيادات:

- إسقاط حكومة د/ محمد ناصر فى إندونيسيا؛ لتوجهاته الإسلامية الاستقلالية.
- إسقاط حكومة مصدق فى إيران عام ١٩٥٣م؛ لتوجهاته الاستقلالية، حيث أصدر قرارًا بتأميم النفط الإيرانى، وكان عازمًا على تحرير إيران من التبعية الغربية.
- اغتيال الرئيس الشيشانى جوهر دودايف، واغتيال دولته التى عمل على بنائها بعيدًا عن التبعية الروسية.

(١) مجلة المجتمع: العدد (٨٨٣)، ص (٣٢).

- إسقاط حكومة حزب الرفاه الإسلامى فى تركيا تحت قيادة البروفيسور نجم الدين أربكان، بتأليب العسكر وتحريض الجيش والمؤسسات الأمنية، ضد الحكومة حتى تم إسقاطها بالفعل.

- التصدى لمحاولات إقامة الدولة الإسلامية المتكررة فى أفغانستان، منذ أيام برهان الدين ربانى وقلب الدين حكمتيار إلى محاولات (طالبان) فى هذا الشأن ورغم ملاحظاتنا الكثيرة على منهج (طالبان) فى فهم الإسلام وإقامة الدولة الإسلامية، فإن هذا لا يمنع من تقرير أن الغرب تدخل فى افغانستان ليمنع محاولات إقامة الدولة التى لا تدين لهم بالولاء والتبعية.

الصنف الثالث: القيادات المتعاطفة مع الإسلاميين:

ولا يرضى الغرب عن القيادات التى تتعاطف مع التيارات الإسلامية، وخاصة إذا كانت هذه القيادات تمتلك قدراً من الاستقلالية والعمل بعيداً عن مربعات التبعية ومحاولات الهيمنة والاستحواذ، ومن هذه القيادات:

١- الرئيس الماليزى الدكتور مهاتير محمد ونائبه أنور إبراهيم، اللذان حملت الدوائر الغربية عليهما حملات شعواء على كل المستويات، وحاولت تدمير اقتصاد بلديهما، وما فتئت هذه الدوائر تحيك المؤامرات، حتى وقع الرئيس ونائبه فى حبائلها، حيث وقعت بينهما إشكالات، أدت بالأول إلى تلفيق التهم للثانى وإدخاله السجن.

٢- الرئيس الأوغندى عيدى أمين والذى كسر احتكار النصارى للسلطة فى أوغندا، وأقام نظامًا لا يخضع للأوامر الغربية، حتى أنه قطع علاقات بلاده مع إسرائيل، وأعلن انحيازه إلى كل المنظمات والقضايا الإسلامية، وعمل على التمكين للمسلمين فى أوغندا، حيث أتاح لهم الفرصة للحركة، فشنت الدوائر إياها حملات إعلامية وسياسية وَصَمَتْه بأبشع النعوت، وتوجت هذه الحملات بقيام الغرب بدعم الجيش التنزانى لاقتحام أوغندا وإسقاط نظام عيدى أمين الذى فر إلى السودان، ومن ثم ظل لاجئًا سياسيًا فى السعودية.

٣- حملات الضغوط المتتابعة على رئيس الحكومة التركى عدنان مندريس بسبب إتاحته هامشًا من الحرية فى العمل للإسلاميين، والتى تُوجت بانقلاب

عسكرى أودى بحياة الزعيم، وحصل قريب من هذا للزعيم التركى الآخر تورجوت أوزال الذى كان يحمل عاطفة إسلامية غير مرضى عنها فى المؤسسات العلمانية التركية ومن يحركها من الخارج، حتى أن الصحافة وكل وسائل الإعلام دأبت على شن حملات عليه؛ لأنه كان يصلى الجمعة، وقد كان ينتمى إلى الحركة الإسلامية قبل أن ينفصل عنها ويؤسس حزب (الوطن الأم)، ولذلك فقد كانت ميوله الإسلامية وأحلام القومية فى استعادة المجد العثمانى واضحة ومخيفة بالنسبة للموسسات العلمانية، حتى مات بصورة مفاجئة وغامضة، وقيل: بأنه مات بـ(السكتة القلبية)!.

٤- مثل هذه الضغوط والتشويهات تعرض لها زعماء آخرون فى العالم الإسلامى، مثل الرئيس العراقى عبد السلام عارف، والرئيس السودانى الصادق المهدى، ومن بعده سوار الذهب ثم عمر البشير.

ووصل الحال إلى التآمر على رئيس غير مسلم، لأنه تعامل مع الأقلية المسلمة فى بلاده على قدم المساواة مع النصارى والوثنيين، هذا الرئيس هو صموئيل دو رئيس جمهورية ليبيريا الأسبق الذى أُسقط عام ١٩٩٠م بمؤامرة دولية وإقليمية واسعة!.

وهكذا عمل الغرب على إبقاء بلدان العالم الإسلامى فى فلكه، بتسويق أفكار العلمانية الليبرالية فيها، وربطها بأحلافه السياسية والعسكرية، واستزراع جراثيم (القابلية للاستعمار) فى مؤسساتها ومفاصل بلدانها.

ثانيًا: على المستوى الثقافى:

لم يعد يكتفى الغرب بجهود عشرات الآلاف من الكُتاب والمثقفين الذين يحملون أسماء عربية وإسلامية ويمارسون التبشير بالثقافة الغربية، ويحاربون الثقافة الإسلامية، ولم يعد دوره يقتصر على التخطيط لهؤلاء وتحريكهم عن بُعد بواسطة (الريموت كنترول) وإنما وصل الأمر إلى ممارسة كل الضغوط واستخدام كل الوسائل والأساليب، واستغلال كل الظروف من أجل المضى فى التمكين الثقافى للتغريب والتتبيع، وتجفيف منابع الثقافة الإسلامية الأصلية التى تزرع فى أبنائها أفكار الاعتزاز بالذات، وتدفعهم إلى دنيا التميز والاستقلال، وتحثهم على الإبداع والعمل والفاعلية.

وقد تم التركيز على المناهج الدراسية، حيث العمل حثيث من قبل أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١م، لكنه زاد بقوة بعد هذه الأحداث، لأن البعض يظن أن الهجمة الثقافية على عالمنا الإسلامى إنما هى وليدة تلك الأحداث:

أوردت صحيفة (الشعب) المصرية أن وزارة الخارجية الأمريكية أعدت تقريراً بشأن الحفاظ على برامج المعونة الأمريكية لمصر، اشترط فيه تنقية مناهج التعليم مما وصفه التقرير بالمفاهيم الدينية البالية، حيث يعتبر أن المقررات الدراسية هى المسئول بشكل مباشر عن تنامى تيار الجامعات الإرهابية الدينية (المتشددة) على -حد وصفة- نظراً لاشتمالها على معانى (القتال)و(كره الآخرين)، وهو ما يطلق عليه فى الدين الإسلامى بـ(الجهاد)[1].

وهكذا، تصبح المساعدات الاقتصادية سلاحًا شاملاً فى يد الغرب، يدمر به عدة مواقع ويحقق به عدة أهداف، منها تعميق التبعية الاقتصادية، والمحافظة على التبعية السياسية، وللغرب فيها مآرب أخرى!.

وقد استُخدمت اتفاقية كامب ديفيد بين مصر و(إسرائيل) فى ١٩٧٨م ثم ما دار من هرولة عربية نحو (إسرائيل) بعد حرب الخليج الثانية (عام ١٩٩١م) وخاصة بعد اتفاقية أوسلو (١٩٩٣م) بين منظمة التحرير والكيان اليهودى، استُخدم كل ذلك كمبرر من قبل إسرائيل وبعض الجهات الغربية، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، لتجفيف المنابع الإسلامية، ووصل الأمر باليهود إلى حد الاعتراض الرسمى من قبل مناحيم بيجن ثم من جاء بعده من المسئولين اليهود على تدريس بعض الآيات التى تتحدث عن اليهود أو تدعو إلى الجهاد فى المناهج الدراسية المصرية، بل لقد اعترض السفير (الإسرائيلى) فى القاهرة على برنامج الشيخ محمد متولى الشعراوى -رحمه الله- فى تفسير القرآن، لأنه يفسر بعض الآيات التى تتحدث عن بنى إسرائيل، مثل قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وبعد حرب الخليج الثانية تصاعدت الضغوط حول المناهج لتشمل أكثر الدول العربية، بما فيها المملكة السعودية، حيث ظهرت مطالب غربية رسمية وغير رسمية

(١) مجلة فلسطين المسلمة، نوفمبر ١٩٩٣م، ص (٤).

بتطبيع المناهج وحذف بعض المقررات، وخاصة المتعلقة منها بفلسطين واليهود والجهاد[١].

ووصل التدخل السافر من قبل إسرائيل فى جانب الجبهة الثقافية العربية إلى حد الاعتراض على المواقف الشعبية، وليس على المواقف الرسمية فحسب، فقد طالبت الحكومة الإسرائيلية مصر بإلغاء قرارات المؤسسات المصرية الرافضة للتطبيع، وهى النقابات والاتحادات والجمعيات الشعبية بحجة أنها مرتع خصب لأفكار التطرف والعداء لإسرائيل[٢].

هذا كله قبل أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١م، أما بعدها فالخطب أعظم والداهية أمرّ، إذ شنت الدوائر الغربية حملات شعواء على المناهج الإسلامية فى كل دول العالم الإسلامى، وعلى رأسها السعودية ومصر وباكستان.

ثالثًا: على المستوى الاقتصادى:

عملت المجموعات العلمانية المتسلطة على مراكز صناعة القرار فى أكثر بلدان العالم الإسلامى على ربط اقتصاديات بلدانها بالغرب، دولاً ومؤسسات ومنظمات وشركات، حتى تظل منظومة التبعية كاملة، لتشكل دائرة للعبودية لا يستطيع العالم الإسلامى فكاكًا منها.

ويمكن أن تتضح صورة التبعية الاقتصادية للغرب، وأضرارها على بلدان العالم الإسلامى من خلال النماذج والأمثلة التالية:

١- يتم التبادل التجارى فى أغلب دول العالم الإسلامى مع دول غربية، أو غير إسلامية، وهذا يفوّت على المسلمين أى أمكانية للتكامل الاقتصادى مع بعضهم، ويجعلهم عرضة للنهب الدائم والمنظم، نظراً لأن الغرب موحد ومنظم، بينما العالم الإسلامى عشوائى، وهذا يتيح للآخرين أخذ أفضل ما عند المسلمين بأبخس الأسعار فى مقابل تصدير أردأ البضائع بأفضل الأثمان.

---

(١) انظر حول مناهج السعودية مثلا: د/ كمال الهلباوى: من أجل إسرائيل؟(مجلة الأمل، امريكا، ديسمبر١٩٩١م، ص (١٨-٢١).

(٢) مجلة فلسطين المسلمة، نوفمبر ١٩٩٣م، ص (٨).

وإذا اعتمدنا على لغة الأرقام فتذهب أرقام رسمية عربية إلى أن التبادل التجارى بين الدول العربية لا يزيد عن ٩٪ من مجموع مبادلاتها التجارية مع العالم[١] وهذا يعنى أن ٩١٪ من مجموع حركة التبادل فى الدول العربية يتم مع دول أجنبية، فكيف يمكن أن يكون العالم الإسلامى أمة واحدة وجسداً واحداً إذا كان التبادل التجارى يتم بهذه الصورة المزرية؟!.

٢- تسير حركة الأيدى العاملة من وإلى الدول الإسلامية فى خطوط أغلبها يتجه نحو الغرب، وهى مشكلة عويصة، فإضافةً إلى أضرارها التقليدية، فإنها تساهم فى هجرة أفضل العقول والسواعد الإسلامية إلى الغرب بمقابل أجور زهيدة مقارنة بالأجور فى الغرب، وتؤدى فى المقابل إلى تعميق ظاهرة الدونية عند المسلمين، حيث يلجأون إلى استيراد الخبرات الغربية بأجور باهظة قد تصبح أحيانًا أجوراً خرافية، كما سنؤكد ذلك بالأرقام التى لا تحابى أحداً.

جاء فى تقرير لمنظمة العمل العربية أن عدد المهاجرين العرب وصل نهاية ٢٠٠١م، إلى نحو ٣٠مليون فى الولايات المتحدة وأوربا، أمريكا: ٨ملايين، فرنسا: ٥ملايين، بريطانيا: ٤ملايين، ألمانيا: ٢,٣مليون، ولا يزيد المجنَّسون منهم عن ٣٠٪ والبقية وهم ٢٠مليون بدون غطاء[٢] وقد سبق أن ذكرنا نماذج من الأرقام عن نزيف العقول العربية والإسلامية المهاجرة إلى الغرب.

ومن المعلوم أن كثيراً من المهاجرين العرب والمسلمين إلى الغرب يتم ابتزازهم، ويعملون فى أحط وأخطر المهن بأجور زهيدة، وفى المقابل يمسك الخبراء الأجانب فى بلدان المسلمين بمفاصل الأعمال والوظائف الأساسية بأجور غير مصدقة، فقد نقلت مجلة المجتمع الكويتية- مثلاً- عن إحدى الصحف الخليجية أن خبيراً أجنبيًا فى شئون بقعة الزيت تقاضى من دولة خليجية مليون دولار عن اليوم وأنه أدلى بتصريحات وصفتها الدوائر العلمية بأنها (مبالغة مقصودة) واستمر فى عمله أكثر من ثلاثة أسابيع، أى: أنه تقاضى ٢١مليون دولاراً[٣] الجدير بالذكر أن مرتب

(١) مجلة قضايا دولية العدد (٢٨٦)، ص (٨).

(٢) مجلة العربى: العدد (٥٥٣)، ص (٩٦، ٩٧).

(٣) المجتمع: العدد (٦٣٤)، ص (٦).

رئيس أعظم دولة فى العالم وهو الرئيس الأمريكى يبلغ مائتى ألف دولار فى العام، وهذا يعنى أن أجرة الخبير الأجنبى فى بلد عربى لمدة ثلاثة أسابيع يساوى مرتب الرئيس الأمريكى لمدة مائة وخمس سنوات!!!.

٣- يتم تدفق معظم الأموال بين بلدان العالم الإسلامى وبلدان الغرب، وليس بين بلدان العالم الإسلامى وبعضها، وخاصة فوائض الأموال العربية التى وصلت إلى ٨٠٠ مليار دولارًا فى منتصف الثمانينيات، وكلها مكدَّسة فى بنوك الغرب. ولأن أموال العالم الإسلامى تنطبق عليها مقولة الفيلسوف الايرلندى الشهير برناردشو فى تعريفه للرأسمالية حينما قال: (غزارة فى الإنتاج وسوء فى التوزيع) فإن الوجه الآخر لهذه المأساة الملهاة فى أن الدول العربية والإسلامية الفقيرة تستدين لتغطية عجوزات موازناتها من الغرب أيضًا، وهى بمئات المليارات من الدولارات، وبالتالى فإن الدول الإسلامية الغنية والفقيرة كلها تحت السيطرة الغربية بسبب ارتباطها بالغرب استثمارًا وإقراضًا أو اقتراضًا، وقد رأى العالم كيف تحولت الوفورات المالية العربية الإسلامية إلى سلاح ضد أصحابها عندما حانت ساعة الحقيقة، وهذا ما حدث بالنسبة للأموال الليبية والإيرانية والعراقية فى الولايات المتحدة الأمريكية، فضلاً عمّن عشرات المؤسسات ومئات الشخصيات الإسلامية التى جمدت أموالها فى بنوك الغرب وأمريكا، بعد أحداث ١١ سبتمبر مما يشى للمحلل المتابع أن الأمْر برمته دُبر بليل، لأهداف كثيرة من ضمنها مصادرة هذه الأموال.

ولم تسلم الاستثمارات العربية فى الغرب من أنواع الأذى حتى فى الأوقات الطبيعية، وخاصة الاستثمارات الكويتية التى اتجهت نحو الاستثمار فى الشركات والمصانع والمؤسسات، حتى كادت أرباحها قبل حرب الخليج الثانية أن توازى دخولاتها النفطية، فثارت ثائرة الغرب ضدها بصور وأساليب شتى، وبأعذار واهية وحجج مختلفة[1].

٤- تحكم الغرب والدول الكبرى بالسلع الاستراتيجية وخاصة الأسلحة وفقًا للمخططات الاستراتيجية لصناعها، وممارسة نوع من الحصار على بعض الدول الإسلامية، بل ومحاصرة بعض الدول الأخرى بصورة تامة.

(١) انظر مثلا: عبد الرحمن التميمى: حرب عالمية على الاستثمارات العربية، مجلة المجتمع: العدد (٨٩٢)، ص (٢٩-٣١).

وربما يعجز أى متابع عن إحصاء محاولات الحصار التسليحى لبلدان إسلامية، من خلال وسائل كثيرة، تبدأ بفرض شروط وأثمان باهظة، وتمر بابتزاز وارتهان، وتصل إلى حد القرصنة والمصادرة، وقد حدث هذا مرات عديدة فى فترات مختلفة لعدد كبير من الدول العربية، بما فيها بعض الدول الحليفة للغرب وعلى رأسها السعودية ومصر(١).

ورغم أن باكستان ظلت حليفة للولايات المتحدة طيلة عقود، ،وخاصة فى مواجهة المد الشيوعى، فقد ظلت أمريكا سنوات ترفض تسليمها صفقة طائرات (إف-١٦) مع أنها استلمت قيمتها من أيام الرئيس ضياء الحق الذى استشهد فى١٩٨٨م، ورفضت حتى تسليم ثمنها، ولم توافق على استعادة باكستان لقيمتها إلا فى منتصف ٢٠٠٣م عندما زار الرئيس الباكستانى أمريكا ضمن حلف البلدين لمحاربة ما أطلقت عليه أمريكا بالأرهاب!..

أما ما مورس ضد باكستان من ضغوطات بسبب برنامجها النووى فهو أكبر من أن يوصف، حيث أجمع الكل على أن قنبلة باكستان (قنبلة إسلامية) وأنها خطر ماحق على الحضارة الغربية بل على الحياة عند بعض المسئولين الغربيين وهذا - على سبيل التمثيل- السناتور الأمريكى الن كرانستون يقول حول المفاعل النووى الباكستانى:(نحن جميعًا نعرف أن باكستان منهمكة بهذه المهمة، وأنه من الخطر الساحق أن تمتلك دولة إسلامية قنبلة نووية)(٢) وكان رأس ضياء الحق ضمن (الفاتورة) التى توجَّب على باكستان دفعها مقابل برنامجها النووى، مثلما كان تدمير العراق بكامله ثمنًا باهظًا لمحاولته الحثيثة فى مجال الأبحاث النووية والبيولوجية والكيميائية!.

ونختم هذه الفقرة حول همِّ التبعية المؤرقة للعالم الإسلامى بإيراد الأرقام التالية والتى وردت فى التقرير العربى الموحد للاقتصاد، والصادر عن أمانة الجامعة العربية ومنظمات أخرى:

---

(١) انظر نماذج عن ذلك: المجتمع: العدد (٧٧٢)،ص (٢٦، ٢٧) مجلة الدستور- لندن، ٩ديسمبر ١٩٨٥م ص (٤)، مجلة العالم- لندن: العدد (٤١٧) ص (٢٣)، مجلة شؤون العصر- صنعاء العدد السابع،ص (١١٠-١١٢).

(٢) المجتمع: العدد (٩٣٠)،ص (٢٣).

- فى ١٩٩٨م استورد العرب من العالم الخارجى ٩١,٥٪ من جملة وارادتهم، وصدروا ٨٩٪ إلى هذا العالم.

- بلغت الفجوة الغذائية من الحبوب فى نهاية التسعينيات حوالى٤٣٪من الحبوب و٦٧٪ من السكر و٢٣٪ من الألبان و ٣٧٪ من الزيوت و ١٦٪ من اللحوم.

- بلغت الديون عام١٩٩٧م ١٥١مليار دولار بما يعادل ٦١٪ من الناتج المحلى الإجمالى فى مقابل ٦,٨٪ فقط كمتوسط لأكبر ١٦مدينًا فى العالم.

- تصل إنتاجية العرب من الحبوب إلى ١,٦طن فى الهكتار، مقابل ٥,٢فى الولايات المتحدة و٤,٥طن فى أوربا[١] وتتضاعف مأساة المسلمين فى أفريقيا إزاء تبعيتهم المطلقة للغرب، فالوضع هناك أسوأ، ورغم أن المفردات واحدة إلا أن النسب هناك أفظع[٢].

إذن يمكن اعتبار حالة التبعية التى يعانى منها العالم الإسلامى إحدى المعضلات الكبرى فى حاضره الذليل، حيث التقليد والمحاكاة للآخر وصلت حد دخول (جُحر الضب) الغربى، ولذلك فلا أظن بوجود قيمة لأعياد الاستقلال، مادام وضع الإلحاق والتتبيع قائمًا فى كل ميدان، وحاضراً فى كل سبيل، أما الاستعمار العسكرى فهو يسيطر على عدد كبير من مناطق الأطراف فى العالم الإسلامى، بل أنه يحتل منطقة القلب فى فلسطين، وسنتناول هذه الموضوعات فى موضع آخر من هذه الدراسة.

وإضافة إلى ذلك فإن كثيراً من الجيوب والقواعد فى عدد من بلدان العالم الإسلامى تعج بالجنود الأجانب تحت رايات شتى ومبررات متعددة، وقد ازدادت من بعد ١٩٩١م بحجة تحرير الكويت من العراق، ثم تضاعفت من بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بحجة محاربة الإرهاب، والذى مثل العراق أحد مرتكزاته بعد أفغانستان وفقًا للدوائر الغربية، ولذلك فقد أعيد هذان البلدان إلى مرحلة الاستعمار العسكرى المباشر للغرب من جديد!.

(١) العربى: العدد (٥١٨)، يناير ٢٠٠٢م، ص (٩٦- ٩٨).

(٢) يمكن مراجعة: الحسن عمر الفاروق جارا: إفريقيا: استقلال أم استغلال؟(مجلة البيان- لندن العدد (١٤٧)،ص (٩٤ - ١٠١).

* مراجع إضافية حول التبعية:

١- طلعت أحمد مسلم: الوجود العسكرى الأجنبى فى الوطن العربى (مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت).

٢- د/ نبيل الطويل: الغذاء والماء فى عالم المسلمين الفقراء (بيروت: الرسالة).

٣- عبد القادر الطرابلسى: أضواء على مشكلة الغذاء فى العالم العربى الإسلامى (كتاب الأمة رقم ٦٧).

٤- د/ رفعت السيد العوضى: عالم إسلامى بلا فقر (كتاب الأمة رقم ٧٨).

٥- منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، قضايا التجزئة والصهيونية والتغريب والتبعية ط٢ (القاهرة: الزهراء، ١٩٨٧م).

٦- أنور الجندى: من التبعية إلى الأصالة.

٧- مجموعة من الباحثين: الوطن العربى فى السياسة الأمريكية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

٨- د/ جلال أمين: العولمة والتنمية العربية: من حملة نابليون إلى جولة الأورجواى (١٧٩٨ - ١٩٩٨م). (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

٩- د/ محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى.

١٠- د/ إبراهيم العيسوى: قياس التبعية فى الوطن العربى.

***

المبحث الثالث

التآكل السياسى وإهدار حقوق الإنسان وحرياته

من أهم المحن التى يعانى منها العالم الإسلامى اليوم، محنة انعدام الاستقرار السياسى وانتهاك حقوق الإنسان وحرياته، وتتضح الفوارق فى هذين الجانبين بقوة وسفور بين الغرب والعالم الإسلامى، وبالمناسبة كان شاعر الأقصى يوسف العظم قد قام بزيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فوقف يخاطب تجمعًا شبابيًا مسلمًا هناك، وقد هاله ما شاهد ولمس من حريات، مقارنة بالعالم الثالث الذى جاء منه، فقال: (أنا قادم من البلاد التى يقتل فيها الإنسان الحرية إلى البلاد التى تقتل فيها الحرية الإنسان)!.. فالغربى ضحية الحرية المتفلتة، والمسلم يضحى بالحرية.

فالحرية المغيبة فى العالم الإسلامى هى أحد مقومات الذل والهوان واللافاعلية التى تعانى منها أمة الإسلام، فإن سنن التاريخ تخبرنا بأن (المستضعف) لا يقوى على مواجهة الخطوب، والذليل لا يحارب الأعداء، و(المستعبَد) لا يمكن أن يدافع عن (الحرية) فضلاً عن أن يهبها للمحتاجين إليها؛ لأن (فاقد الشىء لا يعطيه)!.

والناظر فى طول العالم الإسلامى وعرضه يجد قيمتى الحرية والشورى تكادان تغيبان بالمرة، فيما عدا تجارب بسيطة وقليلة فى التبادل السلمى للسلطة وفق آلية الديمقراطية الغربية، فلا وجود فى الكم الأكبر من الدول الإسلامية للشورى، فالحاكم يصعد بانقلاب إلى السلطة، وسيلته الدبابة وليس الصندوق، والوسيلة التى أوصلته إلى كرسى الحكم هى وحدها القادرة على إزاحته عن الكرسى ذاته ما لم يتدخل (عزرائيل) قبل ذلك، إذا أذن الله بالفرج!.

ويتسبب الصراع السياسى على السلطة، مع ما يرافق ذلك من إهدار لحقوق الناس وحرياتهم فى الكثير من العاهات لجسد الأمة «المريض فى الأصل» ويمكن إيجاز هذه العاهات والأمراض على النحو التالى:

أولاً: تحول الوطن إلى (عزبة) للحاكم:

تنظر الأنظمة المستبدة إلى أوطانها (كعزب*) تمتلكها، وهذا يحدث كثيراً من التداعيات فى حياة العرب والمسلمين:

١- توحد الحاكم مع الوطن، وحلوله فى الشعب، حيث تصبح كل أجهزة الدولة فى خدمته، وما دام بخير فإن الوطن فى رفاه وتقدم، وإذا ظل بعيداً عن المؤامرات فإن الشعب فى مأمن، حتى أن أوطاناً عربية وإسلامية بكاملها سقطت بيد الأعداء، لكن أصحاب النفاق السياسى لم يعدو ذلك هزيمة واحتلالاً لبلدانهم مادام أن الحاكم لم يقع فى قبضة أولئك الذين لم يكونوا يريدون غيره!!

٢- تقنين الدكتاتورية وتأصيل الاستبداد، وقبول التفرد فى صناعة القرارات وصياغة التوجيهات والأوامر، وإلغاء كل مؤسسات البلد، ولو من الناحية العملية، ورفض أى شكل حقيقى من أشكال الديمقراطية والشورى والمشاركة الشعبية فى إدارة دفة البلاد، حتى ولو فى اختيار (العمدة) أو (العاقل)!.

٣- تسخير الأموال العامة لمصالح فئة قليلة، تشمل بطانات الحاكم والمرضى عنهم من وجاهات الشعب، والإنفاق على الأجهزة الأمنية التى لا تهتم بأمن الشعب، ولكن فقط بأمن الحاكم، وفى أحسن الأحوال بأمن الدولة!.

ثانيًا: تضخُّم الحكام وتقزّم الشعوب:

ورغم أن الإسلام يرى أن الحاكم مواطن عادى، لا يتميز عن سائر المواطنين إلا بثقل الواجبات الملقاة على كاهله، فإن المجتمع الإسلامى حينما وصل إلى قعر التخلف، تبدلت عنده القيم والموازين، واختلت عنده النِّسب، وبالتالى أصبح الحاكم المستبد ضخمًا بحجم الوطن!.

ولأن هذا الداء واحدة من آفات التخلف التى يساهم المجتمع كله فى صناعتها، نجد أن المرض بدأ من القواعد نفسها، فلا يتضخم القادة إلا إذا تصاغر المقودون.

---

* العِزَب: بكسر العين جمع عزبة وهى القرية الصغيرة التى يمتلك الأراضى والبيوت والحيوانات والشجر فيها شخص واحد، ويصبح البقية مجرد موظفين وخدم.

وقد ساهم الرعية في نفخ رعاتهم حتى تضخَّموا يومًا بعد يوم، ووصل الحال إلى أن قال بعضهم بلسان حاله:

(أنا الدولة والدولة أنا) وزاد بعضهم فقال (أنا الشعب والشعب أنا).

وعند هذا الحلول والاتحاد السلطوى تصبح أموال الأمة هى أموال الحاكم، وأفراد الشعب هم خدمه، يشرفهم باستعباده لهم، ويصبح همَّ وسائل الإعلام تتبع أخباره، وتوثيق منه على شعبه وعبيده، وتتزين الشوارع والأسواق والدوائر بصوره، التى قد تدخل إلى غرف النوم - إذا ارتفع منسوب الطغيان والنفاق السياسى فى مقابله - وبهذا يمكن لصور الزعيم أن تفوق عدد أفراد الشعب.

وفى هذا الوضع المتخلف تقوم الشعوب الجاهلة بنفخ حكامها الذين قد يكون بعضهم صالحًا فى مبتدأ حياته، لكن كثرة التطبيل تصيبه - وهو بشر ضعيف - بسعار العظمة، فتنتفخ أوداجه، ويصل به الطغيان إلى التدثر بخصائص الألوهية، وكيف لا؟ إذا كان الشعب يصفق، والحاشية تشجع، والملأ يزين، حيث يصل الحال ببعض هؤلاء الحكام إلى الاعتقاد بأنه أهدى الناس، وأنه فاروق عصره، وربما انطبق على بعض هؤلاء قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥] وقد ورد فى الحديث الشريف عنه ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾».

ثالثًا: انسداد آفاق التجديد أو التغيير:

تساهم المظاهر المصاحبة للأنظمة الديكتاتورية فى صنع هالة ضخمة حول كراسى الحكم ومقاعد السلطة، مما يسيل له لعاب الطامعين والمغامرين، وبالتالى يزداد المجتمع توترًا، وتفككًا. إن البريق المصاحب للسلطة يجلب الكثير من المغامرين، ولأن آفاق التبادل السلمى للسلطة مسدودة، فإن من يريد كل (الكعكة) لا يجد سوى سبيل (الانقلابات) العسكرية الدموية فى الغالب، ومن يقنع ببعض الكعكة، فلربما عارض الحاكم لمجرد الحصول على شىء من فتاتها، وعندما ينال

هذا الفتات يدير دفته ليغادر ميدان الشعب إلى أحضان السلطة متربعًا مقعدًا من مقاعد النفاق السياسى. وفى بعض الحالات قد يتحول بعض هؤلاء إلى التعامل مع العدو الخارجى المتربص بالجميع، فالمهم عندهم التمتع ببريق السلطة ومتاعها ونفوذها وهيبتها، ولا يهم كيفية الوصول، هل على دبابة وطنية أم على مدرعة أجنبية.

رابعًا: الحرب الدائمة على الأولياء:

من مصائب النظم الديكتاتورية أن كل نصيبها من الكره والاحتقار والتآمر والحرب يتوجه نحو الأولياء والأقرباء، فالأجهزة الأمنية تُبنى لمواجهة الشعب ذاته الذى أفرز هذا الحاكم ولو بوسيلة الدبابة، ويصبح من أهم أولويات هذا النظام العمل الحثيث للتفريق بين الرعية باستخدام كل وسائل الختل والمخادعة. ويظهر فى هذا السبيل دومًا كفايات رهيبة تتفوق على شيطان الخمر والميسر، والذى قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١].

هذا على مستوى العلاقات الداخلية، أما على مستوى العلاقات بالأشقاء العرب والمسلمين، فإن اعتقادًا غريبًا يصيب هؤلاء فى الغالب، حيث يعتقد كل نظام مستبد أنه لن يبقى ولن يكتب لوطنه التقدم إلا إذا حارب جاره العربى أو المسلم، ومن ثم يصبح أكبر همه كيف يقزِّم إخوانه حتى يبدو أمام شعبه عملاقًا، تمامًا كما يفعل بعض (عُمد القرى) فى المسلسلات المصرية، حيث يكيدون لرعيتهم ويتآمرون على بعضهم.

وترفض هذه الأنظمة أى محاولة للتوحد بين أقطار العرب والمسلمين بحجج واهية، لكن الحقيقة أن كل طرف يحتفظ لنفسه بحق التصرف فى مقاليد بلاده وثرواتها ومقدراتها، ولا يريد أن يشاركه فى ذلك أحد.

خامسًا: الولاء للأجنبى:

تشعر الأنظمة المستبدة بعقدة نقص وخوف شديدين، بسبب انعدام أسس الشرعية الدستورية لسلطاتها، ولذلك تسعى (أو يسعى إليها) لتكميل هذا النقص

بإقامة ولاء مع قوى كبرى، فى الغالب تنتمى إلى المعسكرات المتربصة بالأمة الدوائر. والولاء للأجنبى يزيد فى تآكل المجتمعات الإسلامية، ويوسع الهوة القائمة فى الأصل بين الشعوب والأنظمة، حيث يزيد فى حقد الشعوب على حكامها، ومن ثم تزداد الأنظمة ارتماء فى أحضان الأجنبى، إلى أن يصل بها الحال إلى أنها لا تطمئن على نفسها إلا فى ظل وجود قوات أجنبية على أراضيها!.

ومن هنا نرى العلاقة الوثيقة بين انعدام الاستقرار السياسى والديمقراطى من جهة، وبين الارتماء فى أحضان الأجنبى وفقدان الاستقلال.

ويزداد انعدام الاستقرار السياسى فى العالم الإسلامى بهذا الشأن نتيجة التنافس بين الدول الاستعمارية القديمة والحديثة، فإن صراع الكبار يتم على أراضى الصغار، وحسابات الأقوياء يتم تصفيتها فى بلدان الضعفاء، وهذا ما حدث مراراً وتكراراً، وساهم فى إعادة المسلمين إلى الخلف عشرات السنوات، وخاصة فى أفريقيا.

فى أفريقيا تكثر المستعمرات القديمة، حيث كان الاستعمار الفرنسى منتشراً، وعلى سبيل المثال كان عدد القواعد الفرنسية فى عام ١٩٦٠م حوالى مائة قاعدة، ونتيجة تفكيك مستعمراتها، وارتفاع تكلفة هذه القواعد، وسعى الولايات المتحدة الأمريكية، للضغط عليها، ومَلْء الفراغ الذى تتركه، فقد انخفضت هذه القواعد فى التسعينات من القرن العشرين إلى ست قواعد موزعة بين السنغال وجيبوتى والجابون وتشاد والكاميرون وكوت ديفوار (ساحل العاج)، وهى مناطق إسلامية فى الغالب.

ومن بعد الحرب العالمية الثانية لعبت أمريكا دوراً مشهوداً فى إحداث الانقلابات فى العالم الثالث عامة والعالم الإسلامى خاصة، وفى انتزاع المستعمرات القديمة من بريطانيا وفرنسا، وملء الفراغات التى تركتها هاتان الدولتان نتيجة عجزهما وترهلهما، وكل ذلك ساهم بفاعلية فى اضطرام الصراع السياسى فى بلدان العالم الإسلامى، سواء فى أفريقيا أو فى آسيا[1].

(١) راجع إن شئت فى هذا الشأن: محمود شاكر: العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه: ص (١١٠ - ١١٢).

سادسًا: انتهاك آدمية الإنسان والاعتداء على حقوقه:

عندما أحكمت الأنظمة الديكتاتورية السيطرة على أزمة الثروة والثورة (القوة)، وعندما اجتمعت فى أيديها كل مقاليد الأمور وخيوط (اللعبة) السياسية، ومن ثم (اللعب) الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فى ظل مباركة الخاصة وتصفيق العامة وهتافات الجماهير، عند ذلك انطلقت أجهزة هذه الأنظمة تقمع المعارضين وتتربص بالصامتين، حتى أقامت فى بعض البلدان محاكم للتفتيش، وأوجدت فى كل بيت مأتمًا وعويلاً.

ويبدأ الاعتداء على حقوق الإنسان عادة بالتدريج، وقد وصل الحال ببعض الأنظمة الإسلامية التى تصف نفسها بالتحضر إلى تدخلها فى أخص خصوصيات الإنسان، وهو (اللبس) أو الثياب، وسنشير هنا إلى (الحجاب) عند المرأة المسلمة، فبجانب كونه شعيرة تعبدية عند المسلمة، فهو حرية فردية وشأن خاص حتى بمقاييس التغريب والعلمانية الأجنبية، أما فى بلداننا الإسلامية، فقد حالت السلطات فى عدد من هذه البلدان بين المرأة وبين ما تختاره من ثياب، وخاصة غطاء الرأس، حيث انتزع بالقوة من رؤوس الفتيات الرافضات لنزع ذلك الحجاب[1]. ووصل الأمر فى تركيا إلى سن قانون يفصل بموجبه ضباط الجيش والأمن من أعمالهم إذا ثبت أن زوجاتهم يرتدين الحجاب، وقد أجبر الجيش رئيس حزب «الرفاه» الإسلامى البروفيسور نجم الدين أربكان على توقيع قرار فى ١٩٩٥م بفصل ٥٤ ضابطًا من الجيش والأمن بدون سبب، إلا لأن زوجاتهم يرتدين الحجاب!!.

وتظل تركيا هى النموذج الأبرز فى قضية الحريات المدنية المنتهكة بدعوى العلمانية الليبرالية، مع أن الليبرالية فى الأصل مأخوذة من كلمة (ليبرتى) وهى كلمة إغريقية قديمة معناها: الحرية المطلقة، فقد حكمت محكمة أمن الدولة فى

---

(١) عن الحجاب فى تركيا انظر: المجتمع: العدد (٩٠٩)، ص (١٨، ١٩)، قضايا دولية: العدد (٢٩٢)، ص(٢٤)، مجلة الرباط باكستان، رجب ١٤١٤هـ - يناير ١٩٩٤م، ص (٣٣)، مجلة الوسط، لندن: العدد (٢٠٣)، ص (٣٦)، وعن إندونيسيا انظر: مجلة الدعوة المصرية، شعبان ١٤٠٥هـ - إبريل ١٩٨٥م، ص (٤٧)، وعن تونس: مجلة الدعوة المصرية: جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ - مارس ١٩٨٥م، ص (٣٨)، وعن سوريا: لواء الإسلام - مصر: غرة المحرم ١٤٠٩هـ - ١٣ أغسطس ١٩٨٨م، ص (٤٧).

استانبول على أمينة سنليكوجلو (٣٥ سنة) بالسجن ست سنوات وثلاثة أشهر؛ لأنها نشرت كتاب (إنهم دمروا عقيدة الشباب) دعت فيه إلى رجم الزانية، وقد اتهمت بنشر (دعاية ضد العلمانية) السارية فى تركيا[١].

ووصل الأمر بديمقراطية تركيا التى تجرى فيها دماء الطغيان والاستبداد أن حوكم رئيس بلدية استانبول وزعيم أكبر أحزاب المعارضة (العدالة والتنمية) - والذى أصبح فيما بعد رئيسًا للحكومة (فى ٢٠٠٣م) - وهو طيب رجب أردوغان - بتهمة انتهاك مبادئ علمانية أتاتورك؛ لأنه أثناء إحدى خطبه السياسية استدل ببضعة أبيات شعرية لشاعر مشهور يفتخر فيها بمجد تركيا وبأنهم خرجوا من المآذن، وقد حكمت عليه المحكمة بستة أشهر سجن!!.

محاكم التفتيش فى العالم الإسلامى:

أما عن اضطهاد المعارضين فى لقمة عيشهم وفصلهم من وظائفهم وحرمانهم من حقوقهم السياسية والدستورية والمادية فحدِّث ولا حرج، وكذلك عن حملات الاعتقال لهؤلاء وأنواع التعذيب التى لا تخطر على بال، والتى قتل فى سلخاناتها الآلاف، وقتلت بسببها آدمية مئات الآلاف من أصحاب الكلمة الحرة والرأى الشجاع والفكر المستنير.

وحديث الآلام يكتب بالدم ويسقى بالدموع، فسجون كثير من الأنظمة تحولت إلى مسالخ بشرية، لو أقيمت للحيوانات لضجت جمعيات الرفق بالحيوان، أما الإنسان العربى المسلم فى هذا العصر فلا بواكى له!

انتقدت صحيفة (الاندبندنت) البريطانية (يوم ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٣م) أساليب التحقيق التى تستخدمها الحكومة المصرية فى التعامل مع المتهمين، وأشارت الصحيفة نقلاً عن منظمات حقوق الإنسان إلى أن أنواع التعذيب المستخدمة فى السجون المصرية تشمل: (الضرب المبرح، وإطفاء السجائر فى مناطق حساسة من جسم المتهم، بالإضافة إلى الصدمات الكهربائية فى اللسان والأعصاب والأعضاء التناسلية، فضلاً عن اغتصاب المتهمين من قبل ضباط الجيش). وذكرت على لسان

---

(١) الدعوة: رمضان ١٤٠٥هـ - مايو ١٩٨٥م، ص (٣٧).

عضو فى المنظمة المصرية لحقوق الإنسان أن التعذيب يشمل صحافيين وأطباء ومهندسين ومحامين وغيرهم، وأن اثنى عشر شخصًا ماتوا فى السجون المصرية فى ١٩٩٣ بسبب التعذيب[١].

وفى عمود الصحفى الكبير مصطفى أمين (فكرة) تحدث عن حقوق الإنسان والمطالبة بها، وأورد فقرات من الحكم الذى أصدرته محكمة الجنايات فى قضية قرية (كمشيش) المصرية وهذا نصه:

(تسجل المحكمة للتاريخ أن هذه الفترة التى جرت فيها أحداث هذه القضية هى أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث، فهى فترة قد ذبحت فيها الحريات، وديست فيها كرامة الإنسان المصرى ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال، وأمر الرجل بالتسمى بأسماء النساء، ووضعت ألجمة الخيل فى فم رب العائلة وكبير الأسرة، ولطمت فيه الوجوه والرؤوس بالأيدى، كما ركلت بالأقدام، كما هتكت أعراض الرجال أمام بعضهم الآخر، وجئ بنسائهم أمامهم وهددن بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم، ودربت الكلاب على مواطئة الرجال وواطؤوهم بأمر من المتهم الأول وهو رب العائلة وأخوته، وهو أبشع ما وقع فى هذه القضية من تعذيب فى نظر المحكمة، بإخراج جثة والدتهم من مدفنها وكانت حديثة الدفن للتمثيل بها أمام الناس، والتشهير بهم وإذلالهم أمام أهلهم وذويهم).

(وإن المحكمة لتسجل بأن المخلوق الذى ينسى ربه ونبيه ويأمر الابن أن يصفع وجه أبيه أمام الناس فهو مخلوق وضيع وتافه ومهين. وإن المحكمة وهى تسجل هذه الفظائع ينتابها الأسى العميق والألم الشديد من كثرة ما أصاب الإنسان المصرى فى هذه الحقبة من الزمن من إهدار لحريته وذبح لإنسانيته، وقتل لكافة مقوماته (حريته ورجولته وأمنه وأمانه وماله وعرضه). وإن المحكمة لتسجل أيضًا للتاريخ وقلبها يقطر دمًا أن ما حدث فى هذه القضية لم يحدث مثله حتى فى شريعة الغاب ولا البربرية الأولى)[٢].

(١) فلسطين المسلمة: فبراير ١٩٩٤م - شعبان ١٤١٤هـ، ص (٥٢).

(٢) مجلة الأخبار - أمريكا، ٢٧ ربيع الآخر ١٤٠٤هـ - ٣٠ يناير ١٩٨٤م، ص (٥٢).

هذه قطرة من بحر ما حدث فى بلد عربى واحد، وفى بعض البلدان حدث ما هو أفظع منه، وتقارير منظمات حقوق الإنسان الإقليمية والدولية تسجل كل عام ما يشيب لهوله الولدان. وهناك بعض الجرائم التى يرتكبها الإنسان فى حق أخيه الإنسان مما توصف بأنها من أفعال الحيوانات وخاصة التى تعيش فى الغابة منها، ولكنى أعتقد - ومعى غيرى فى ذلك - أن هذا ظلم فادح للحيوان!.

والمتتبع لتقارير منظمة العفو الدولية - مثلاً - يجد كيف أن بلدان العالم الإسلامى تحوز نسبة الأسد - بل والنمر والدب والفهد - من تلك الجرائم، وقد ذكرت هذه المنظمة فى بعض تقاريرها أن التعذيب أصبح منهجياً ومؤسسياً، وذكرت من أساليب التعذيب (الضرب والحرق واقتلاع الأظافر وتعليق السجين من معصميه لساعات طويلة، والنقر على الأعضاء التناسلية، وسكب الماء الساخن على جسد السجين، وإطلاق الكلاب الوحشية عليه، إلى جانب كل ذلك هناك تقنيات تعذيب أخرى آخذة فى الظهور والتطوير، وقد بدأت بعض الأنظمة رصد اعتمادات ضخمة لاستيرادها واستيراد كل أدوات التعذيب المعقدة لإطالة أمد العذاب دون أن يفقد السجين وعيه)[1]. كل هذا التعذيب وغيره مما لم يخطر على بال بشر وربما على بال إبليس نفسه، قد يكون بتهمة تافهة أو ملفقة، وقد يكون بلا تهمة، وربما كان مجرد تشابه أو غلط فى الأسماء.

ومثال آخر ومختلف قليلاً عن انتهاك حقوق الإنسان فى أعز ما يملك وهو نفسه، تجرى فى بعض البلدان الإسلامية إعدامات بدون أى محاكمات، فقد قال محمد عمران فى المؤتمر القطرى الاستثنائى «فى دمشق» لحزب البعث، وذلك فى ١٧ مارس ١٩٦٤م: (حينما زرنا العراق أثرنا موضوع القوة فى قتل الشيوعيين، فكان الرأى أن المنفذين هم الحزبيون البعثيون، وجرت حادثة ذات مرة، أن كلف ضابط بعثى بإعدام اثنى عشر شيوعيًا، فقال: أنا لا أذهب إلا لإعدام خمسمائة على الأقل)[2].

(١) بتصرف عن: المهدى المغربى: لماذا التعذيب؟ (المجتمع: العدد ٨٩٧، ص (١٨، ١٩).

(٢) سعد جمعة: مجتمع الكراهية: ص (٣٧).

ويعقد الشاعر الحر أحمد مطر مقارنة بسيطة فى (لافتاته) بمفردة من مفردات الحرية بين بنى يعرب وبين الغربيين فيقول:

فى بلاد المشركين

يبصق المرء بوجه الحاكمين

فيجازى بالغرامة!

ولدينا نحن أصحاب اليمين

يبصق المرء دمًا

تحت أيادى المخبرين

ويرى يوم القيامة!!

عندما ينثر ماء الورد والهيل - بلا إذن -

على وجه أمير المؤمنين!!.

وهى صورة كاريكاتورية ساخرة ولاذعة، لكنها «للأسف الشديد» صادقة، حيث حدث تبادل للمواقع بين المسلمين وأعدائهم، من حيث الاقتراب من جوهر الإسلام وقيمه السياسية والعلمية، فقد وجدنا فى الغرب نماذج لتعامل الحكام مع شعوبهم مما يتفق مع جوهر الإسلام، فكأن الإسلام فى الغرب ولكن بدون مسلمين، والمسلمين فى الشرق ولكن بدون إسلام!!.

سابعًا: الانهزام أمام المعتدى:

عندما يفشو النفاق السياسى، ويطغى الاستبداد، وتنتهك حقوق الإنسان، وتسلب آدميته، عندها لا تتوقع من مجتمع هذا حاله أن ينتصر فى أى معركة سياسية، فلا يبقى منه إلا هيكل العبد المطيع، الذى يسمع ما يراد له أن يسمع، ويبصر ما يؤذن له أن يراه، ويفعل ما يؤمر به وما يطلب منه، وغير ذلك فلا يسمع ولا يرى ولا يتكلم، بل ولا يريد ولا يعمل، يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت: (لا حرية بدون إرادة). وكما يقول الشاعر العربى:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

وقد كثر بحث الدارسين عن أسباب هزائم العرب خاصة والمسلمين عامة فى المعارك التى خاضوها فى هذا العصر مع أعدائهم، فيسروا ويمنوا، وشرقوا وغربوا، ولكن القليل منهم هم الذين اهتدوا إلى هذه العلة، فالإنسان العربى عبد، والعبد - كما قال عنترة بن شداد - لا يجيد الكر، وإنما يجيد الحلب والضر، وقد كان هو جبانًا خائفًا عندما كانت قبيلته تعامله على أنه عبد، فلما أعطاه أبوه حريته واعترف المجتمع بتلك الحرية أبدع فى فنون الفروسية وأخلاق الفروسية، وصار أحد المقاتلين الشجعان الذين يفتخر بهم تاريخ العرب!.

وبعد ذلك يأتى من يسأل: لماذا انتصرت إسرائيل الصغيرة على كل الدول العربية فى ١٩٤٨، و١٩٥٦ و١٩٦٧م، وغيرها؟ وكذلك لماذا تنتصر دومًا فى المعارك السياسية والاقتصادية على خصومها العرب؟

ويبدو أن الجواب من باب (السهل الممتنع)، فاليهود كانوا فى كل المعارك أحرارًا بينما كانت جيوش العرب قطعانًا من العبيد. (إسرائيل) دولة ديمقراطية قامت فى منتصف ١٩٤٨م فى وسط أمة مترامية الأطراف، على يد مجموعة مقاتلة من اليهود، ومع ذلك فلم تحكم تلك المجموعة بدعوى (الشرعية الثورية) ولم يتمالأ القوم على وأد الحريات ودوس الحقوق بحجة ظروف الحرب وتكالب الأعداء، كما فعل العرب كل ذلك وأشد منه تحت لافتة (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة)! بعد نصف عام فقط من قيام (إسرائيل) أجريت انتخابات نزيهة لم يحصد الحزب الحاكم فيها - وهو مؤسس الدولة بالفعل - أربع تسعات، وإنما حصل فقط على ٣٩٪ من جملة الأصوات، رغم أن قائده كان مؤسس الدولة والذى وصف بأنه موسى هذا العصر، وهو دافيد بن جوريون!!

إذن، انتصر اليهود لأنهم أحرار، وانهزم العرب لأنهم عبيد فى معاركهم الخمس الرئيسية مع (إسرائيل)، وربما سرى ذلك بالمشابهة - مع فارق التفاصيل - على هزيمة باكستان أمام الهند ثلاث مرات، وعلى هزيمة أذربيجان المسلمة أمام أرمينيا المسيحية، والصومال أمام أثيوبيا، ودولة طالبان الأفغانية أمام القوات الأمريكية، وقبل ذلك وبعده هزيمة القوات العراقية أمام القوات الأمريكية وحلفائها فى ١٩٩١ وفى ٢٠٠٣م.

ولأن الإسلام هو دين الحرية الشاملة، فقد كان السبب الرئيسي في انتصار العرب المسلمين أنهم كانوا أحرارًا ويواجهون جيوشًا وأممًا ودولاً من الرقيق والإماء، وكان كل عربي رقمًا صحيحًا، بينما كانت الشعوب الأخرى أصفارًا بعد أن تنازلت عن آدميتها وفكرها وإرادتها وحريتها للحاكم الأوحد.

وبهذه المناسبة فقد ذكر الطرطوسي في كتابه (سراج الملوك) الحكاية التالية:

(في أثناء محاولة الجيش الإسلامي الدخول لأرض فارس طلب قائد جيش الفرس أن يتفاوض مع قائد المسلمين لحقن دماء الجيش. وبعد أن عرض الفارسي مقالته قال المسلم: أمهلني حتى أستشير القوم، فدهش الفارسي وقال: ألست أمير الجند؟ قال: بلى. قال الفارسي: إننا لا نؤمر علينا من يشاور، فقال له العربي المسلم: ولهذا فنحن نهزمكم دائمًا. أما نحن فلا نؤمر علينا من لا يشاور). وفي هذا العصر تكررت القصة ولكن بعد تبدل المواقع، فالذي يشاور أصحابه هو موشي دايان القائد العسكري الصهيوني، بينما القائد العربي لا يشاور، فيقول له دايان: (لهذا السبب فنحن نهزمكم دائمًا)[1].

وبقدر ما ساهم الشعر العربي في التطبيل للاستبداد السياسي الذي أورد أمتنا المهالك وأوصلها إلى هذا الذل والهوان، فقد ساهم هذا الشعر -بوجهه المضيء- في جلد الأنظمة والقيادات التي حضرت بقوة في معرض إذلال المواطن العربي، واختفت عند مقابلة الأعداء حديثًا وقديمًا:

حكامُنا إن تصدوا للحمى اقتحموا ... وإن تصدى له المستعمر انسحبوا

وقبل ذلك قال الشاعر:

وملوك خندق أسلمونا للعدى ... لله در ملوكنا ما تصنع

وقال آخر في أصدق تشخيص لهذه الظاهرة:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

---

(١) بتصرف عن: د/ محمد عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام: ص (٨٤، ٨٥).

وقريب من هذا ما قاله الطِّغرائِى:

ما كنت أوثر أن يمتد بى زمنى ... حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

تقدمتنى أناس كان شأوهم ... وراء خطوى لو أمشى على مهل

وقال آخر:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

لكن قومى وإن كانوا ذوى نفر ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لى بهم قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

وفى السياق ذاته وجد من العلماء من صاروا أعمدة للاستبداد السياسى بفتواهم ومواقفهم وتصريحاتهم، وهناك من تصدى للاستبداد السياسى وانحاز لحريات الناس وحقوقهم، سواء فى المواقف أو فى الكتابة والتأليف أو فى الدعوة والحركة والنشاط والتى وصلت عند البعض إلى حد المواجهة لطغيان الحكام وفسادهم.

ومن أهم العلماء الذين تصدوا للاستبداد بجانب تصديهم للاستعمار والتخلف السيد جمال الدين الأفغانى، فقد واجه الاستبداد فى كل بلد أقام فيها، ابتداء من أفغانستان ومروراً بمصر وإيران، وانتهاء بالدولة العثمانية. وكان يستفز المصريين بقوله: (إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد، وربيتم بحجر الاستبداد)، وكان يستحث المسلمين للوقوف أمام الطغاة سواء كانوا مستعمرين أو مستبدين فيقول: (أمة ثبتت فى جهادها لأخذ الحق ساعة، خير لها من الحياة فى الذل إلى قيام الساعة).

ومن أهم الكتب التى ألفت حول الاستبداد فى هذا العصر كتاب الشيخ عبدالرحمن الكواكبى (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وكذلك كتاب الشيخ محمد الغزالى (الإسلام والاستبداد السياسى) الذى شن حملة شعواء على الاستبداد فى أكثر كتبه ومقالاته، فيقول عن جرائم الاستبداد: (إن الإسلام صنع

فى بلاده حدائق فيحاء شهية المنظر والمتنفس، فجاء الاستبداد السياسى أشبه ما يكون بدخان من البترول المحترق، ترسله آله خربة ملأت الجو بغيومه، وزكمت الأنوف برائحته. وما يبقى على هذه الآلة الفاسدة رجل يريد بقاء الناس فى الإسلام)[١] ويبين بكلمات قليلة الطريق إلى انتزاع القابلية للاستبداد من بلداننا فيقول: (إن تنظيف العالم الإسلامى من الغرور والغش والادعاء، ومن السرقة والنهب والاستعلاء كفيل باجتثاث جذور الاستبداد، وإراحة الدين والدنيا من ويلاته)[٢].

وفى مجال الأدب فإن فارس الحرية وعدو الاستبداد الأول وبلا منازع خلال هذا العصر هو الشاعر الساخر أحمد مطر، الذى حازت مواجهة الاستبداد المساحة العظمى من مجموعاته الشعرية السبع (لافتات)، إضافة إلى الأعمال الأخرى، ويمكن أن يكون شعاره فى هذا المجال قوله:

يوم سيرضى الحاكم عنى
سيكلفنى الشك بفنِّى
سأسىء الظن بأوراقى
وأسىء الظن بأخلاقى
بل سأسىء الظن بظنى!

إلى أن يقول:

يوم سيرضى الحاكم عنى
أقسم أن أتبرأ منِّى[٣]

ويقول فى مقام آخر:

عوائد القادة
من عائد بيع الغاز..

(١) الإسلام والاستبداد السياسى: ص (٢١٠، ٢١١).
(٢) المصدر نفسه: ص (٣٣).
(٣) لافتات ٧: ص (٣٢ - ٣٤).

ألغاز!

ونومهم للغرب باختيارهم، إن جاز..

إنجاز

وسيرهم نحو العدا

زحفًا على الأعجاز..

إعجاز!

تلك خفايا وضعنا بمنتهى الإيجاز[1].

* مراجع إضافية حول الحريات السياسية والاستبداد في العالم الإسلامي:

١- هشام شرابي: النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي (مركز دراسات الوحدة العربية).

٢- د. أحمد شوقي الفنجري: الحرية السياسية في الإسلام.

٣- عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية.

٤- أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية.

٥- د. برهان غليون: المحنة العربية: الدولة ضد الأمة.

٦- جيلزكيبل: النبي والفرعون.

٧- د. سيف الدين عبد الفتاح: التجديد السياسي والواقع العربي المعاصر، رؤية إسلامية.

٨- محمد جلال كشك: كلمتي للمغفلين.

٩- د. صالح سميع: أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي.

١٠- سعدي أبو جيب: دراسة في منهاج الإسلام السياسي.

***

(١) لافتات: ص (٩٦).

المبحث الرابع

الظلم الاجتماعى والعبث المالى

المعضلة الرابعة التى يعانى منها العالم الإسلامى، وتمثل أحد الأدواء الوبيلة فى جسده العليل، هى الظلم الاجتماعى والعبث المالى، حيث يسيطر على خيرات البلدان قلة قليلة، بكثير من الوسائل التى لا تعرف فى الغالب حلالاً أو حرامًا، ولا تحترم دستورًا أو قانونًا، ولا تراعى أعرافًا أو مصالح عامة.

أولاً: تسيُّد المعايير الفاسدة:

فى المجتمعات الواعية والأمم الحية يصبح الناس جميعًا على قدم المساواة، لهم كل الحقوق، وعليهم كل الواجبات، وعندما توجد الاستثناءات فإنها تكون مبررة شرعًا أو واقعًا، وفقًا لمعايير علمية موحدة، لا يمكن لأىٍّ كان اختراقها.

وفى العالم الإسلامى تغيب المساواة ويجمد القانون فى ثلاجة الاستثناءات والمحسوبيات، وبالتالى تتسيد المعايير الفاسدة والشاذة حتى تصبح هى الأصل، وتغيب المساواة حتى تصبح هى الاستثناء.

ومع أن هذا الداء الوبيل أصاب جسد الأمة بكامله، إلا أن التفاصيل تختلف، فقد يبرز هناك البعد القبلى فى نيل الحقوق المادية أو المعنوية مع التخلص من الواجبات، بينما يبرز فى مجتمع آخر البعد السياسى الحزبى، فكل الحقوق تعطى لأعضاء الحزب الحاكم وبدون أى واجبات نحو الوطن أو المجتمع، بينما يتحمل المستقلون والمعارضون كل الأعباء والواجبات، كما قال الشاعر العربى الأول:

وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى جندب!

وجندب هنا يمكن أن يكون الحزب الحاكم أو القبيلة أو المنطقة أو الطائفة أو الطبقة أو حتى المهنة فى بعض الأحيان. ويعلق الدكتور/ القرضاوى على هذا الأمر فيقول: وهذا ما جعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول لواليه على (حمص) حين كتب إليه يطلب مالاً لبناء سور المدينة: (حصِّنها بالعدل، ونق

طرقها من الظلم) يريد أن المدينة التى يشعر أهلها بقيام الحق والعدل فيها يحميها أهلها ويستميتون فى الدفاع عنها، قبل أن تحميها الأسوار والتحصينات[١].

وإن غياب العدل الاجتماعى فى كافة الحقوق والواجبات منذر بهلاك الأمم وسقوط الحضارات، ولذلك فإن هذه الصفة تمثل أحد أسباب المفارقات القائمة اليوم بين العالم الإسلامى والعالم الغربى. إن حضور العدل الاجتماعى فى الغرب يشكل أحد مداميك القوة فى الحضارة الغربية، فهذا العدل هو الإسمنت، والحديد هو الحريات - التى أسلفنا فى الحديث عنها - وهما معًا - أى: العدل والحرية - عمادا لبناء المسلح الذى يمثل الحضارة الغربية القوية، بينما يعانى هذان العمودان من الضعف الشديد والوهن العجيب فى أمة ما جاء دينها إلا لبناء الحياة على أسس الحرية والإخاء والمساواة والعدل الاجتماعى، حتى أن النبى ﷺ عندما جاءه أكثر الصحابة قربًا من قلبه العطوف ليشفع لشريفة من بنى مخزوم - وهم من أعلى بيوتات قريش - حتى لا يقام عليها حد السرقة، غضب النبى ﷺ، وكان لا يغضب إلا عندما تنتهك محارم الله، وبيَّن لأصحابه ولأمته من بعده، بل وللإنسانية جمعاء، سنة من سنن الاجتماع والحضارة، فقال: «**أتشفع فى حد من حدود الله تعالى؟**» ثم قام فخطب ثم قال: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[٢]. إن اختلال معايير الثواب والعقاب فى أى أمة من الأمم هو بداية انهيارها ثم سقوطها إن لم يتدارك الأمر، ويعود ميزان العدل الاجتماعى إلى الحكم!.

ومثلما قلنا فى قضية الحريات وحقوق الإنسان، بأن الغرب يقترب بشدة من قيم الإسلام فى هذا المجال، بينما المسلمون أبعد ما يكونون عن دينهم فى هذه القضية، فإن القصة تتكرر فى قضية العدل الاجتماعى، ولذلك فإن كثيرين ممن قرءوا عن الإسلام من علماء الغرب، وعن درجة السمو والرقى التى هو فيها اعتبروا أن المسلمين هم أعداء الإسلام. وقد قرأ أحدهم عن فلسفة هذا الدين

(١) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى: ص (١٩٦).

(٢) متفق عليه.

وشريعته وكان يعرف حال المسلمين ويدرك البون الشاسع بين الطرفين وخاصة فى مجال القيم الحضارية، فقال: يا لهذا الدين لو كان له رجال!!.. وفى السياق ذاته الذى نحن بصدده، يقول الدكتور/ فتحى يكن[1]: (لكم آلمنى قول من قال قديمًا: «ما أجمل الإسلام وما أقبح المسلمين!» ثم رددها كثيرون حديثًا، حتى أننى سمعتها من فم (محمد أسد) الذى اعتنق الإسلام بسبب انبهاره بمبادئه، وبعد أن قام بجولة فى العالم الإسلامى أدى خلالها فريضة الحج، ووضع كتابه (الطريق إلى مكة) قال: لو أنى تعرفت على الإسلام من خلال واقع المسلمين لما كنت قد اعتنقت الإسلام).

ثانيًا: انقلاب الهرم الاجتماعى:

حينما يغيب العدل الاجتماعى، ويظهر العبث بالأموال، يحدث لهرم المجتمع انقلاب رهيب، حيث تعلو القواعد وتهبط القمم، ثم إذا ساء الوضع أكثر تتهدم الجسور التى تربط بين جهتى الهرم أو تضعف وتتمزق أوصالها، حينذاك يصبح هذا المجتمع عرضة للسقوط، فالقابلية فيه عالية للسقوط، وهذا الوضع يغرى الآخرين للمجئ من أجل استعراض العضلات، وسلب المقدرات التى يمتلكها ذلك المجتمع، وخاصة التى تقع فى منطقة الوسط بين جهتى الهرم الاجتماعى، حيث يعتبر كل طرف أن حمايتها من واجبات الآخر، أما فى وقت الحقوق فالكل يتسابق للاستئثار بها، وإن كانت أعراف وقوانين الظلم الاجتماعى تجعلها من نصيب الكبار الذين كانوا فى الأصل صغاراً. وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن الإسلام لا يعترف فى مثالياته بالفوارق داخل أى مجتمع، فلا يوجد صغار وكبار فى الأصل بالمعنى التشريفى أو الاستئثارى، ولكن التقسيم أحيانًا يكون من باب التنظيم والعدل الاجتماعى ذاته، الذى يعطى لكل مجتهد نصيبًا، ويضع كل إنسان فى مكانه المناسب، وفقًا لقدراته وطاقاته وجهوده.

ووفقًا لهذا الأمر فإنه - أى: الإسلام - يجعل العلماء العاملين، سواء كانوا علماء شريعة أو فكر أو سياسة أو اقتصاد أو اجتماع أو كيمياء أو فيزياء، أو غير

(١) الأولويات الحركية فى أعقاب (أيلول ٢٠٠١م). ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٢ - ٢٠٠٢م) ص (١٢٥).

ذلك من العلوم والتخصصات، يجعلهم فى مقدمة الركب الحضارى، فى ناحيتيه التكليفية والتشريفية، وهذا واضح جلى فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ولنلق نظرة إلى مكانة العلماء فى دنيا المسلمين اليوم، وسنركز الأمثلة على الناحية المادية، لأنها الأسهل قياسًا ولا يمكن أن يجادل فيها مجادل. ولأن الأشياء تتميز بأضدادها، فسنقوم بعمل مقارنة بين العلماء وبين الفنانين (ممثلين ومطربين) فى الدخل المادى.

ولما كانت مصر هى قبلة المسلمين العلمية، حيث فيها أعرق المدارس والجامعات، بما فيها أقدم جامعة فى التاريخ وهى جامعة الأزهر، فسنستل الأمثلة منها.

بالنسبة للعلماء، ووفقًا للأعراف الإدارية الأكاديمية، فإن أعلى درجة فى سلم وظائف العلماء هى الأستاذ الجامعى الذى يملك أعلى شهادة فى الدنيا (الدكتوراه) ويقوم بتوفير كل حاجات المجتمع من التخصصات والوظائف، ويتعامل مع أرقى وأغلى قطعة فى جسم هذا الإنسان وهى عقله، فما هو مرتبه؟ يستلم أستاذ الجامعة (الدكتور) فى مصر مرتبًا شهريًا يتراوح ما بين الثلاثمائة والأربعمائة دولار، وهو مرتب ربما كان الأعلى فى سلم الوظائف الحكومية، فما هى فى المقابل أجور الفنانين؟.. اقرءوا معى إن شئتم هذه السطور كنماذج من الصحافة العربية والمصرية خاصة:

- ذكرت الصحف أن المغنى الناشئ افتتح حسابًا فى بنوك سويسرا بمبلغ عشرين مليون من الدولارات التى حصل عليها من (أشرطة الكلسيت) ولا داعى لأن يتحسر شبابنا المكافح من العلماء والخبراء والفقهاء والباحثون الذين يقوم عليهم كيان الدولة فى المعامل والمصانع ومراكز البحوث وفى مدرجات المعاهد والجامعات.. فالطرق الموحلة أصبحت أقرب الطرق إلى الثراء، والثراء الفاحش[1].

(١) مجلة الاعتصام: القاهرة: ذو القعدة ١٤١٠هـ - يونيو ١٩٩٠م، ص (٣).

- لستُ مع الذين دهشوا لأن ثرياً خليجيًا أهدى اللاعب حسام حسن سيارة بلغ جمركها ٨٠ ألف جنيه..

وأقول: كان أولى بكم أن تدهشوا من ذلك الثرى الذى دفع لشريهان فى حفل عيد ميلاد ابنه شيكًا بـ ١٥٠ ألف دولار، لأنها شرفت الحفل برقصة.. أما راقصة الحفل الرسمية فقد وعدها بدفع ألف دولار عن كل دقيقة ترقصها[١].

- نشرت مجلة (الأربعاء) ملحق صحيفة «المدينة المنورة» بتاريخ ٤ شعبان ١٤٠٥هـ أن أجور الفنانين تضاعفت ألفين فى المائة خلال عشر سنوات، فقد كان - مثلا - نور الشريف يتقاضى عن الفيلم ١٢٥٠ جنيهًا مصريًا فأصبح ثلاثين ألف جنيه، أما عادل إمام فقد كان أجره ١٢٠٠ جنيهًا مصريًا فأصبح مائة ألف جنيه، وتدور الأيام ليرفع عادل إمام أجره بنفسه إلى ١٥٠ ألفًا عن الفيلم الواحد. ونشرت صحيفة «الشرق الأوسط» فى العدد (٢٧١٥) بتاريخ ٥ مايو ١٩٨٦ أن ملابس الفوازير ارتفعت بشكل جنونى، فملابس شريهان وحدها ستكلف نصف مليون جنيه[٢].

- رفضت وردة الجزائرية ثلاثة ملايين جنيه لإقامة ثلاث حفلات فى الكويت والإمارات تغنى فى كل حفلة أغنية واحدة كبيرة أو ثلاث أغانى صغيرة، وجاء فى الخبر أن رسوم دخول الفرد ما بين ثلاثمائة إلى ألف دولار، وجاء فيه أنها - أى: وردة - تتقاضى عن الألبوم مليون جنيه[٣].

وهكذا فإن متوسط أجر الفنان فى ليلة واحدة يصل إلى مرتب ١٠٠ (دكتور) فى الجامعة، بل إن راقصة مثل فيفى عبده كانت أجرتها فى مطلع التسعينات مائة ألف جنيه فى ليلة واحدة، وربما كان هذا المبلغ أكبر من ميزانية جامعة عربية متكاملة تدرس كل العلوم من الدين والفلسفة والأدب إلى الطب والهندسة

(١) الاعتصام: رجب ١٤١٠هـ - فبراير ١٩٩٠م، صـ(٢).

(٢) المجتمع: العدد (٨٨٤)، ١٦ صفر ١٤٠٩هـ - ٢٧ سبتمبر ١٩٨٨م، ص (٣٦، ٣٧) (بتصرف).

(٣) صحيفة (القدس العربى) لندن: العدد (١٨، ١٩) شعبان ١٤١٧هـ، ٢٨ - ٢٩ ديسمبر ١٩٩٦م. أما عن المكانة الاجتماعية للفنانين وتحويلهم إلى (نجوم) يقتدى بهم فهو حديث طويل، ويكفى أن نعرف أن ١٥ شابًا وشابة انتحروا فى الأسبوع الأول من وفاة المطرب عبد الحليم حافظ حزنًا عليه.

والزراعة إلى الموسيقى والرسم والمسرح وفيها مئات العلماء، ومع ذلك فلن يصل متوسط أجورها في يوم واحد إلى مائة ألف جنيه!!.

إذن المجتمعات الإسلامية منكوسة، فلكي تواجه التحديات، ولكي تترقى حضاريا، وتذود عن نفسها وحياضها، لابد أن يعاد ترتيبها بتربيتها، بحيث يوضع كل شيء في موضعه دون ظلم أو محاباة لأحد، وهي نفسها التي تقوم بهذا الترتيب وليس غيرها.

ثالثًا: اتساع الهوَّة بين (الملأ) و (الجمهور):

من سيئات الظلم الاجتماعي أنه يوجِد أعرافًا ويفرز أوضاعًا كلها تزيد من توسيع الهوة الفاصلة بين (الجمهور) المستعضف الفقير، وبين (الملأ) المستعلي الوافر الثراء، وحركة الأموال خصوصًا والحقوق عمومًا، كلها تسير في اتجاه إجباري واحد، من جهة الفقراء إلى الأغنياء، فيزداد الغني غنًى ويزداد الفقير فقرًا، حتى تصل الفئتان إلى طرفي هلاك، فالفقراء يموتون جوعًا وذلاً وقهرًا، والأغنياء يموتون تخمة وانتفاخًا وتجبرًا.

هذه الهوَّة موجودة في العالم الإسلامي اليوم بأشكال وصور متعددة وعلى كل المستويات: فعلى المستوى الداخلي في المجتمع الصغير، يوجد الغني الفاحش والفقر المدقع، ففي القاهرة مثلاً، والتي أشرنا قبل قليل إلى أن من أهلها من يقيم حفلات بملايين الدولارات، ويحسب للراقصة بالدقيقة الواحدة ألف دولار، في هذه المدينة كانت الأرقام قد ذكرت أن مقابر القاهرة تؤوي مئات الآلاف من الأسر، بحيث يصل عدد سكان المقبرة من الأحياء إلى ثلاثة ملايين إنسان!!.

وعلى مستوى العالم الإسلامي ستجد نفس هذه الهوات والفجوات الواسعة، والأرقام لا تحابي أحدًا، فبين فترة وأخرى نقرأ قوائم لأغنى أغنياء العالم وأفقر فقراء العالم، سواء على مستوى الأشخاص أو الدول، فنجد أثر الظلم الاجتماعي القائم اليوم في بلداننا، في مثل هذه القوائم.

في مستوى الأفراد يقوم تقرير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة عن التنمية البشرية أن مليار نسمة - في عام ١٩٩٦م - من البشر يعيشون بأقل من دولار في اليوم،

ومن خلال التقارير المفصلة نعرف يقينًا أن معظم هذا المليار ينتسبون إلى العالم الإسلامى، والمشاهدة المجردة تؤيد ذلك، فإن أكثر الدول والشعوب التى تعانى من الفقر المدقع أو تتعرض لكوارث كبيرة، تنتمى إلى عالم الإسلام، ففى بنجلاديش تتكرر الفياضانات بشكل موسمى وبصورة دورية مما يؤدى إلى إهلاك الحرث والنسل، ويزيد فى فقر المجتمع الذى يصنف أصلاً أنه من المجتمعات الأشد تخلفًا والأكثر فقرًا والأقل تنمية، كل ذلك لأن الدولة، لعوامل كثيرة لم تستطع بناء شبكة من السدود والحواجز المكلفة، لمنع الأنهار من الفيضانات فى موسم الصيف الغزير المطر. وفى الطرف الآخر تفتك المجاعات بمجتمعات كثيرة فى غرب وشرق أفريقيا، وأكثر هذه المجتمعات تنتمى إلى العالم الإسلامى، مهما تكن أسباب هذه المجاعات، موجات جفاف أم حروب وقلاقل، ومهما يكن المسلمون أغلبية (مثل الصومال) أو أقلية (مثل أثيوبيا).

وفى المقابل عندما نقرأ قائمة أغنى أغنياء العالم نجد عددًا من الأسماء تقف فى المقدمة، فالمسلمون أصحاب الدين الوسط، إما أن يكونوا فى قمة الأغنياء وإما فى أسفل قائمة الفقراء.

هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الدول فالأمر أدهى وأمر، فإن بعض الدول الإسلامية قد يزيد متوسط الدخل فيها عن ثلاثين ألف دولار، مثل الكويت والإمارات العربية المتحدة، وإمارة برونای، بينما يهبط متوسط الدخل فى بعض البلدان عن ثلاثمائة دولار، مثل: بنجلاديش والصومال وجيبوتى وتشاد وموريتانيا واليمن، أى: أن متوسط دخل المسلم فى دولة غنية يوازى متوسط الدخل لمائة فرد فى البلدان الإسلامية الفقيرة.

وفى معرض حديث د/ القرضاوى عن هموم العالم الإسلامى يشير إلى بعض التناقضات فى المجتمعات الإسلامية، من خلال صور ومقابلات مؤلمة، فيقول: هناك فئات تتمتع بامتيازات غير معقولة، تجلعها تلعب بالملايين... وإلى جوار هؤلاء نجد أناسًا يبحثون عن لقمة الخبز، فلا يجدونها، وإذا وجدوها فبشق الأنفس، مغموسة بالعرق والدمع والدم. قصور فاخرة لا تجد من يسكنها، وإذا سكنها أصحابها فهى أيام معدودة من صيف أو شتاء... وفى مقابلها عشش من

الصفيح، أو البوص، أو اللَّبن، وحجرات فى الحارات والأزفة، فى الأحشاء الدقاق للمدن، فى كل حجرة منها عائلة من زوجين وأولاد، وربما معها أم أو أب!

شباب بلغوا سن الثلاثين أو أكثر، لا يستطيعون الزواج، لأنهم لا يجدون شقة صغيرة تؤويهم وزوجاتهم، وواحد ينفق فى ليلة عرسه ربع مليار من الدولارات أو تزيد!.

أناس لا يجدون (القروش) المعدودة، لسد جوعة، أو لستر عورة، أو لعلاج مريض، وغيرهم يعبثون بالملايين، ينفقون نفقة المسرفين، بل المتلفين، ويعيشون عيشة (أولى النَّعمة) المترفين، الذين اعتبرهم القرآن أعداء كل رسالة وخصوم كل إصلاح أو تغيير.. وشيوع هذا الترف وبروز أصحابه نذير بهلاك المجتمعات ودمارها، وفقًا للسنة التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[1] [الإسراء: ١٦].

وفى ظل انعدام الحريات السياسية والتصدى لكلمة الحق، يجتاح الفاسدون والظلمة كل يوم المزيد من الجماهير، بواسطة أساليب كثيرة، كلها من أعراض الظلم الاجتماعى الذى حرَّمه الإسلام وحرَّم أسبابه وطرقه ومنابعه، ولكن فى ظل الانفلات عن الإسلام وعدم وجود دولة النظام والقانون التى يحكمها الدستور وتنفذ القوانين وتسعى على رعاية حقوق الناس المادية وحرياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية، فى هذه الظروف ينطلق الفاسدون بشراهة لتحقيق الكسب الخبيث، سواء بالاستيلاء على حقوق وممتلكات الضعفاء بأى مبرر وتحت أى مسمى، أو بالاتجار بالمواد المحرمة كالمسكرات والمخدرات أو السلع الفاسدة أو بممارسة الفساد المالى كالرشوة وسرقة المال العام بأى صورة من الصور، ومن تهرب من الواجبات المالية كالضرائب والزكوات وما إلى ذلك.

وفى هذا الجانب تكثر القصص والعجائب التى تصل فى كثير من الأحيان إلى الغرائب، وربما ظن البعض أنها من الخيال، وتمتلئ بهذه القصص الصحف والمجلات والمجالس والدواوين، ويتناقلها الناس كل يوم يلوكونها صباحًا ومساءً،

(١) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى: ص (١٦٧، ١٦٨).

لدرجة أن الأمر فى بعض البلدان وصل إلى حد انعدام الحساسية إزاءه، حيث لم تعد هذه القصص محل غرابة أو استنكار، فقد أصبح الوضع طبيعيّاً، وأصبحت الأمانة والإحساس بالمسئولية هما المستغربان!..

رابعًا: التبذير والتقتير فى غير موضعهما:

ومن أعراض الظلم الاجتماعى، والعبث بالأموال العامة، ما نشاهده من سَرَف وتبذير فى مواضع لا ينبغى فيها شىء من ذلك، بل لا يجوز، ومن بخل وتقتير فى مواضع يجب أن ينفق فيها المال، وهذه لعمرى غريبة أخرى من غرائب المسلمين فى هذا العصر، وهاكم قطرات بسيطة من (المحيط العربى الغريب) فى هذا الشأن:

- ذكرت مجلة الإصلاح (الإمارتية) أن العيادة البيطرية بعجمان قامت بإجراء عملية تعد الأولى من نوعها فى دولة الإمارات، وهى عملية تجميل لأذنى كلب ألمانى، وقد طلبت صاحبة الكلب من الطبيب القيام بقص أذنى الكلب حسب مواصفات (كتالوج) معين يحدد الشكل المطلوب!!.

والأغرب من هذا أن جريدة مصرية - كما تقول الإصلاح - نشرت هى الأخرى خبرًا تحت عنوان (فتح باب العضوية للكلاب بنادى الجزيرة) وأصدر النادى بطاقات عضوية خاصة لكلاب أعضاء النادى للسماح لها بالدخول من الباب الرئيسى، وقيمة الاشتراك خمسة جنيهات، وتعلق المجلة قائلة: وإنه لأمر عجيب حقاً، وفى مصر يكون أكثر عجبًا حيث الآلاف بل الملايين لا يجدون فرصة الحياة الكريمة ولا موضعًا لقدم فى وسيلة مواصلات ولا مسكنًا لائقًا[1].

- ونشرت المجلة ذاتها خبرين فى عدد واحد يوضحان مكانة الإنسان العربى وقيمته عند العربى ذاته، فى الأول تقول: حكم على أحدهم بسبب جمل من إبل الهجن بـ ١٠٦ آلاف درهم، وإذا علمنا أن دية الرجل الذى يدهس بالسيارة ٣٥ ألفًا عرفنا أن ذلك الجمل يعادل ثلاثة رجال ونيف.. الجمل الميت يثير الشفقة والرجل الميت لا يثير الشفقة.. وفى الخبر الثانى تنقل عن برنامج (العالم هذا

(١) العدد: ٥٥ ص(٢٤).

المساء) بإذاعة لندن تقريراً عن المساعدات التى تقدمها دول الخليج العربى لمنظمة الطفولة العالمية (اليونيسيف) وقالت: إن دول الخليج قدمت مشروعًا لمساعدة المنظمة بخمسة وعشرين مليون دولار، وقدمت إحدى الأسر الثرية فى دولة خليجية مبلغ ستة ملايين دولار فقط.. وفى تقرير نشرته وكالة (غوث) للاجئين الفلسطينيين وأذاعته وكالات الأنباء أن وكالة الغوث قد تضطر لإغلاق المدارس والمستشفيات التى تديرها، وذلك بسبب العجز المالى الذى تواجهه، فأين تذهب أموال اليونيسيف؟! هل نسيت دول الخليج العربى أن هناك أطفالاً عربًا ومسلمين يموتون جوعًا فى فلسطين وأفغانستان وإريتريا.. هل شبع أطفال المسلمين حتى تقدم المساعدات للمنظمات الدولية؟)[١].

- وحول قطط أمريكا وإنسان العرب ذكرت مجلة (المجتمع) الكويتية القصة التالية: يعيش مليونير عربى فى الولايات المتحدة، وتربطه علاقة مصاهرة بزعيم نظام عربى تقليدى، تبرع بمبلغ مليونين ونصف المليون دولار لتأسيس فندق خاص لإيواء القطط المتشردة فى الولاية التى يقع قصره فيها، هذا الكرم العربى الذى حظيت به القطط المتشردة، دفع عددًا من الطلبة المسلمين العاملين فى حقل دعم الانتفاضة الفلسطينية المباركة إلى طرق باب المليونير العربى وهم يتفاءلون بأنهم سيحصلون على بضعة ملايين من الدولارات دعمًا للأهل الصامدين فى فلسطين، فإذا بالملونير العربى يمد إليهم (لطفًا أمسكوا أعصابكم قراءنا الأعزاء) مبلغ خمسمائة دولار أمريكى.. فقط.. لاغير.. بعد أن استمع إلى شرح مهيب عن الأوضاع المأساوية للأهل فى فلسطين. رئيس وفد الطلبة المسلمين ألقى بالمبلغ تحت قدميه، قبل أن يخرج الجميع من قصر البلونير العربى نصير الشعوب المكافحة، عفواً بل نصير القطط الأمريكية المشردة)[٢]. ومازال أمامى المزيد من هذه الحكايات التى (ترفع) الضغط إلى قمة (الرأس) و(تهبط) بالمعنويات إلى (أخمص القدمين)، ولكن ما عسانا أن نقول وهذه هى طبيعة المجتمعات المتخلفة التى لم تلتزم بهويتها ولم تلتحم بمعطيات العلم ومتغيرات العصر؟ وخاصة إذا كانت هذه المجتمعات

(١) مجلة الإصلاح - الإمارات، العدد (٤٤)، المحرم ١٤٠٢هـ، ص (٦، ٧).

(٢) مجلة المجتمع، العدد: (٩٥٦) - ٢ شعبان ١٤١٠ هـ - ٢٧ فبراير ١٩٩٠م، ص (١٥).

عربية، فالأعراب - إذا حادوا عن صراط الله المستقيم - ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٩٧].

وعلى مستوى الدول وداخل كل مجتمع على حدة، فإن هذا الخلل موجود على كل المستويات مع اختلاف فى النسب والأسماء والصور، أما المضمون فيكاد يكون واحداً، لأن (الإشكال) واحد، مهما تغيرت (الأشكال) حيث تستوى فى المضمون الأنظمة الجمهورية والملكية.. الدول الغنية والفقيرة.. الحكومات الفردية والديمقراطية!.

الجدول رقم (٥)

الإنفاق العام على الصحة والتعليم مقابل الدفاع عام ١٩٨٦ (بالمائة)[١]

الدولة	الصحة	التعليم	الدفاع
الأردن	٢,٧	٦,٥	١٣,٨
إيران	١,٤	٥,٥	٢٠,٠
السعودية	٤,٠	١٠,٦	٢٢,٧
سلطنة عمان	٢,٣	٥,٣	٢٧,٦
سوريا	٠,٤	٢,٩	١٤,٧
العراق	٠,٨	٣,٧	٣٢,٠
الكويت	٢,٧	٥,١	٥,٨
ليبيا	٣,٠	١٠,١	١٢,٠
مصر	١,١	٥,٤	٨,٩
اليمن	١,٢	٥,٦	٩,١

ومن تحليلنا للجدول رقم (٥) نجد أن السعودية أكثر الدول العربية إنفاقًا على خدمات الصحة والتعليم، ولكن إنفاقها الدفاعى يقترب - مع ذلك - من ضعفى نفقاتها الصحية والتعليمية، وفى المقابل نجد العراق هى الأكثر إنفاقًا على الدفاع، حيث تصل النسبة إلى ٣٢٪ من الميزانية العامة.

(١) المصدر: تقرير التنمية البشرية الذى أصدره البنك الدولى عام ١٩٩٢م.

ومن العجيب أن الخدمات الصحية والتعليمية إذا أخذت كل واحدة على حدة فلا توجد دولة عربية واحدة تنفق على أى منهما أكثر من الدفاع، فالجيش يلتهم نصيب الأسد فى كل بلد عربى، وحتى إذا جمعنا الخدمات الصحية والتعليمية فى خانة واحدة، فإن الإنفاق الدفاعى يظل متفوقًا بفارق كبير، فى كل الدول العربية، باستثناء ليبيا التى تزيد قيمة خدماتها الصحية والتعليمية عن الدفاع بنسبة ١,١٪ وهذا الفارق غير ملموس فى الواقع.

وإن الذى يثير الحزن والألم أن كل هذه الأموال التى تقتطع من الخدمات الأساسية للمواطن وتذهب للنفقات الدفاعية ظلت طيلة العقود الماضية بلا ظل من حقيقة، وبلا أثر فى الواقع، حيث ظلت الهزائم تلاحق العرب وأمام كيان دخيل وضئيل، لكنه كيان منظم ومعبأ وفاعل، وهذا يبين دور التجزئة فى هذا الأمر، وأبانت الأحداث بجلاء أن الأنظمة كانت تعد كل تلك المؤسسات الأمنية لمواجهة شعوبها، أما الجيوش فظلت تعد لمواجهة بعضها، وهنا يتقرر دور (الحرية) والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية والوحدة فى معركة العرب والمسلمين الحضارية الشاملة مع خصومهم، ومنها معارك تحرير الأراضى المحتلة وفى مقدمتها فلسطين.

ونزيد أمر الخلل فى الإنفاقات الدفاعية توضيحًا بإيراد هذه المعلومة التى وردت فى تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٣م، وهو أن تعداد الجيوش العربية وصل إلى مليونين و٢٨٦ ألف مقاتل، فى مقابل مليونين وتسعين ألف مقاتل للاتحاد الأوربى. وينفق الوطن العربى ضعف النسبة السائدة كمتوسط عالمى. ومن تحليل هذه الأرقام، يتضح - كما يقول كاتب عربى[1] أننا (أمام إنفاق عربى دفاعى أكثر.. ولكننا أيضًا أمام أمن قومى أقل).

إذن الدول العربية تنفق ضعفى المتوسط العالمى على الجيوش وربما أكثر من ذلك بالنسبة للاتحاد الأوربى، مع أن دول الاتحاد كلها قد فرغت منذ زمن بعيد من إيجاد البنية التحتية الأساسية وخاصة فى مجال الخدمات الصحية والتعليمية،

(١) هو: محمود المراغى فى عموده (أرقام) بمجلة العربى: العدد ٥٢٢، ص (٩٦ - ٩٨).

وتمتلك فى اللقابل مستعمرات وأحلامًا وأدوارًا استعمارية أخرى، وجيوشها أقل من جيوش العرب، ونسبة إنفاقها أقل من نصف نسبة العرب فى جانب الدفاع.

هذا الخلل مرتبط بالظلم الاجتماعى والفساد السياسى، حيث ينعكس القصور على الشعوب، مع وجود الخلل فى الداخل الذى يعطى نصيب الأسد من الخدمات القليلة فى الأصل لطبقات وفئات مرتبطة بالحكم دون سائر الجماهير.

ورغم هذا الإنفاق الدفاعى الضخم فى الدول العربية وبعض الدول الإسلامية، فقد أشرنا إلى انعدام الثمرة، حيث ما تزال بعض البلدان والأقاليم العربية والإسلامية تحت الاحتلال، وهذا مرتبط بآفة أخرى وهى التجزئة وانعدام الوحدة، وهو موضوع البحث القادم.

* مراجع إضافية فى موضوع الظلم الاجتماعى:

١- د. نبيل صبحى الطويل: الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين (كتاب الأمة رقم ٧).

٢- أبو الأعلى المودودى: واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم.

٣- د. ماجد عرسان الكيلانى: إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها (كتاب الأمة رقم ٢٧).

٤- شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟

٥- د. رفعت السيد العوضى: عالم إسلامى بلا فقر (كتاب الأمة رقم ٧٩).

٦- سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام.

٧- محمد الغزالى: الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٨- البهى الخولى: الثروة فى ظل الإسلام.

٩- د. يوسف القرضاوى: الحل الإسلامى فريضة وضرورة.

١٠- د. عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية.

***

المبحث الخامس

تفرق (القلوب) وتمزق (القوالب)

خامسة الأثافى التى يعانى منها عالمنا الإسلامى هى افتراقهم على التوحد، وتوحدهم على الافتراق، واذا اجتمعوا على أى مستوى فلا يتفقون على شىء قدر اتفاقهم على الاختلاف، واذا حضروا قمة من القمم فإن الاتفاق الوحيد الذى يخرجون به هو على ألا يتفقوا، وهذا ما سنستعرضه فى هذه السطور.

أولاً: ائتلاف المسلمين على الاختلاف واختلافهم على الائتلاف:

اختلافات مسلمى العصر لا تقف عند حد ولا عند مستوى، وليس لها سقف محدد، ولا تراعى أى خطوط حمراء، ففى كل المجالات توجد اختلافات ومذاهب وفرق وجماعات وتيارات، وقبائل وطوائف وبلدان وقوميات.

فعلى المستوى الطائفى ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: السنة والشيعة، وداخل كل طائفة توجد طوائف صغيرة وفرق فكرية ومذاهب فقهية، كلها تعانى من التشرذم والتفرق، وما يزال الانقسام (الخلوى) يخرج كل يوم المزيد من الفرق والمذاهب والتيارات.

وعلى المستوى السياسى انقسمت الأمة فى البداية إلى قوميات فمن القومية الطورانية إلى القومية العربية.. الفارسية... البربرية.. الكردية.. الهندية.. الزنجية ودواليك. داخل كل قومية انتقل داء الانقسام إلى مراحل أصغر، فالقومية العربية انقسمت الى اثنين وعشرين دولة وشعبًا، وداخل كل شعب ينقسم الناس بصورة أدق إلى أحزاب وجماعات ومناطق وقبائل وجهات، تحمل بذور التفكك والعصبية.

وليس العيب فى هذا التقسيم، فهو طبيعى وموجود فى كل الامم، ولكن عندما يحيق التخلف بأمة فإن هذه القوالب تتحول من وسائل للتعارف والتآلف إلى وسائل للتقاطع والتدابر، ويصبح الولاء والبراء مرتبطين بها، فالفرد يحب ويبغض فيها، وحول فلكها يدور، تاركًا الدوران حول فلك الإسلام العظيم.

ومع كر الليالى وفر الأيام تتحول كل خلية من هذه الخلايا التى يفترض أنها ضمن جسد واحد، تئن لما يئن له أى عضو أو خلية فى الجسد، إلى دائرة مستقلة تعيش فى فلكها الخاص بها ولا يهمها أمر الآخرين، ومن هنا يؤتى الجسد الإسلامى رغم ضخامته، وامتلاكه لجميع القوى والطاقات.

والأمر الأشد من ذلك أن كل خلية أو دائرة تتخندق ضد الخلية الأخرى، وينتقل الوضع من درجة الانقسام إلى درجة التآكل، وبالتالى نوفر على المستعمر والعدو الجهد والوقت والخسائر، فقد فعلنا بأنفسنا فى هذا العصر ما لم يفعله بنا الاستعمار.

وهذا الداء الوبيل صار علمًا على الجسد الإسلامى أدركه الأصدقاء والأعداء، يقول السيد جمال الدين الأفغانى: خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه - أى: العالم الإسلامى - وتحرى دوائه، فوجدت أقتل داء انقسام أهله وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعمدت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربى «المحدق بهم»[1]. ويقول الكاتب البريطانى «أنتونى نانتنغ» فى مقال له بـ «الصنداى تايمز» بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٩م: «إن مصيبة العرب الكبرى، هى فرديتهم، فأنت لو جمعت خمسة منهم فى غرفة مغلقة لخرجوا بستة أحزاب سياسية»[2].

وإذا كنا قد عرفنا دور ضعف الفاعلية وغياب الشورى والحريات والعدالة الاجتماعية فى عزائم العرب أمام إسرائيل، وخسارة المسلمين لكثير من معاركهم فى العصر، فإن للتفرق دورًا مشهودًا فى هذا الامر.

سئل أحد العرب الحُصَّف سنة ١٩٦٧م: كيف هزمتم أمام إسرائيل وأنتم عشرون دولة؟! فقال بحق: هزمنا لأننا عشرون دولة أمام دولة واحدة!![3]

---

(١) واضح الندوى: أدب الصحوة الإسلامية: ص (٢٢).

(٢) سعد جمعة: مجتمع الكراهية: ص (١٦٠).

(٣) د. القرضاوى: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى: ص (٢١١).

ولم يكن التشرذم والتفتت مسئولين فقط عن عدم انتصار المسلمين فى هذا العصر على أعدائهم فى أى معركة، بل أنهما مسئولان عن تآكل العرب والمسلمين فى معارك جانبية مع أنفسهم، أكلت الأخضر واليابس من مقدرات المسلمين، وأهلكت الحرث والنسل، ويكفى أن نعرف أن الحرب الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) لمدة ثمان سنوات وفى أقل التقديرات قتلت مليونًا ونصف المليون قتيلاً، واستهلكت أكثر من ٨٠٠ مليار دولار كمصروفات مباشرة على الحرب، غير خسائر توقف شعبين كاملين عن إدارة رحى الحياة طيلة ثمان سنوات، وقد حاول بعض المفكرين رصد ظاهرة الانقسام التى تتضح عند العرب أكثر من الشعوب الإسلامية الأخرى التى لم تعرف فى تراث ما قبل الإسلام حرب البسوس أو داحس والغبراء، لأسباب تافهة، وإن كان أصحاب هاتين الحربين أخف سوءًا من داحس والغبراء المعاصرة وحرب البسوس التى قتلت الملايين فى أنحاء العالم الإسلامى، فى حرب التآكل التى لا يعرف أحد دواعيها ولا يستطيع أحد تفسيرها أو قراءتها.

وبرز مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت كواحد من أهم الجهات التى اهتمت بموضوع الوحدة، وإن كان الاهتمام قد انصبَّ على الوحدة العربية وليس الوحدة الإسلامية عامة، ومع ذلك فقد أصدر هذا المركز الكثير من الدراسات المتعمقة حول الوحدة العربية، من كل الجوانب، وإن كان لم يدرك تمامًا دور غياب الإسلام من حياة العرب فى غياب الوحدة فيما بينهم. ومن هذه الدراسات المباشرة:

- النزاعات الأهلية العربية: العوامل الداخلية والخارجية: لمجموعة من الباحثين.
- الصراعات العربية - العربية (١٩٤٥ - ١٩٨١م)- دراسة استطلاعية: د/ أحمد يوسف أحمد.
- جميل مطرود/ على الدين هلال: النظام الإقليمى العربى: دراسة فى العلاقات السياسية العربية.
- أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربى: ندوة فكرية وأصدرت فى كتاب.
- يوميات الوحدة العربية ويتكون من أجزاء عدة، وكذلك بليوغرافيا الوحدة العربية.
- الوحدة العربية: تجاربها وتوقعاتها «ندوة فكرية».

إضافة إلى دراسات كثيرة تعرضت لوحدة العرب فى الشعر العربى، ومعوقات العمل العربى المشترك، ولدور العسكر العرب فى قضية الوحدة ومواقفهم منها، ودور الجامعة العربية فى تحقيق الوحدة، ودور اللغة العربية فى ذلك، ودور التعريب فى تحقيق الوحدة وتنسيقه فى الوطن العربى، ودراسة بعض التجارب الوحدوية العربية الناجحة مثل تجربة الإمارات العربية المتحدة، أو التى فشلت -وهى كثيرة- مثل وحدة مصر وسوريا، والتجارب الوحدوية الليبية مع كثير من الدول العربية، وكذلك دراسة اتجاهات الرأى العام العربى نحو مسألة الوحدة، إضافة إلى سلسلة مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية.

وتطرقت بعض المطبوعات العربية إلى قضية الوحدة العربية من منظورات متعددة، وحاول بعضها رصد الحروب الأهلية العربية فى ملفات لأخذ الدروس والعبر منها [١].

وندد الأدباء العرب بالتمزق العربى فى كل القضايا والمناسبات من خلال أعمالهم الأدبية، التى حاولت رصد ظاهرة التمزق العربى ابتداء بالتمزق السياسى وانتهاء بالاختلاف على «رؤية هلال رمضان»[٢].

ثانيًا: «توحُّد» الغربيين على «تفريق» المسلمين:

فى غمرة التنافس الحضارى والصراع التاريخى بين العالم الإسلامى والغربى، ظل الغرب يرقب ويدرس عوامل القوة الكامنة فى العالم الإسلامى، ليجد أن الوحدة أكبر عوامل القوة، ولذلك عمل دومًا على تفريق المسلمين حتى يوفر على نفسه الجهود والطاقات والأرواح والأموال، وقد بدأ هذا السيناريو فى بلاد الأندلس، وهذا ليس معناه أن الغرب هو المسئول الرئيسى عن تفرق المسلمين، فهم وحدهم من يتحمل المسئولية الأولى، إذ لا يتدخل الغرب إلا عندما يجد القابلية للتمزيق وافرة داخل العالم الإسلامى، ففى الأندلس كانت دول الطوائف تصل إلى عشرين دولة، وكان كل ملك يستعين بالأسبان ضد إخوانه المسلمين، حتى تم القضاء على جميع ملوك الطوائف ودوله، وطى صفحة الحضارة العربية والإسلامية فى الأندلس.

---

(١) انظر مثلاً: ملف الحروب الأهلية العربية فى مجلة الشروق - الإمارات: العددان (٣٦، ٣٧) فى ديسمبر ١٩٩٢م.

(٢) راجع قصيدة حول الخلاف على رؤية هلال رمضان: مجلة «الوعى الإسلامى» الكويت: (٢٤٨) ص(٩٠، ٩١).

وإذا لم يستطع الغربيون التدخل المباشر، فإنهم يمارسون حملة التخويف والإرجاف لمواجهة أى تنسيق فى الجهود الإسلامية، ومما يرويه التاريخ أن أحد ملوك الطوائف فى الأندلس وهو المعتمد ابن عباد دعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى الغرب لنصرة ملوك الطوائف ضد ملك قشتاله فخوَّفوه من ذلك، فقال: حرز «رعى» الجمال خير لى من حرز «الخنازير».

١- تحذير الاستعمار من الوحدة:

فى عام ١٩٠٧م، عُقد فى بريطانيا مؤتمر أوروبى ضخم ضم نخبة من السياسيين والمفكرين برئاسة وزير خارجية بريطانيا، وقرر المؤتمرون -حتى لا تنهار الحضارة الغربية- قيام كيان دخيل شرق قناة السويس؛ ليمنع توحد العرب[١]. فقد تعلم المستعمرون من عبرة التاريخ أن جناحى العالم العربى هما: مصر وبلاد الشام، وأن الاستعمار لا يمكن أن يخترق الجسد الإسلامى إذا كان هذان الجناحان متوحدين على الأقل، ولذلك جىء بإسرائيل لتقوم بهذه المهمة.

وفى يناير ١٩٣٨م رفع وزير المستعمرات البريطانى أورمسبى جو تقريراً جاء فيه: «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتقاومه، وليس الإمبراطورية وحدها، بل فرنسا أيضًا.. ولقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة»[٢].

وفى ذات الوقت تقريبًا رفع لورنس براون تقريراً حول خطورة الوحدة الإسلامية، وسجله فى كتابه «الإسلام والإرساليات» قال فيه: «إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير»[٣]. وقد حاول الاستعمار الإنجليزى امتصاص رغبات العرب والمسلمين فى الوحدة، مع قطع الطريق على إمكانية الوحدة الإسلامية بضرب عصفورين بحجر

(١) سعد جمعة: مجتمع الكراهية: ص (٨٧، ٨٨).

(٢) مجلة الأمة - قطر: المحرم ١٤٠٤ - أكتوبر ١٩٨٣م، ص (٤٨).

(٣) د. محمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى: ص (٥٢٥)، ومجتمع الكراهية: ص (٨٨، ٨٩).

واحد، أو بتحقيق الهدفين بعمل واحد، فكان المجئ بجامعة الدول العربية لتحقيق هذين الهدفين.

ويعمل الاستعمار الغربى بصورته الجديدة على منع قيام أى وحدة حتى بين قطرين من أقطار العالم الإسلامى التى اقتربت من الستين قطراً، يقول وزير الدفاع الأمريكى - الأسبق - وليام بيرى معلقًا على أخبار عن تنسيق بين إيران والعراق: لاترى الولايات أن هناك أدلة بأن العراق وإيران على وشك تشكيل حلف أو تقارب جدى أو تعاون ملموس يهدد المنطقة أو سياسة الاحتواء المزدوج بحد ذاتها، وإذا حدث ذلك فمن شأنه أن يشكل خطراً»[1].

٢- التنصير ضد الوحدة الإسلامية:

يقول القس سيمون: إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التبشير «أى: التنصير» عاملاً مهماً فى كسر شوكة هذه الحركة، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين فى ثوب جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها. إذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلاً ضد الاستعمار الأوروبى ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين فى غير مظهر المستعمر، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببًا من أسباب وجودها»[2].

٣- الشيوعية ضد وحدة المسلمين:

ورغم أن الشيوعية قد ماتت واندثرت، ولكن لأن الشيوعية ما هى إلا واحدة من سهام الحضارة الغربية التى ترمى عالمنا الإسلامى كل فترة بسهام جديدة، فقد أحببت أن أسجل موقف الشيوعية هنا ضد الوحدة الإسلامية، وخاصة أننا بعد انفراد أمريكا بالقرار فى العالم عاد بعضنا يتندم ويتحسر على سقوط الشيوعية، ناسيًا أن أسلحة الغرب مهما تعددت فإن الموت واحد بالنسبة للمسلمين. قالت مجلة «العلم والدين» السوفيتية: فإعادة النظر فى الميراث الدينى ضرورة حتميَّة

(١) مجلة قضايا دولية: العدد (٢٨٥)، ص (٥).

(٢) د. مصطفى الخالدى، د. عمرو فروخ: التبشير والاستعمار فى البلاد العربية: ص (٣٧).

لنجاح الاشتراكية، وقطع الروابط الدينية بين الشعوب واجب تفرضه حاجات النظم الاشتراكية»[١].

٤- اليهود عدو الوحدة الأول:

ولاعتبارات كثيرة، من أهمها أن اليهود أكثر البشر حقدًا على المسلمين، وأنهم غرسوا لهم دولة فى قلب أمتنا، فهم أكثر الناس تخوفًا من وحدة المسلمين، وأكثر المتآمرين ضدها بكل الوسائل والأساليب الممكنة، فى مقابل تواصيهم على ضرورة توحدهم وتكتلهم، ومواقفهم هذه كلها قائمة على دراسة عميقة للتاريخ.

ذكر دافيد بن جوريون - وهو مؤسس الدولة اليهودية وأول رئيس لحكومتها - فى الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل سنة ١٩٥٢م: «لقد جاء احتلال فلسطين من قبل يشوع بن نون فى وقت كانت القبائل فى فلسطين وعلى حدودها غارقة فى صراع مرير، وكان على اليهود أن يمضوا سنوات طويلة يصارعون هذه القوى حتى أقاموا مملكة «إسرائيل» بقيادة شاؤول وداوود». إذن لم يدخل اليهود أول مرة فلسطين قبل عشرات القرون إلا بسبب تفرق أهل فلسطين من قبل وقبائلها، فكيف دخلوا مرة ثانية إلى فلسطين فى العصر الحديث؟!

يجيب بن جوريون ذاته، فيقول فى المؤتمر الصهيونى العالمى الذى عقد أوائل الستينيات: «ألا إن إسرائيل الآن تعيش وسط أمة ذات ديانة واحدة ولغة واحدة، ولكن هذه الأمة منقسمة على نفسها، متفرقة إلى دويلات صغيرة، فيجب أن يتخذ اليهود من ذلك عبرة فيتحدوا». وبالفعل فالذين يدرسون كل الظواهر ويقتلونها بحثًا استفادوا من هذه الدروس، لكن المشكلة فى العرب الذين مازالوا ينشطون وفقًا لنظام الخلية غير آبهين بشىء، ومازال العقل الفردى عندهم طاغيًا على العقل الجماعى.

وتلح مؤامرات اليهود وأبحاثهم على القوى الكبرى بمزيد من التفتيت للوحدات القوية فى العالم الإسلامى، ابتداء بالأقرب فالأبعد، فوفقًا للعرف الصهيونى: الأقربون أولى بالتآمر والتقسيم. جاء فى مجلة: «كيفونيم - العدد (١٤) شتاء

(١) محمد موفق الغلايينى: وسائل الإعلام وأثرها فى وحدة الأمة: ص (٢٢٦).

١٩٨٢م»، التى تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية، دراسة تحت عنوان «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» تقول فيها: إن تفتيت سوريا والعراق لاحقًا إلى مناطق ذات خصوصية أثنية ودينية واحدة.. هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل فى الجهة الشرقية على المدى البعيد، ثم تخلص المجلة إلى القول: إن فى العصر النووى لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، وهذا دافع استراتيجى، فإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»[1]. وهكذا فإن بقاء ونماء «إسرائيل» فى «فناء» العرب إذ أن تمزقهم وتشرذمهم يعنى فناءهم.

وقد قام مركز «دراسات الوحدة العربية» - كما أشرنا سالفًا - بعمل دراسات غزيرة حول الوحدة العربية، ومن ذلك: سلسلة «مواقف الدول الغربية من الوحدة العربية» وتضم:

١- موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية (١٩١٩-١٩٤٥م) للدكتور على محافظة.

٢-د. على الدين هلال: أمريكا والوحدة العربية (١٩٤٥-١٩٨٢م).

٣- د. يونان لبيب رزق: موقف بريطانيا من الوحدة العربية (١٩١٩-١٩٤٥م) دراسة وثائقية.

٤- د. على محافظة: ألمانيا والوحدة العربية (١٩٤٥-١٩٩٥م).

ثالثًا: الوحدة أو الانقراض:

قيل لرجل من «عبس» ما أكثر صوابكم؟ قال: نحن ألف رجل، وفينا «حازم» واحد، ونحن نشاوره، فكأننا ألف حازم. هذه الحكاية تبين كيف أن الوحدة مع الشورى والحزم يعطيان أفضل النتائج ويكسبان الكيانات المتصفة بها فاعلية عجيبة، ولن تعود فاعلية العرب والمسلمين إلى سالف مجدها إلا إذا اتصفوا بهذه الصفات، كان لسان حال كل كيان من كياناتهم ما قاله الشاعر الأول:

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى!

(١) نافذة أبو حسنة: دعوات أمريكية وصهيونية لتقسيم العالم العربى، قضايا دولية: العدد (٣٥٢)، ص (٥).

وقيل للفيلسوف البريطاني برتداند راسل: أنت تدعو إلى الخير والسلام بين الناس، ولكن دعوتك كثيراً ما تضيع وسط صليل السيوف ودوى المدافع، فما تفسيرك لهذه الظاهرة؟ ولماذا ينتصر الشر على الخير فى كثير من الأحيان؟ فقال راسل: هناك حقيقة يجب أن نعترف بها، وهى أن الأشرار دائمًا يتّحدون ويقفون صفّاً واحداً رغم ما فى نفوسهم من كراهية لبعضهم البعض، أما دعاة الخير فهم متفرقون، وهذا سر ضعفهم!. هذه الفلسفة البسيطة العميقة فى ذات الآن لراسل تلخص قصة العرب مع «إسرائيل»، فإسرائيل تخوض الحرب طرفًا واحداً، بما يستدعى ذلك من إعداد واستعداد وتخطيط وتنظيم، أما العرب فيخوضونها أطرافًا عديدة، بما فى ذلك من تضارب فى الخطط، واختلاف فى الاستراتيجيات، وتباين فى الوسائل والأساليب.

وقد أدى اختلاف المسلمين فى هذا العصر إلى أفدح النتائج على قضاياهم وعلى حياتهم، فالشعوب الغربية من الناحية العملية كانت موحدة حتى قبل إعلان الاتحاد الأوروبى، رغم أن عمودى الوحدة -وهما ألمانيا وفرنسا- ظلا فى حرب لمدة مائتى سنة، ثم فى الحرب العالمية الثانية قتل مئات الآلاف من الشعبين على أيدى بعضهما، ويختلفان فى القومية واللغة، بل وحتى فى الطائفة التى كادت أن تتحول دينًا، بسبب عمق الخلافات بين البروتستانت- وألمانيا تنتمى إليهم- والكاثوليك -الذين تنتمى إليهم فرنسا-، لولا تحضر الدولتين وقدرتهما على تخطى التناقضات، سعيًا وراء القواسم المشتركة.

أما الشعوب العربية فهى تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة، ومصالحها مشتركة، وتاريخها واحد، وعدوها واحد، وقبل ذلك وبعده دينها واحد، ومع ذلك فإن تفتتهم أصبح مضرب الأمثال، مما ألّب عليهم العالم، وخاصة أذل البشر وأجبنهم وهم اليهود، كل ذلك لتفرقهم، ولولا أن الله تعهد بحفظ هذا الدين، ومن ثم الحضارة المرتبطة به والأمة الحاملة له، لكان العرب قد انقرضوا مثل الديناصورات!

ويحدثنا جهاد الخازن[1] بأنه دعى مرة لمناظرة إذاعية فى سانت لويس بولاية ميسورى فيقول: «كان خصمى صهيونياً لئيماً، لم يكد الحوار يبدأ حتى فاجأنى بأقوال «مختارة» للزعماء العرب فى بعضهم البعض وكلما حاولت الدفاع عن

(١) صباح الخير: ص (٢٧٧، ٢٧٨).

موقف أو مسئول بادرنى الرجل من الذاكرة برأى مهين فيه صادر عن مسئول عربى آخر، ويبدو أن الرجل ابتعد جيداً للبرنامج بحفظ أقوال العرب فى بعضهم البعض لتلطيخ سمعتهم ودحض دفاعى إلى أن ينهى المقال فيقول: فى الماضى كان للعرب جرير واحد وفرزدق واحد يتشاتمان ويفحشان ويقذعان، أما اليوم فيبدو أن كل العرب أصبحوا مثل جرير والفرزدق، فلعل صاحب كتاب «العرب فى العصر الوسيط» يتبعه بكتاب «العرب فى العصر السليط».

إذن، الوحدة العربية الإسلامية، بجانب كونها فريضة شرعية لا يتم إسلام الأمة ولا يقبل عند الله إلا بها، فهى ضرورة عملية للمحافظة على مقدرات الأمة ومكاسبها وسمعتها وأراضيها، بل ووجودها ذاته، وهذا ما وعاه علماء الأمة ومصلحوها وانتبهوا له.

كان مصطفى كامل يلخص الموقف الإسلامى من الدولة العثمانية بقوله: إن مصر من الدولة روحها، ومن الخلافة فؤادها، ولا حياة لهذا الجسم العظيم إلا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل، وإذا كانت دول أوروبا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عندما يهم المسيحية أمر، فكيف لا نتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة فى أشد البلاء، والأخطار محدقة بها من كل جانب، وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص؟! وكان الأمير شكيب أرسلان يرى أن التساهل العربى إزاء العدوان الإيطالى على ليبيا سوف يؤدى إلى مصائب أعظم مما حصل «لأن الإسلام فى نظر الأوروبيين سلسلة مرتبطة بعضها ببعض، وما وقع الإسلام فيما وقع فيه من المصائب إلا بسبب تساهل ملوكه فى بداية الأمر»[1].

وبهذا تزداد الضرورة للتوحد، لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا تواجه الوحدة إلا بالوحدة، خاصة أن الأوروبيين يعتبرون المسلمين جسداً واحداً، فإذا ضربت العراق تضررت فلسطين، وإذا جزأت إندونيسيا ضعفت كازاخستان، ولهذا فرغم الوطنية المقيتة والمسيطرة على العالم الإسلامى، ورغم التشرذم الشديد، فإن الغرب كله ومعه إسرائيل والهند، كلهم مجمعين على أن قنبلة باكستان النووية هى «قنبلة إسلامية» وقد عملت إسرائيل بواسطة «الموساد» مراراً على محاولة الوصول

(١) مجلة المقاصد- لبنان: جمادى الأولى ١٤٠٢هـ - ٣آذار ١٩٨٢م، ص (٣٢)، ص (٣٦).

إلى المفاعل النووى الباكستانى لتخريبه، لهذا الاعتبار، وكذلك يعملون مع إيران، وهكذا عملوا مع القنابل النووية التى ورثتها كازاخستان من الاتحاد السوفيتى!!

وفى خريف ١٩٣٢م كتب عبدالرحمن عزام مقالاً تحت عنوان «الوحدة العربية ضرورة للعرب وسعادة البشر» جاء فيه: «والوحدة العربية أسمى المطالب وأليق بالمهمة العالية وأجدر بمعنى العزة من مطالب الحرية المحلية.. فبغير الوحدة تبقى الأقطار المنعزلة ضعيفة لا تستطيع ضمان استقلالها بغير حلفاء أو حماة خارج الجنس العربى يتقاضون منها ثمن التحالف والحماية غاليًا»[١] وكل هذه المبررات التى تحدَّث عنها العلماء منذ القرن التاسع عشر مازالت موجودة، بل إن بعضها أصبح أكثر جلاء، فنتيجة انعدام الوحدة وانعدام الشعور بالأمان لجأت كثير من الدول وخاصة الصغيرة منها فى العالم الإسلامى إلى إقامة معاهدات الدفاع المشترك مع دول كبرى، مقابل ارتهان مقدراتها بل حاضرها ومستقبلها، وخاصة بعد أحداث الخليج، وبصورة أخص بعد أحداث أيلول ٢٠٠١م وإسقاط النظام العراقى (عام٢٠٠٣م).

وفى محاضرة بعمان للسيد هانى الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، تحدث عن الشعور بالضرورة القصوى لتوحد العرب قبل أن يسود العصر الإسرائيلى، فقال: «إن المنطقة ليست مقبلة على استقرار، بل مقبلة على تفجيرات ومجابهات، إذا بقينا كفلسطينيين ننظر فلسطينياً فقط، وكأردنيين أردنيّاً فقط، وكسوريين سورياً فقط.. فحينئذ سوف يأخذ كل واحد منا دوره فى التحطم والتقسيم، وسوف يبدأ عصر إسرائيل. إذا كنا نبحث عن المستقبل يجب أن نعود من جديد لكى نقرر أن العدو ليس عربياً.. فالعدو أولاً وثانيًا وثالثًا هو إسرائيل، والجهة التى يجب أن نوجه إليها النيران، ونصفى معها الحسابات هى هناك وليس فى هذه الجبهة»[٢].

بهذا الوعى تستطيع الأمة أن تتجاوز التجزئة، وأن تدافع عن وجودها، وتعبر إلى شاطئ الوحدة وواحة الحرية والإخاء وبحبوحة العدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادى، ومن ثم تستطيع أن تستعيد دورها الحضارى. إنَّ استيعاب «الآخر»

(١) مجلة العربى: العدد ٢٥٤، ص (٥٥).

(٢) فلسطين المسلمة: يناير ١٩٩٣م، ص (٣٣).

سواء كان عرقياً أو طائفياً أو مذهبياً أو فكرياً أو سياسياً، هو بداية الإقلاع الحضارى للأمة، واستعادة الدور الريادى، واستلام المبادرة من جديد، حيث الخيرية الدعوية والوسطية الفكرية، ومن هنا يكون المسلمون جديرين بتكاليف وثمار الرقى الحضارى، كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

*** مراجع إضافية عن التجزئة والوحدة:**

١- الشيخ محمد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية.

٢- د. سلامة المغير: يا مسلمى العالم اتحدوا وواجهوا أعداءكم.

٣- د. عبدالفتاح عبدالحميد المحامى: يا مسلمى العالم اتحدوا وواجهوا عدوكم.

٤- منير شفيق: فى الوحدة العربية والتجزئة.

٥- د. أحمد طربين: التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً.

٦- عونى عبد المحسن فرسخ: مخطط التفتيت: التحدى الإمبريالى الصهيونى المعاصر.

٧- نازك الملائكة: التجزئة فى المجتمع العربى.

٨- الدكتور يوسف القرضاوى: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

٩- د. محمود عبدالفضيل: الفكر الاقتصادى العربى وقضايا التحرر والتنمية والوحدة.

١٠- د. عبدالمنعم سعيد: العرب ودول الجوار الجغرافى.

١١- د. زكريا عبدالرزاق المصرى: وحدة الأمة الإسلامية على أسس صحيحة وواقعية.

***

المبحث السادس

المخرج من معضلات (العالم الإسلامى)

ليست وظيفة هذه الدراسة البحث عن مخرج لمعضلات العالم الإسلامى، فهذه وظيفة كل علماء الاستراتيجيات والشريعة والفكر والسياسة والاقتصاد والفلسفة والاجتماع، وهم موجودون وقد قام بعضهم بدوره، وهناك عشرات الكتب والدراسات التى ساهمت فى تشخيص علل العالم الإسلامى والبحث عن أدوية فى كافة مجالات الحياة، كل من جهة تخصصه.

وسنقوم هنا بوضع عناوين ولافتات تشير إلى المخرج، لتساعد القارئ الذى يريد البحث عن حل ومخرج، وخاصة أن البعض قد يصاب بنوع من الإحباط، بعد أن يقرأ المعضلات الخمس الكبرى فى العالم الإسلامى، ويشاهد فى المقابل غطرسة القوى الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فيصل إلى اعتقاد بأننا على مشارف (نهاية التاريخ) كما قال فرانسيس فوكوياما، ولكن من زاوية اليأس والقنوط، وليس من زاوية الكاتب الأمريكى (فوكوياما) التى نظر منها إلى الأحداث، وهى زاوية الغطرسة والعجب، فإن التاريخ لا ينتهى إلا بنهاية الحياة ذاتها ، فالحياة هى التاريخ، والتاريخ مجموعة من التنافسات والصراعات التى تأخذ أشكالاً عدة، ومنها الصراع العسكرى والصراع السياسى والثقافى، وكلها تندرج تحت سُنَّة (المدافعة) التى أودعها الله فى خلقه، ولولاها لفسدت الحياة وتعفنت، ولا تتحقق سُنَّة (المدافعة) بالصورة الكاملة إلا بتحقق سُنَّة أخرى، وهى سُنَّة (المداولة) وكلا السُّنَّتين ذكرتا فى القرآن واتفق عليها علماء الاجتماع، قال تعالى فى الأولى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال فى الثانية: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إذن، ما هى العناوين البارزة فى تفسير هذه المعضلات الكبرى التى اجتمعت على الأمة فى هذه الظروف الصعبة التى يتهدد فيها (حاضر المسلمين) بالكلية؟

أولاً: منابع المعضلات فى أوساط الشعوب الإسلامية:

لقد ظل المسلمون منذ أكثر من قرن يتساءلون عن أسباب وعوامل هذا الواقع المخزى، ويبحثون عن أدوية من هنا أوهناك، فالبعض استورد الليبرالية الفردية، والبعض أخذ بالاشتراكية الجماعية، فتقلب أولئك يمينًا وتقلب هؤلاء يسارًا، غرَّب أولئك وشرَّق هؤلاء، لكن الوضع لم يزدد إلاسوءًا. ورأت بعض التيارات أن لاحل جذرياً لأزمات الأمة إلا بالانقلاب على الحكومات القائمة، فتغيرت الأنظمة وتبدلت الحكومات، لكن التغيير ظل شكلياً، وفى بعض الحالات ساءت الأوضاع بأشد مما كانت عليه.

ولما انفردت أمريكا بقيادة العالم، ظل بعض المسلمين يعلق الآمال على هذا الحزب أو ذلك، ويرى أن الخلاص على يدى ذلك الزعيم أوالمسئول، كأنه(المهدى المنتظر) أو (المسيح المخلِّص)، وراهن هؤلاء وغيرهم على التغيير الديمقراطى، ولكن الديمقراطية فى غالب العالم الإسلامى لم تأت بجديد، فقد تغيرت الأغنية ولم يتغير المغنى، وبالتالى أعطت هذه الديمقراطية شرعية دستورية للحاكم المستبد، وساعدت فى تجميل نظامه، وإطالة مدة بقائه، فلماذا كل هذا؟ ولماذا لم يتغير الحال؟ ومتى سيتم التغيير؟

ما حدث فى عالمنا الإسلامى خلال هذا القرن ينبئنا عن مدى التخلف الرهيب الذى وصلت إليه الأمة، فالتشخيص الذى يأتى من المثقفين والعلماء والمفكرين، يفترض أنه يأتى من أشخاص أصحاء أسوياء، لكن مرض التخلف الشامل، وهو مثل الأوبئة التى تقتل حتى الأطباء، أصاب هؤلاء المثقفين والمفكرين، ولذلك فإن هذه التشخيصات التى تبحث عن العلاج من الخارج ، إنما أصاب أصحابها ما أصاب عامة الناس، وربما كانت إصابة بعضهم أشد.

لقد تعود مسلموا هذا العصر على مواجهة المأزق والمشاكل بالعقلية التبريرية الإسقاطية التى تهرب من الحقيقة إلى ظلها، ومن الواقع إلى صداه، ومن المسئول الحقيقى الفاعل إلى الشاهد الذى لم ير شيئًا. . فتارة نُحمل الشيطان المسئولية فيما أصابنا على المستويات الشخصية، ومرة نتهم الكفار ونلعن الاستعمار ونُحمل الصهيونية المسئولية كافة.

وعلى مستوى الحاكم والمحكوم يتبادل طرفا المجتمعات الإسلامية المسئولية، فالجماهير تحمل الحكام كل المسئولية، معتقدة أنها بخير لولا تقصير أو تآمر الحكام، والحكام يردون بالمثل وإن كان بوسائل ولغات أخرى. أما على مستوى الحركات والتيارات والفرق والجماعات، فالكل يتهم غيره بأنه السبب فيما حاق بالأمة من ويلات، ويخرج نفسه من المسئولية كما تخرج الشعرة من العجين!

إذن، هذا التراشق فى التهم بقدر ما يضيع من جهود وكفاءات وأوقات وأموال، وبقدر ما يجرح القلوب وينكأ النفوس ويكلم الضمائر، ويورث الأحقاد، فإنه فى الوقت ذاته يمارس دور التضليل للأمة عن أعدائها وعن عللها، وعن مكامن الخلل فيها.

إن الأمة كلها معلولة وسقيمة، وبالتالى يصبح الجميع مسئولين عن مآلاتها، كل بحسب طاقاته وقدراته ومواقعه، ولكن مصدر الداء يكمن فيها، وليس آتيًا من خارجها، وبالتالى فينبغى أن تحاسب نفسها لا أحد غيرها.

صحيح أن هناك احتلال لأقاليم إسلامية واستعمار لبلدان أخرى، ولكن (الاستعمار) لا يمكن أن يستعمر بلدًا ما لم تكن متوافرة فيه (القابلية للاستعمار)، ولا يمكن لأمة أن تسرق مقدرات أمة ما لم تكن (القابلية للسلب) موجودة عندها، بل (إن المال السائب هو الذى يعلم الناس السرقة)، فالتسيب هو الخطوة الأولى للسلب، وليس اللصوصية.

وإن تعجب فعجب أن تكون الأمة التى تحاول الهروب من الحقيقة بهذه الطريقة، هى أمة المسلمين، التى ربى القرآن الكريم نبيها وسلفها الصالحين على منهج الالتفات إلى الذات ومحاسبة الداخل فى كل مشكلة يتعرضون لها.

فى يوم (أحد) كانت فى صفوف المسلمين أرقام واهنة، وهى تنتمى إلى مجتمع الصحابة، وما الوهن إلا (حب الدنيا وكراهية الموت) كما عرَّفه ﷺ، وهو داء الأمة من قبل ومن بعد، فقد كان فى صفوف الصحابة من يتطلع إلى الدنيا، حتى أن هؤلاء بسبب هذا التطلع نسوا أمر رسول الله ﷺ بعدم مغادرة الجبل، ولو رأوا الطير تتخطف المسلمين، فما كاد المشركون يفرون حتى شدتهم الرغبة فى جمع

الغنائم، فنزلوا من الجبل إلى السفح، وجاء جيش المشركين من الخلف تحت قيادة العسكرى العبقرى خالد بن الوليد، وحدثت تلك المواجع فى صفوف المسلمين، حيث جرح رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وسقط فى حفرة صنعها أحد المشركين، واستشهد سبعون من خيرة الصحابة، وعلى رأسهم سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب، وحامل اللواء مصعب بن عمير أول معلم وأول سفير فى الإسلام. كل ذلك لم يدفع الصحابة لتحميل عوامل خارجية المسئولية، فلم يتحدث أحد عن دور عبقرية خالد بن الوليد فى هذه الهزيمة، ولا حتى عن ثلث الجيش المسلم الذى عاد به رأس النفاق عبد الله بن أبى، لكن ضخامة الحدث وهول الفاجعة دفع الصحابة للاستغراب والتساؤل: (أنى هذا) أى: كيف؟ ومن أين؟

هذا الثمن الكبير والضريبة الفادحة يعتبرهما العقلاء بسيطة مقابل المنهج الذى استفادته الأمة من خلال هذا الحدث، الذى بين لهم القرآن الدروس والعبر المستفادة منه، بحيث تكون الحصيلة النهائية بناء منهج علمى يقوم دومًا بمحاسبة الذات وإصلاحها بدلاً من اللوم والتبرير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦]. وعزز القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الدرس المنهجى الكبير بعشرات الآيات والأحاديث التى تبين أن مكمن الخلل والعلل هو (الذات)، وأن محل التغيير والتطوير هو (النفس): ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إذن، فإن المعضلات الكبرى التى يعانيها العالم الإسلامى اليوم نابعة من ذاته، من تغييره، فقد تغير علمه جهلاً، وتغيرت حركته ركودًا وكسلاً، وتغير توكله المرتبط بمنهج الأسباب ومنظومة النواميس، إلى تواكل وأمانى وتسويفات، وتغير تخطيطه الدقيق والقائم على معطيات العالم والمعرفة وتوجيهات الوحى، وأوامره، إلى ارتجال وعشوائية، وهكذا، بقليل من التفصيل نستعرض النقاط التالية:

١- فى معضلة التخلف العلمى والحياتى وانعدام اللافعالية يتضح لنا أن الإشكال الأساسى فى الشعوب.. فى الجماهير.. فى النفوس.. حيث ظل التخلف يلاحق المسلمين فى كل القارات، حتى فى أوروبا، فإن أوروبا هى قارة التقدم والعلم والتكنولوجيا والرفاه، لكن أفقر شعب فيها هو شعب ألبانيا المسلم، فهو أكثر الشعوب الأوروبية تخلفًا بكل المعايير، وهو الأقل إنتاجًا وفاعلية، والأكثر أميَّة وجهلاً، والأقل احترامًا لحقوق الإنسان، مع أنه يعيش فى ذات الظروف التى تعيش فيها الشعوب المجاورة له.

وعندما جربت أنظمة العالم الإسلامى بعض النظريات والأنظمة السياسية والاقتصادية، لم يتغير الوضع، فلا فرق فى كل مفردات التقدم والتحضر بين المغرب والجزائر مع أن الأولى مملكة والثانية جمهورية، فأين هما من دولتين متجاورتين فى أوروبا إحداهما مملكة وهى بريطانيا والأخرى جمهورية وهى فرنسا؟!

وعندما نجيل النظر فى بلدان العالم الإسلامى بنفس هذه الطريقة لنقارن بين الحكومات العسكرية والمدنية، أو الحكومات الاستبدادية والديمقراطية، سنجد أن المضمون واحد، وأن الفروق بسيطة، فالتخلف يجثم على صدور الجميع، والخفة السياسية وضعف الفاعلية هى ديدن الكل.. لماذا؟ لأن الخلل يكمن فى الإنسان ذاته أولاً، وليس فى القوالب والأنظمة والأشياء فحسب، ولذلك لابد من تغيير الإنسان، إذا أريد التغيير الحقيقى.

٢- وفى معضلة التبعية وانعدام الاستقلال بصورته الشاملة، فإن هذه الآفة أو العاهة مرتبطة أيضًا بجوهر الإنسان، فالأمر ليس مرتبطًا بأنظمة ربطت عجلة بلدانها بالغرب، بدليل أن هناك بلدان فيها أنظمة شديدة العداء للغرب، لدرجة ارتكاب الكثير من الحماقات التى ساهمت فى تشديد الضغوط عليها وعلى شعوبها، مثل أنظمة صدام حسين وآية الله الخمينى، وحافظ الأسد، وعبد الناصر، والقذافى، ومع ذلك فإن هذه الدول لم تغادر مربعات التبعية، ولم تنعم شعوبها بخيرات الاستقلال والتميز، لأن هذا الجنوح نحو مناهضة الغرب لم يكن جزءًا من مخطط حضارى متكامل، يقوم عليه عموم الشعب، فيعبر عن تطلعاته،

ويجسد آلامه وآماله، ويشعر أنه حياته فيدافع عنه بصدق وقوة كما يدافع عن ذاته ونفسه، ثم كيف يدعى الاستقلال من لا يملك (رغيف الخبز) ولا (حبة الدواء) ولا السلع الصناعية الأساسية التى تيسر الحياة للناس؟

إن منظومة التبعية، تمثل سلسلة من الأبنية المتداخلة والمتراكبة بطريقة معقدة، لكن الواضح أنها تقوم على كاهل الفرد، فإذا كانت العلاقة داخل إطار الأسرة تقوم على تابعية الأفراد لرب الأسرة، بلا مشاركة ولا قناعة ولا حوار، فإن المجتمع الصغير الذى يريد أن يأمر فيطاع بدون مناقشة أو تظلم، فإن الأفراد لن يجدوا غضاضة فى اتباع وطاعة ذلك المسئول أو الشيخ، وهؤلاء المسئولون المحليون أو المشايخ والوجهاء،بنفس القدر الذى يحبون أن يتبعهم الناس، سيحملون إمكانية الطاعة المطلقة للزعيم أو القائد أو الرئيس، وأولئك الرؤساء الذين خرجوا من هذا المجتمع المضمخ بالطاعة والمتخم بمفردات وثقافة التبعية، وفى ظل انعدام المعارضة السياسية وقوة التدخل الخارجى، فإنهم سيلجأون لتتبيع بلدانهم للخارج، وخاصة عندما يعرفون أن هذا الأمر جزء من ضريبة المحافظة على سلطاتهم وكراسيهم.

وهكذا فإن كل من يحمل استعدادات الظلم، فيظلم إن استطاع، فإنه بنفس القدر سيحمل الاستعداد لأن يقبل الظلم ولأن يميل إلى الذل والاستكانة إذا كان الأمر متعلقًا بمن هو فوقه، وخاصة إذا كان يملك التصرف فى مصيره، وبالتالى فإن كل فرد فى أبنية المجتمع يصبح تابعاً ومتبوعاً، ماعدا الطرفين البعيدين، الطرف الذى يمسك بأول حبل التبعية وهو الفرد العادى فى قعر المجتمع، والطرف الذى يقف على قمة هرم التبعية، وهو فى المحصلة النهائية الاستعمار أو الآخر الذى يتربص بهؤلاء من وراء البحار.

إذًا، فإن البداية فى التخلص من معضلة التبعية، هى تغيير الفرد ذاته الذى يشكل أول لبنة فى جدار أول وحدة من وحدات المجتمع وهى الأسرة (حتى يغيروا ما بأنفسهم).

٣- وفى معضلة الاستبداد وقمع الحريات واستلاب الحقوق، لابد أن يحدث مثل هذا تمامًا، وخاصة أن هناك علاقة وثيقة بين التبعية والعبودية، وكذلك بين الحرية والاستقلال، فإذا لم يكن المواطن الذى يقف فى أسفل سلم المجتمع، ويمثل حجر الأساس فى هرم المجتمع، إذا لم يكن حراً، فلن يكون ذلك المجتمع حراً، وبالتالى لن تكون الدولة حرة، وبالمناسبة أتذكر مقولة للفيلسوف والأديب الفرنسى (فولتير) ذات صلة وثيقة بهذا الأمر، حيث يقول: (لا وجود لوطن حر إلا بمواطنين أحرار)!

٤- وفى معضلة الظلم الاجتماعى وسلب الحقوق الاجتماعية للضعفاء وعامة الناس، تبدأ العدالة الاجتماعية من نفوس الأفراد، فالذى يقبل أن يكون ظالمًا لمن هو دونه سيقبل بنفس القدر أن يُظلم ممن هو فوقه، والذى يصادر حق جاره أو قريبة -ولو كان بسيطًا- لن يقاوم المسئول الذى فوقه إذا ظلمه واستلب حقه واغتصب ملكه، وبالتالى فإن أول العدالة الاجتماعية فى دولته وأمته، وخاصة فى المنظور الحضارى البعيد المدى، هو المواطن ذاته، فهو اللبنة الأولى فى صرح المجتمع، وهو الذى يعطى هذا المجتمع هويته وشكله ولونه، فإما أن يكون مجتمعًا معلولاً هزيلاً، وإما أن يكون مجتمعًا سوياً قوياً.

إذن، تغيير الظلم الاجتماعى القائم فى العالم الإسلامى لن تجدى فيه الشيوعية، كانت روسية أو صينية، ولن تقضى عليه برامج الإصلاح المدعمة بمنح الضمان الاجتماعى لكن الذى سيقضى عليه هو انتفاضة الناس أنفسهم عليهم، فيبدأ كل واحد بنفسه، بحيث يعرف حقوقه فيأخذها، ويعرف حدوده فيلزمها، وعندما يصل كل فرد إلى هذه القناعة، ويمتلك الإرادة التى تحول بينه وبين اغتصاب حقوق الناس، ولو كان فى المنصب أو المكانة التى تمكنه من ذلك، وبنفس القدر يرفض التنازل عن حقه إلا بطيب من نفسه، عندها فإن وضع العالم الإسلامى سيكون قد انقلب إلى الأفضل بمقدار ١٨٠ درجة!

٥- وفى معضلة التمزق الفكرى والسياسى، فإن الفرد هو الذى يصنع الدوائر الضيقة، بدورانه حولها وتعصبه لها، سواء كانت هذه الدائرة القبيلة، أو المنطقة أو المذاهب أو الطائفة أو العرق أو الوطن. والذى بنى هذه الشراذم، هو الذى يستطيع

بدون سلطة الدولة وبكامل إرادته، أن يغير هذا الوضع، حيث يتعامل مع كل هذه الدوائر كوسائل وليس كغايات، وبالتالى يدرك أين يقف فى علاقة الود مع أى دائرة منها، ويصبح دورانه الغائى مع دائرة الإسلام الواسعة، التى تستوعب كل هذه الدوائر بالترتيب ما لم تكن عصبية جاهلية أو إثمًا. عندها فإن هذه الدوائر ستتحول من أدوات (للتآكل)، كما فى واقع العالم الإسلامى اليوم، إلى أدوات (للتكامل)، وهذا كله لا يأتى إلا بتغير الفرد نفسه، وترفعه عن العصبيات الصغيرة، والدوائر الضيقة، إلى الاهتمام الكبير بدائرة الإسلام الواسعة التى تتطلع لإيجاد الكيان الدولى للمسلمين، الكيان الذى يرد عنهم غائلات الأمم الطامعة وغدر الشعوب الطامحة، وهذا الحدث الكبير والتغير الكونى المذهل يبدأ بخطوة يقطعها فرد فى قاع المجتمع، ولو تحول هذا الفرد إلى (ظاهرة) لتغير الحال بكامله، وربما كان هذا هو المقصود بمقولة الأستاذ حسن الهضيبى الشهيرة، حينما قال لأتباعه: (أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم فى أرضكم)!

ثانيًا: الإسلام هو داعية الخروج من التيه الحضارى:

عندما رفض بنوا إسرائيل دعوة موسى إياهم لدخول (الأرض المقدسة) التى كتب الله لهم، عاقبهم الله بالتيه لمدة أربعين عامًا. وفى العصر الحديث يبدو أن المسلمين رفضوا دعوة القرآن الكريم إياهم للدخول الكلى والشمولى فى هذا الدين، فعاقبهم الله بالتيه الحضارى، ولأن هذا التيه مرتبط بالحضارة، والحضارة مرتبطة بدورها بالسنن والنواميس والأسباب، فإن التيه غير محدد الزمن، فيمكن أن يطول أو يقصر، حسب موقف المسلمين من دينهم قراءة وفهمًا وتنزيلاً وعملاً.

لقد أصبح المسلمون اليوم ينطبق عليهم قول الشاعر الذى قال:

صفر الوجوه عليهمو خلع المذلة بادية

وتغيير وضع أى أمة من سيئ إلى حسن أو العكس، مرتبط بالتغيير النفسى الاجتماعى، وهذا الأمر جزء من سنن الله الاجتماعية التى لا تتغير ولا تتبدل، فالإسلام إذن متفق فى هذا الأمر مع المناهج الاجتماعية التى توصلت إليها العلوم الوضعية فى قضية التغيير، العلوم التى تسببت فى وجود مدنيات وحضارات ضخمة فى عدد من أمم العالم المتقدم، وهذا أول موجب من موجبات الثقة بأن فى الإسلام المخرج من التيه الحضارى.

وعندما نقرأ الإسلام سنجده منهجًا لإعمار الحياة وتفعيل دورالإنسان بحيث يصبح خليفة الله فى أرضه، يستفيد من كنوز الأرض وسنن الإعمار فى القيام بوظيفة الاستخلاف المتضمنة استعمار الأرض، وهذا هو جوهر الدين، وفى هذه السطور القليلة سنتذكر بعض العناوين العريضة التى تبين كيف يمكن لهذا الدين الأخذ بيد مسلم هذا العصر فى مواجهة التحديات والقضاء على خماسية التخلف والضعف والذل والفقر والفرقة:

١- السبيل الوحيد للتحرر من التخلف والهزل الحضارى:

معلوم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يمتلك كتابًا مقدسًا لم تَطُلْه غائلة التحريف، وتتولى كثير من آياته بناء منهج علمى لعمارة الأرض، وتوفير الطيبات للناس للتمتع بها، معتبرًا كل ذلك عبادة يؤجر عليها الإنسان أكثر مما يؤجر على أداء الشعائر التعبدية.

إن أول آية فى القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ وطلب العلم ليس مستحبًا أو مفروضًا على طبقة من الناس، لكنه فرض عين فى أمهات مسائل الدين «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، إضافة إلى مئات الآيات التى تحث على التدبر والتفكر والنظر وإعمال العقل والاستفادة من آيات الله الكونية والنفسية والاجتماعية فى عمارة الأرض وخدمة الإنسان.

والإسلام يهتم بالوقت أيما اهتمام، ويجعل العبث به عبثًا بذات الإنسان، وقتله قتلاً للإنسان، الذى حرمه الله حتى جعله أشد حرمة من أطهر مسجد فى الأرض، وهو بيت الله الحرام! ويمكن فى هذه المفردة فقط مراجعة كتاب «الوقت فى حياة المسلم» للدكتور القرضاوى ففيه ثراء وغناء.

وفى مجال الحث على العمل والإنتاج، والعمل بالأسباب مهما تكن النتائج، نجد حديثًا للنبى ﷺ لا يمكن أن يخطر على بال رواد العمل والاقتصاد ذواتهم، حيث يقول ﷺ: **«إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»**. فلمن يغرسها وقد قامت الساعة، وهى لا تثمر إلا بعد بضع سنوات؟ . . . إنه حث على العمل المتواصل، بعيدًا عن الكسل واليأس

والإحباط، وبعيداً عن المعاذير والتبرير، وهذا كله عبادة يؤجر الإنسان عليها إن قام بها، ويؤزر إن فرط فيها.

وبلغ من حث الإسلام على العمل أنه لم يشرع يومًا فى الأسبوع للراحة، كما هو الحال عند كل الديانات والحضارات بما فيها الحضارة الليبرالية القائمة فى الغرب اليوم، والتى تعبد المادة والإنتاج، لكن الإسلام الذى ميز الجمعة بشعيرة تعبدية خاصة لم يحبذ للمسلمين الانقطاع عن العمل، فضلاً عن تحريمه، كما فعلت اليهود بالسبت، بل يفترض أن منادى الصلاة سينادى والناس فى حال حركة وبيع وشراء، فينبغى أن يتوقفوا عن عبادة (العمل) لينطلقوا إلى عبادة (الصلاة)، فلكل وقت عبادته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ثم إذا قضيت عبادة الصلاة فإن المسلمين يعودون إلى العبادة الأخرى التى تستغرق معظم الوقت فى اليوم وهى عبادة العمل ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

ومع أن الإسلام يوفر للمسلمين كل دوافع التقدم والإنتاج ومقدماته، فإنه يشرع لهم الأخذ من الآخرين والاستفادة مما عندهم فى هذا المجال، ثم أنه لا يجعل ذلك مباحًا فحسب وإنما واجبًا إذا اقتضت الضرورة ذلك. وهذا مستخلص من الحديث الشريف الذى يقول فيه ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

٢- الطريق الأكيد لتحقيق الاستقلال الشامل:

الناظر إلى مبادئ الإسلام وقيمه العملية والخلقية يجد أنها تحث على الاستقلال والتميز، وهو يجعل بناء أوجه الحياة المختلفة فرائض كفائية، فإذا وجد تخصص علمى أو عملى (مهنى) لا يوجد فيه من يلبى حاجات المسلمين فإن الأمة كلها آثمة، وهذا هو الطريق إلى تحقيق الاستقلال الشامل، فى الجوانب الثقافية والإعلامية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وخاصة أن الإسلام دين شامل له أصول وقيم فى كل مجال من مجالات الحياة كلها. والقيام بكل هذه الأعمال، والتنقل فى ميادين الحياة كلها، وفقًا لمنهج الإسلام هو العبادة الحقيقية الكاملة التى تؤهل الإنسان لدخول الجنة.

إذًا فإن الطريق إلى إرضاء الله فى (الآخرة) يمر عبر إرضاء الله فى (الدنيا) والوصول إلى (جنة السماء) لابد أن يمر بـ (جنة الأرض) وهذا هو الذى يحقق الاستقلال الكامل عن كل مخلوق وكل كيان.

٣- الضمانة الكبرى لتحقيق الاستقرار السياسى وتقديس حريات الناس وحقوقهم:

الإسلام يجعل العبودية الخالصة لله فى التحرر من كل المخلوقات، وكلما كان الإنسان أكثر حرية وأبعد عن إمكانية استعباد الآخرين له، وكلما كان أكثر قوة فى الاعتماد على الذات والاستغناء عن الأشخاص والأشياء، كلما كانت عبوديته أخلص لله.

وبهذا فإن الإنسان دعوة تحررية شاملة، ولا قداسة فى الحياة كلها إلا للإنسان، فهو المخلوق المركزى فى الأرض، وكل المخلوقات الأخرى إنما هى مسخرة له، ووسائل لخدمته، ولا يجوز أن تتحول الوسائل إلى غايات أو الغاية إلى وسيلة.

ولضمان تحقق هذا الأمر بث الإسلام ثقافة النصيحة للعامة والخاصة، للصغار والكبار، للحكام والمحكومين، وأوجد فكرة الخروج على الحاكم الظالم، وأعلى من هذا الأمر، فقال ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**» وتوضحت قيم الإسلام السياسية فى النموذج الراشدى الأول، حيث إن الحاكم لا يتميز عن المحكومين بشىء سوى أنه أكثرهم أعباء فى الدنيا، وسيكون (مسئولاً) أمام الله فى الآخرة عن كل مواطن.

وحرم الإسلام انتهاك أساسيات الإنسان والتى أطلق عليها العلماء «الضرورات الخمس»، وهى: الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض. واعتبر أن من يقتل إنسانًا واحدًا فكأنما قتل الناس جميعًا. وأعلى من شأن حقوق الناس حتى قدمها على حقه فيما سوى الشرك. فإن حقوقه قد يغفرها أما حقوق الناس فلا تسقط حتى عن الشهيد الذى أعطاه الله امتيازات كثيرة، من ضمنها أنه فى أول قطرة من دمه تسقط عنه كل ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر، مادامت من حقوق الله فيما سوى الشرك، أما حقوق الناس (مثل الدَّين) فلا تسقط، كما ورد فى أحاديث صحيحة عنه ﷺ، وجعل الإسلام التوبة فى حقوق الله يكفى فيها الندم

والاستغفار والعزم على عدم العودة، ومن ثم يغفر الله كل الذنوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] أما حقوق الناس فلا تكفى التوبة ما لم تُرد الحقوق إلى أصحابها، إلا إذا استسمحهم وسمحوا بطيب نفس منهم.

ويحث الإسلام على اختيار الحاكم وصناعة القرار بالتشاور مع أهل الفهم والعلم من المسلمين، ممن أطلق عليهم الفكر السياسى الإسلامى (أهل الحل والعقد) وجعل ذلك واجبًا ومن ثم لا يكتسب الحاكم شرعيته، ولا تكتسب قراراته المرتبطة بحياة الناس أى شرعية إلا إذا نالت رضاهم، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعمل الإسلام على انتزاع القابلية للاستعباد والاستكانة، بتحرير المسلم من مسببات ذلك، من خلال بناء عقيدة متينة تؤمن يقينًا بأن الأجل والرزق بيد الله وحده دون أحد من البشر ولو اجتمعوا. إذن الاستقرار السياسى مع التمتع بالحريات والحقوق الإنسانية هى بيد الإنسان نفسه بالدرجة الأولى.

٤- الأقدر على توفير العدل الاجتماعى:

الإسلام يقرر ابتداء مبدأ المساواة فى الأصل الإنسانى، ولا يقر التفاضل بين الطبقات والألوان والأجناس، ويجعل للبشر قداسة، ولحاجاتهم حرمة، دون النظر إلى ماهيتهم .

ويحرم الإسلام التميز الطبقى والتفاضل الفئوى، ويتشدد فى قضية الشعور القلبى بالتميز عن الناس، حيث يحرم التكبر ويتوعد صاحبه بالحشر على هيئة الذر يوم القيامة حيث يطأ الناس كلهم المتكبرين، جزاءً وفاقًا، فقد كانوا ينظرون إلى الناس من عل كأنهم حشرات، فيصبح مصيرهم مثلما قدموا فى دنياهم.

يرفض الإسلام العصبيات المختلفة ويقوم بتجفيف منابعها، ويحث على حسن الأخلاق وصلة الأرحام ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، إضافة إلى تقريره عددًا من الإجراءات التى تحافظ على الانسجام بين فئات المجتمع وعدم انتصاب

الفجوات بينها، ويأتى على رأس هذه الإجراءات الزكاة والصدقات والكفارات والتعاون على البر والتقوى.

ويتفوق الإسلام بربط الموقف من الفقراء والمساكين بالعقيدة، وخاصة الإيمان بالله وباليوم الآخر مثل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣] فالمكذب بالدين الذى يعجِّب الله رسوله منه، ليس هو المنكر لله أو الملحد، لكنه الذى يدفع اليتيم بقوة ولا يحث على إطعام الفقراء والمحتاجين.

٥- القادر الوحيد على تحقيق الوحدة:

عندما نقرأ تاريخ العرب قبل الإسلام نجد أنهم كانوا يعيشون فى (قمقم) ضيق وفقير اسمه «الجزيرة العربية» ومع ذلك الضيق فى المساحة والفقر الشديد فى الموادر، ومع أنهم أقل عددًا من الأمم الأخرى كالفرس والروم والهنود والصينيين، إلا أنهم كانوا يعيشون دومًا فى قبائل متنافرة، ويخوضون الحروب لأتفه الأسباب، ووصل بهم الشقاق إلى حد عدم اتفاق القبائل على وثن واحد، فقد تجسد حسهم الانفصالى فى اختيار كل قبيلة لصنم خاص بها، حتى أن الكعبة صبيحة يوم فتح مكة كانت تكتظ بثلاثمائة وستين صنمًا، هى آلهة كل قبائل العرب... فما جمع العرب تحت راية واحدة بعد أن كانوا بكل هذا التفتت والتمزق؟

إنه الإسلام، والإسلام وحده القادر اليوم على توحيد العرب والمسلمين ويضم العالم الإسلامى كثيرًا من الشعوب التى كانت ذات حضارة عريقة مثل الفرس والهنود والأتراك وغيرهم وهؤلاء لا يمكن أن ينقادوا لأحد إلا إذا كان تحت راية الإسلام. يقول أبوالحسن بنى صدر أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية بعد ثورة الخمينى:

«لو كانت العروبة هى الهدف الأول لما جاء الرسول ﷺ بالإسلام... الشعب العربى لم يتوحد فى السابق ولن يتوحد على أساس المبادئ الوطنية والقومية المستوردة من الغرب.. هوية الشعب العربى هوية ثقافية، لذا عليه أن يبحث عن وحدته فى ثقافته هذه .... قاعدة هذه الثقافة هى الإسلام..

وبالإسلام لا يستطيع الشعب العربى إيجاد وحدته والقضاء على إسرائيل فحسب، بل أيضًا يستطيع التوحد مع الشعوب الإسلامية الأخرى... وسيكون ذلك هو المدخل إلى انبعاث إنسانية جديدة»[1].

وبهذا الدين أقيمت دول إسلامية امتدت من المحيط إلى المحيط، وصارت أكثر شعوب وقوميات ذلك العالم المترامى الأطراف تفتخر أنها تتكلم اللغة العربية، ليس لأنها لغة العرب، ولكن لأنها لغة القرآن، وظلت لغاتهم الخاصة كلها تكتب بحروف عربية، واستمر الأمر على ذلك حتى مبتدأ القرن الماضى، عندما تدخل الاستعمار وأعوانه لتغيير الحروف العربية واستبدالها بحروف لاتينية وما تزال حتى اليوم عدد من اللغات تكتب بالحروف العربية رغم هذا التخلف العربى المخيف، ومنها: اللغة الفارسية (إيران)، لغة الأوردو (باكستان والهند)، اللغة الأفغانية، اللغة السواحلية (شرق إفريقيا).

وعندما تفسخت عرى الوحدة الإسلامية وانفصمت، كانت الشعوب الأعجمية هى الأكثر حماسًا لعودة الوحدة، وعودة اللغة العربية إلى الانتشار، وعودة القيادة السياسية إلى العرب، وقد اشتهرت مؤلفات وصيحات الشيخ أبوالحسن الندوى علاَّمة الهند الأكبر فى ذلك، وهو الذى ظل يدير جامعة (الندويين)، كل من يعمل فيها من الفرَّاش حتى الرئيس، وكل من يدرس فيها ويتخرج منها يتكلم العربية الفصحى التى لا يتقنها عرب هذا الدهر أنفسهم!

ومعلوم قبل ذلك، الدور الأكبر فى الدعوة للوحدة الإسلامية الذى لعبه السيد جمال الدين الأفغانى، الذى يعتبر مؤسس دعوة الجامعة الإسلامية وناشطها الأكبر، وهو غير عربى، ونختم هذا المبحث وهذا الفصل بعبارات له يدعو فيها المسلمين جميعًا -عربًا وعجمًا- إلى التوحد حول راية الإسلام والارتباط بحبل الله المتين فيقول:

«أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها، ودماؤكم فلا تريقوها، هذه روابطكم الدينية، لا تغرَّنكم الوساوس ولا تستهويكم الترهات، ارفعوا غطاء

(١) فى مقابلة صحفية مع مجلة المختار الإسلامى - القاهرة: سبتمبر ١٩٨٠م، ص (٤٣).

الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبل الرابطة الدينية، التى هى أحكم رابطة، اجتمع فيها التركى بالعربى، والفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى»[١].

ولأن الإسلام يجمع بين الثوابت والمتغيرات، فإن الثابت فى هذا الموضوع هو أن يحس المسلمون أنهم أمة واحدة فى المشاعر، ويلمسوا ذلك فى المواقف العملية، أما الأشكال والقوالب فهى مرنة، ولأنها من المتغيرات، وعلى ذلك فيمكن تحقيق الوحدة الإسلامية فى هذا العصر، إما بصورة اندماجية مثل تجربة الخلافة الراشدة، وإما على النمط الفدرالى مثل صورة الوحدة بين الولايات الأمريكية ، أو كونفدرالية، مثل الاتحاد السوفياتى السابق، أو أى صيغة أخرى مثل الاتحاد الأوروبى.

ونخلص مما سبق إلى أن المسلمين يعانون فى هذا العصر من معضلات كثيرة أهمها: التخلف واللافعالية، الاستبداد وقمع الحريات السياسية، التبعية وتآكل الاستقلال، والظلم الاجتماعى واجتياح حقوق الإنسان، التفتت والتشرذم، وأن المخرج منها هو الإسلام الذى يمتلك فكرًا راقيًا وتجربة واقعية رائعة، لكن الإشكال المركزى يكمن إذن فى الابتعاد عن الإسلام، وإذا ما نجح المسلمون فى فهم دينهم وتطبيقه فى نواحى حياتهم، فإن العالم الإسلامى فى فترة زمنية وجيزة سيتخلص من معضلاته ويمزق أصراره، ويقطع أغلاله، وينطلق يبنى نفسه ويعمر حياته ويواجه أعداءه عابدًا فى كل ذلك ربه، وراغبًا فى إعزاز دينه ودنياه، ونيل الجنة فى الآخرة.

*** مراجع إضافية:**

لمن أراد معرفة منهج الإسلام فى التخلص من هذه المعضلات بالتفصيل، وكيفية الانتقال بالمسلمين إلى عكسها ، يمكن مراجعة الكتب التالية:

١- د. جمال محمد أحمد عبده: دور المنهج الإسلامى فى تنمية الموارد البشرية.

٢- د. محمد سعيد البوطى: من المسئول عن تخلف المسلمين.

٣- د. القرضاوى: سلسلة كتب تحت عنوان «حتمية الحل الإسلامى».

(١) مجلة العربى: العدد (٤٤٢)، ص (١٧).

٤- د. كمال مصطفى محمد: منهج الإسلام فى علاج حاضر المسلمين.

٥- مجموعة باحثين: هجرة الكفاءات العربية (ندوة فكرية) بمركز دراسات الوحدة العربية.

٦- جميل عبد القادر أكبر: عمارة الأرض فى الإسلام (فى الشريعة الإسلامية مقارنة بالقوانين الوضعية).

٧- د: عبد الرزاق الفارس: الفقر وتوزيع الدخل فى الوطن العربى.

٨- د. عبد الحميد براهيمى: العدالة الاجتماعية والتنمية فى الاقتصاد الإسلامى.

٩- د. أنطوان زحلان: العلم والسياسة العلمية فى الوطن العربى.

١٠- راشد الغنوشى: الحريات العامة فى الدولة الإسلامية.

***

الفصل الثالث

المناطق الساخنة فى العالم الإسلامى

المبحث الأول: المناطق الساخنة فى أفريقيا:

أولاً : منطقة القرن الأفريقى وجوانبها

ثانيًا: منطقة غرب أفريقيا

المبحث الثانى: المناطق الساخنة فى آسيا

أولاً: منطقة وسط آسيا والقوقاز

ثانيًا: منطقة جنوب آسيا (شبه القارة الهندية)

ثالثًا: منطقة جنوب شرق آسيا

المبحث الثالث: المناطق الساخنة فى البلقان وشرق أوروبا

أولاً: البوسنة والهرسك

ثانيًا: المسلمون الألبان

ثالثًا: المسلمون فى بلغاريا

رابعًا: أقليات أخرى

المبحث الرابع: السرطان اليهودى يستوطن القلب ويشل الأطراف

أولاً: السرطان يغزو القلب

ثانيًا: اليد الطولى لإسرائيل

المبحث الأول

المناطق الساخنة فى أفريقيا

أفريقيا هى القارة الأولى فى العالم من حيث كمية البؤر الساخنة، والمشاكل الكبيرة، والمنازعات المختلفة، ومن العجيب أنها القارة الإسلامية الوحيدة فى العالم، حيث يشكل المسلمون ٦٠٪ من سكانها وبالتالى فإن عدداً كبيراً من المسلمين هم وقود لهذه المشاكل والتناحرات. وترتفع نسبة الصراعات فى أفريقيا عن غيرها لعدة عوامل، ربما كان من بينها إدراك الأصابع الخفية التى تحرك الأحداث من الخارج، أن المسلمين يشكلون غالبية فى هذه القارة، وهذا ليس معناه أن العامل الخارجى هو وحده المسئول عن مشاكل أفريقيا، فهناك عوامل داخلية كثيرة، يمكن إجمالها فى جملة واحدة وهى (القابلية للتخلف والصراع والتفتت) ومن أهم هذه العوامل الداخلية:

١- انعدام الاستقرار السياسى، حيث لم ترث معظم القارة، باستثناء شمالها، أعرافًا فى الحكم والدولة المركزية، ولذلك تقوم عشرات النزاعات المسلحة بسبب هذه النقطة تحديداً، حيث تتصارع الأعراق والقبائل على الاستحواذ على السلطة دون مراعاة للآخرين، حيث يروى فى السبعينيات أن مسرحية غربية كانت تعرض فى مسرح من مسارح عاصمة أفريقية، فحضرها الرئيس، وفى تلك الأثناء قام انقلاب، وجاء الثوار لاعتقال الرئيس، ثم جاء زعيمهم فى نفس الليلة ليستكمل مشاهدة المسرحية التى كان قد شاهد مبتدأها الرئيس السابق!!

٢- الصراع المحتدم والتنافس المحموم بين القوى الاستعمارية، وخاصة بين فرنسا (الاستعمار القديم) والولايات المتحدة الأمريكية (الاستعمار الحديث).

٣- كثرة الكوارث الطبيعية، والتى تساهم فى زيادة رقعة الفقر، حيث تنتشر مشكلة التصحر فى شمال القارة، ومشكلة الجفاف فى بعض جهات الغرب والشرق، بينما تعانى منطقة القلب من الفيضانات، وخاصة على ضفاف الأنهار الكبرى، وهى: النيل والكونغو والنيجر.

وما يهمنا هنا هو دراسة حاضر المسلمين هناك، حيث توجد منطقتان ساختتان لا تكادان تعرفان السكون، وهما: منطقة القرن الأفريقى وجوانبها، ومنطقة غرب أفريقيا ولواحقها.

أولا: منطقة القرن الأفريقى وجوانبها.

القرن الأفريقى هو المنطقة التى تقع شمال شرق أفريقيا وتضم الصومال وجيبوتى وإريتريا وأثيوبيا والسودان، ويمكن أن نلحق بهذه المنطقة مشاكل المسلمين فى كينيا وتنزانيا وأوغندا.

١- الصومال:

الصومال التاريخى يضم اليوم ثلاث دول بحسب التقسيم الاستعمارى، هى: الصومال الإنجليزى (الصومال)، الصومال الإيطالى (إريتريا)، الصومال الفرنسى (جيبوتى)، إضافة إلى أقاليم واسعة فى أثيوبيا وكينيا. والصومال الذى نقصده هنا هو الصومال الإنجليزى.

استقلت الصومال فى يوليو ١٩٦٠م وانضمت إلى الجامعة العربية، لكن لصوص الثورات الذين سيطروا على الحكم فى معظم بلدان المسلمين، سرعان ما أفسدوا فى البلاد، حتى قفز الجنرال محمد زياد برى إلى الحكم فى انقلاب دموى، وحاول الابتعاد بالصومال عن الدائرة العروبية والإسلامية، فأعلنها شيوعية حمراء ومكن للسوفيت فى بلاد الصومال، حتى إذا حدثت الحرب بين بلاده وأثيوبيا ورأى الانحياز السوفيتى الكامل ضد بلاده، انتقل إلى الحضن الغربى، ولم يكن الحال أفضل، وبالتالى زاد استبداداً وطغيانًا فى الداخل، وقدم تنازلات على مستوى الخارج، ما فيها توقيع صك يتنازل فيه عن إقليم أوجادين الكبير الذى يوازى ثلث مساحة الصومال لأثيوبيا.

ولما زاد الضغط حدث الانفجار، حيث انفجرت ثورة شعبية ضده فى ١٩٨٨م، استمرت تقدم التضحيات حتى نجحت فى إسقاطه فى يناير ١٩٩١م على يد مجموعة من الأحزاب المنضوية تحت راية «المؤتمر الصومالى الموحد» ولكن عندما سقط العدو المشترك، بدأ هؤلاء يتذكرون انتماءاتهم القبلية والحزبية بصورة

متخلفة، مع دور للعوامل الخارجية، حيث كانت المخابرات الأجنبية، وخاصة العربية والأثيوبية تسرح وتمرح فى البلاد، مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية شاملة، لم يمتنع عن الخوض فيها إلا الإسلاميون.

انسحب الشماليون إلى شمال الصومال، وكونوا دولة انفصالية هناك عاصمتها«هرجيسيا» تحت قيادة عبد الرحمن أحمد على، ولم تعترف بها أى دولة فى العالم، ولم يتدخل العرب والمسلمون لتقديم يد المساعدة والصلح، فاتجة هذا الكيان الوليد لإقامة علاقة مع (إسرائيل) طمعًا فى نيل شئ من المساعدات.

أما فى الجنوب فقد تصاعدت حدة الحرب الأهلية، مع جفاف واسع فى كثير من المناطق، مما أدى إلى نقص كبير فى الأغذية، فحدثت مجاعة كبرى، وتعاونت الحرب مع الجفاف على تشريد نحو مليونى صومالى إلى البلدان المجاورة خاصة والعالم عامة، وتعرض ٤,٥ مليون لخطر الموت جوعًا، ومات بالفعل حسب التقديرات الدولية نصف مليون على الأقل.

وفى ١٩٩٢م كانت وسائل إعلام العالم، وخاصة الأمريكية، قد سلطت الأضواء على مأساة الصومال. حتى تهيأ الرأى العام الأمريكى والدولى، لتدخل أمريكا فى الصومال تحت لافتة «إعادة الأمل» بعد أخذ موافقة من مجلس الأمن، وبالفعل وصل إلى الصومال ٢٧,٨٠٠ جندياً دولياً من الأمريكان، وخرج الشعب يرحب بهم، ونجح هؤلاء فى جمع قائدى الفصيلين الرئيسيين فى النزاع، وهما محمد فرح عيديد وعلى مهدى محمد، ولكن بعد فترة قصيرة أدرك الصوماليون أن أمريكا لم تأت لإنقاذهم بل لاحتلال بلدهم، فبدأ الجنرال محمد فرح عيديد فى التمرد على الأمريكيين، حتى قتل فى فترة قصيرة ٢٤ جندياً أمريكياً ودولياً.

ويبدو أن الضحايا الأجانب كانوا أكبر من الأطماع المتركزة أساسًا فى ميناء (بربرة)، ولذلك فقد خرج الأمريكان، وتركوا الصوماليين فى اقتتالهم، وظلت الوساطات العربية تظهر فى فترات متباعدة،حتى نجح بعضها فى جمع كل الفصائل فى أديس أبابا مرة وفى صنعاء مرة وفى القاهرة مرة، لكن كل الاتفاقات التى كانت توقع سرعان ما يتم اختراقها ونسفها فى الجانب العملى، وكانت المرة

الناجحة فى جيبوتى، حيث تم الاتفاق على حكومة انتقالية نالت رضا معظم الأطراف، لكن الأمن لم يستتب تماما، ولم تسيطر الدولة المركزية على كل المناطق الصومالية، بما فيها الجمهورية الانفصالية فى الشمال.

٢- إريتريا:

منذ أن دخل الإسلام إلى إريتريا والحبشة فى أيام النبى ﷺ أصبحت إريتريا ولاية إسلامية حتى أيام العثمانيين، ولكن فى مرحلة اقتسام تركة الرجل المريض، نجح الإيطاليون فى إيجاد موطئ قدم لهم فيها سنة ١٨٦٩م بحجة التجارة، وظل موطئ القدم يتمدد حتى تم السيطرة على البلاد عام ١٩٠٣م، ومن تلك الأثناء أصبحت مستعمرة إيطالية حتى الحرب العالمية الثانية، فعندما بدأت علامات هزيمتها أمام دول الحلفاء، نجح هؤلاء فى انتزاعها من براثن إيطاليا سنة ١٩٤١م، وأصبحت منذ هذا التاريخ مستعمرة إنجليزية.

وفى هذه الفترة حدث تقاطع المصالح بين الإنجليز والأثيوبيين، حيث ظلت أثيوبيا بحاجة إلى منفذ بحرى على البحر الأحمر، فى نفس الوقت كان الإنجليز يعملون لمنع عودة البحر الأحمر بحيرة عربية، وبالتالى سهلت تغلغل الأثيوبيين فى إريتريا والسيطرة عليها بدعوى الوحدة، وبدعم من جهات دولية عديدة، حيث صدقت الجمعية العامة على مشروع قرار بإنشاء اتحاد فيدرالى بين أثيوبيا وإريتريا فى ٢/ ١٢/ ١٩٥٠م يتم بموجبه إعطاء إريتريا الحكم الذاتى، ومراعاة خصوصياتها العروبية والإسلامية.

وفى مارس ١٩٥٢م تم انتخاب برلمان إريتريا المحلى، ومن ثم الحكومة، وأزيل العلم البريطانى فى ١٥/ ٩/ ١٩٦٢م ليرتفع علم أثيوبيا بدلاً عنه، وبدأ الإمبراطور الأثيوبى هيلا سلاسى ينفذ سياسات صليبية فى إريتريا، وفى نفس الوقت كان يشترى بعض الوجاهات والمثقفين. وفى ١٩٦٢م أجريت انتخابات جديدة ليسفر ذلك كله عن صعود أغلبية موالية لأثيوبيا، صوتت داخل البرلمان لصالح دمج إريتريا فى أثيوبيا، وذلك فى ١٤/ ١١/ ١٩٦٢م.

وكانت ثورة التحرير المسلحة قد اندلعت فى الفاتح من سبتمبر ١٩٦٢م، لكن هذا الدمج أو الاحتلال السافر أشعل من أوار هذه الثورة، غير أن مجاميع الثوار

كانت تحمل فى أوساطها الكثير من بذور الاختلاف الذى أدى إلى الانقسام النهائى إلى ثلاث جبهات، وللأسف الشديد فإن كل دولة عربية دعمت بعض المجموعات كجزء من عملياتها الاستقطابية، وتصفية حساباتها مع بعضها، ولعبت بعض الدول المؤثرة دوراً كبيراً فى دعم الجبهة الشعبية التى يقودها أسياسى أفورقى، وهو شيوعى نصرانى ينتمى إلى قومية التيجراى، ومن هذه الدول السودان واليمن، وهما أكثر من ساعد فى تحرير الشعب الإريترى من الاحتلال الأثيوبى.

فى ١٩٩١م دخلت القوات الإريترية بالتحالف مع المعارضة الأثيوبية من قومية التيجراى فى العاصمة الأثيوبية أديس أبابا، لتسقط حكم منجستو هيلاميريام، وبدأ التحضير لإجراء استفتاء حول الاستقلال فى أوساط الشعب الإريترى، وقد أقرت الأمم المتحدة فى ١٠ نوفمبر ١٩٩٢م مشاركتها وإشرافها على الاستفتاء، وفى أبريل ١٩٩٣م صوت الشعب الإريترى لصالح الاستقلال، لكن أسياسى أفورقى الذى كان قد قام بزيارتين إلى إسرائيل فى ١٩٩٢م، إحداهما للتداوى من الحمى الشوكية، كان يعمل بجد لإدارة عجلة البلاد وحرفها عن مسارها، لتبتعد عن دائرتها العروبية والإسلامية، وبالفعل فقد أعطى الإسرائيليين قواعد عسكرية فى جزيرة «دهلك»، وشن حربًا فى الداخل على المظاهر العربية والإسلامية واضطهد المسلمين، وضيق الخناق على لغتهم وثقافتهم والتيارات التى تمثلهم. وعلى المستوى الخارجى أعلن أن بلاده ليست عربية، وأنه لن ينضم إلى الجامعة العربية، وارتمى فى أحضان الإسرائيليين، وعندما سئل عن تصريحاته السابقة المعادية لهم، قال: من ذا الذى يولد ناضجًا؟ وبدأت الدوائر المعادية للعرب والمسلمين تستخدم أفورقى، ومن ثم إريتريا كأداة لإثارة القلاقل فى المنطقة، وإحراج الدول التى لا ترتضى عنها تلك الدول والدوائر، وبدأ الأمر بإيواء المعارضة السودانية المسلحة، والاشتراك فى القتال ضد الحكومة السودانية.

وكانت المحطة الثانية هى اليمن، حيث قامت القوات الإريترية «على ذات غفلة» باحتلال جزيرة (حنيش الكبرى) فى منتصف ديسمبر ١٩٩٥م، وعززت ذلك باحتلال (حنيش الصغرى) فى العام التالى.

واليوم يخوض النظام الإريترى حرب استئصال ضد المسلمين، تمثل امتدادًا للسياسة التى اتبعها هيلاسلاسى الذى رفع يومًا شعار «ضرورة تجفيف البحر ليموت السمك» وقام بحرب إبادة جماعية ضد قرى المسلمين حتى اختفت بعض الأسر بالكامل.

وما يزال النظام الإريترى يتحرش بجيرانه، حيث ظل يهدد باكتساح جيبوتى، وأخيرا اصطدم مع حليفه ملس زيناوى رئيس الحكومة الأثيوبية، وخاضت بلادهما حربًا انهزم فيها أسياسى أفورقى، لكن جذور التحرش ما تزال قائمة!.

٣- أثيوبيا:

كانت أثيوبيا مملكة مسيحية، حتى غلب عليها المسلمون وأصبحوا أكثر من النصارى، بوسائل دعوية بحتة، وبالتالى صارت أثيوبيا دولة مسلمة، وخاصة فى فترات حكم قومية (الأرومو).

تتكون أثيوبيا من أربع عشرة مقاطعة، تختلف نسبة المسلمين فيها بين أغلبية وأقلية، فأكبر المقاطعات هى (هرر) ونسبة المسلمين فيها ١٠٠٪ ومثلها مقاطعة (بالى) ومنطقة (عروسى)، وهناك مقاطعات تصل نسبة المسلمين فيها ما بين ٧٠-٩٠٪، والمقاطعات التى يمثل المسلمون فيها أقلية: تأتى أولاً (غاموغوفا) حيث أن ٩٠٪ من السكان وثنيون والبقية مسلمون، وكذلك (تغراى) التى يمثل المسلمون فيها ٢٠٪ وغوجام ١٥٪ وغندر ٣٠٪ وما عدا ذلك فالمسلمون أكثر من ٥٠٪ وعليه فإن مصادر المسلمين تتحدث عن أنهم أغلبية على مستوى الدولة، حيث تصل نسبتهم إلى ٦٠٪، بينما تذهب الإحصاءات الحكومية إلى أنهم ٤٠٪ وهذا هو أول مظاهر التضييق على المسلمين التى ابتدأت بقوة أيام هيلاسلاسى الذى قدم نفسه للغرب على أنه رأس الحربة الصليبية فى القرن الأفريقى.

تحالف المسلمون مع منجستومريام حتى نجحوا فى إسقاط هيلاسلاسى، وشهد المسلمون فى عهده نوعًا من الحرية، لكنه سقط فى ١٩٩١م.

عملت الدوائر الاستعمارية على إدخال أثيوبيا فى المنظومة المعادية للأمة، وقامت علاقات وثيقة بين أثيوبيا وإسرائيل، تُوجب بمخطط إسرائيلى لعمل

مجموعة من السدود للتأثير على نصيب مصر من مياه النيل، حتى أن السادات فى أواخر السبعينيات، هدد بأن أى عمل للتأثير على مجرى النيل معناه إعلان حرب على مصر.

وفى الجهة الأخرى شنت أثيوبيا حربًا على الصومال، وانتزعت منها ثلث أراضيها والمتمثلة بالإقليم الشهير «أوجادين» وعندما قام أسياسى أفورقى بمغامراته الطائشة استغلت الدوائر الأثيوبية الأمر وقامت باكتساح بعض المناطق الإريترية، لتعود عند البعض الأحلام بالسيطرة على إريتريا حتى يكون لأثيوبيا موطئ قدم على البحر الأحمر.

أما على المستوى الداخلى فالمسلمون يعانون فى كل الفترات الأخيرة من اضطهاد النصارى لهم ،وخاصة شعب الأرومو الذى يعتبر أكبر شعوب أثيوبيا، وأغلبية أبنائه من المسلمين.

تبلغ مساحة الأرومو وحدها ٧٠٠ألف كم٢، وسكانها ٣٤مليون، أغلبيتهم الساحقة من المسلمين، حيث يمثلون ما نسبته ٧٠٪من مجموع المسلمين فى أثيوبيا، وظلت دولتهم مستقلة إلى أن سقطت فى يد الأثيوبيين عام ١٨٩١م بمساعدة من البرتغاليين والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمهريين.

وكانت جبهة تحرير الأرومو، قد لعبت دورًا أساسيًا فى إسقاط منجستو هيلامريام١٩٩١م مع جبهة تحرير التجراى المسيحية وعرب إريتريا ،وشهدوا انتعاشا بعد الثورة، لكن الوضع سرعان ما عاد إلى سابق عهدة مما جعل جبهة تحريرالأرومو تنسحب بممثليها من البرلمان فى يونيو١٩٩٢م، لتبدأ حملة مطالبة سياسية بحقوق المسلمين من جديد[١].

٤- السودان:

السودان هو أكبر الدول الإفريقية مساحة، وينقسم فى ظل حكم ثورة الإنقاذ إلى ست وعشرين ولاية. ويعانى من مشاكل عدة، أهمها مشكلة الجنوب،

(١) للمزيد حول الدور الأثيوبى فى المنطقة راجع: عقبة عدنان الأحمد: التحرش الأثيوبى بالصومال، مجلة قضايا دولية - باكستان العدد (٣٤٨)، ص (١٤، ١٥) - بدر حسن: الطموحات الأثيوبية وورقة النصرانية فى القرن الأفريقى مجلة السنة - برمنجهام: العدد(١١٧)، ص (٥٥ -٦٢).

وسنتحدث عنها في مقام آخر من هذه الدراسة. أما مشاكله الأخرى، فرغم أنه الدولة الأولى في العالم العربي مساحة، والثانية سكانًا بعد مصر، ورغم امتلاكه لإمكانيات زراعية وحيوانية ومائية هائلة، إلا أنه نتيجة لمرض الجنوب المزمن، ولانعدام الاستقرار السياسي، وتوالي الانقلابات العسكرية والحكومات المنتخبة، يعاني من تخلف شديد في بنيته التحتية، وخاصة في مناطق الأطراف.

ووفقًا للتقرير الإستراتيجي الذي أصدره السودان عام ١٩٩٧م، فإن ٦٠٪ من الخدمات الأساسية (التعليم- الصحة- المياه- الكهرباء) موجودة في العاصمة (الخرطوم)، ولذلك فإن هناك اختناق شديد في العاصمة، يقابله فراغ هائل في الأقاليم، حيث يتركز أكثر من ٢٠٪ من سكان البلاد في العاصمة، بحثًا عن الخدمات، وهروبًا من مشاكل الأعراق المتعددة في الجنوب والشرق والغرب، حيث توجد أعراق غير عربية في هذه المناطق، تقوم بعض الجهات الخارجية بتحريضها ضد الدولة المركزية في الخرطوم، نتيجة ضعف الخدمات وضعف البنية التحتية.

ويبدو أن الدوائر الخارجية التي يهمها أن يظل العالم الإسلامي يتردى في مهاوي التبعية وخاصة في جانب الغذاء- كما عرفنا من قبل- لا تريد للاستقرار أن يعرف طريقه إلى السودان، حتى لا يستثمر بعض إمكاناته المتواضعة في تحويل عبارة (سلة غذاء العالم) من مقولة إلى حقيقة.

وعندما بدا أن ثورة الإنقاذ - التي جاءت في يونيو ١٩٨٩م- تحمل مشروعًا حضاريًا متكاملاً، واحدة من أبرز قسماته هي إقامة مشاريع زراعية ضخمة، على الأقل تنقل البلاد من حالة الاستيراد إلى الاكتفاء الذاتي، وبالفعل ارتفعت المساحة المزروعة خلال بضع سنوات من ١١ مليون فدانًا إلى ٣٣ مليون فدانًا، عندها زادت الضغوط على السودان من كل جانب، بدعاوى مختلفة، وتحت حجج متباينة!.

وعندما حدثت محاولة فاشلة لاغتيال حسني مبارك في أديس أبابا عام ١٩٩٥م، نسجت الدوائر الاستخبارية روايات عن أن الثلاثة أفراد الذين أقدموا على هذه المحاولة فروا إلى السودان، وبدأت الضغوط تتصاعد من أجل تسليم هؤلاء الثلاثة أفراد الذين قيل إنهم دخلوا السودان، ووصل الأمر إلى حد فرض

عقوبات اقتصادية من درجات معينة من قبل الولايات المتحدة والأمم المتحدة اللتين يبدو أنهما شقيقتان حتى فى الاسم، فى ظل النظام الدولى الجديد.

وإضافة إلى الحصار الاقتصادى والحرب السياسية والدبلوماسية التى لقيها النظام الحاكم فى السودان، تم تصعيد الجبهة فى الجنوب، وإيجاد مشاكل عرقية فى الغرب والشرق، ثم حدثت فى بعض الفترات مواجهات محدودة مع ثلاث دول مجاورة هى أوغندا وإريتريا وأثيوبيا، وهناك أيضًا مشاكل الديون الموروثة من الأنظمة السابقة، إضافة إلى الكوارث الطبيعية، ومنها الفيضانات فى بعض الجهات والجفاف فى جهات أخرى، كل ذلك أدى إلى التضيق على النظام لكى يتخلى عن مشاريعه الحضارية وتوجهاته الإسلامية والعروبية، وبالتالى تم إصابة المواطن السودانى فى لقمة عيشه، حيث ارتفعت البطالة، وزاد التضخم، وارتفعت الأسعار.

وكمثال على دور الحصار الاقتصادى فى إثارة المشاكل للسودان، فقد سقط للسودان خلال عقد واحد عدد من الطائرات العسكرية والمدنية، بسبب قلة قطع الغيار، وفى أحد هذه الكوارث استشهد عدد من قادة الجيش والدولة وعلى رأسهم نائب رئيس الجمهورية الزبير محمد صالح.

وهكذا، فإن الحبائل كثيرة، لكن قافلة السودان تسير، غير أن المعاناة تزيد[1].

٥- جيبوتى:

هى دولة صغيرة تحاذى باب المندب، وكانت نصيب فرنسا من الكعكة الصومالية، وما تزال إلى الآن شبه محمية فرنسية، بعد أن استقلت عام ١٩٧٧م وانضمت إلى الجامعة العربية. ويصل سكانها إلى أكثر من نصف مليون، ورغم أن العربية هى اللغة الرسمية إلا أن الفرنسية هى الأقوى داخل المجتمع.

يتكون مجتمع جيبوتى من أربع قبائل أساسية، صارت أقرب إلى القوميات، حيث توجد مشاكل محتدمة بين أكبر قبيلتين منهما العفر والعيسى، حيث يشعر

(١) راجع إن شئت: وثيقة خطيرة حول استراتيجية وتكتيك بريطانيا ضد السودان (مجلة فلسطين المسلمة، أبريل ١٩٩٤م، ص (٥٦). عبيد الأمين: السودان يواجه حرب الصليب الإعلامية: المجتمع: العدد (٨٨٥)، ص (٢٨، ٢٩).

العفر بالهضم لأنهم الأكثر عدداً، ومع ذلك فإن السلطة بيد العيسى، فالرئيس حسن جوليد منهم، وكذلك خليفته الذى انتخب فى ١٩٩٩م.

وربما كانت هناك يد خارجية فى دعم بعض أصوات العفر التى تعلو أحياناً للمطالبة بدولة العفر الكبرى، حيث تتوزع عرقيتهم فى أثيوبيا وإريتريا والصومال، إضافة إلى جيبوتى.

ومن أهم مشاكل هذا المجتمع العربى المسلم، إضافة إلى الانقسام العرقى، الاحتراب الثقافى بين تيارين، أحدهما يبشر بالثقافة العروبية والإسلامية والآخر لا يريد الفكاك من سيطرة الثقافة الفرنسية الممتدة من أيام الاستعمار الفرنسى.

٦- تنزانيا (زنجبار):

استقلت سلطنة زنجبار عام ١٩٦٣م، واتضحت أصولها العربية والإسلامية فى الاتجاه نحو دائرة العروبة والإسلام، وفى تلك الأثناء قامت وزيرة الخارجية الإسرائيلية جولدا مائير بزيارة الدول الإفريقية، ووصلت إلى تنجانيقا وكينيا المجاورتين لزنجبار، ثم أرادت زيارة زنجبار، لكن المسئولين فيها رفضوا استقبالها، فبدأت بعد ذلك المؤامرات ضد زنجبار.

يمثل المسلمون فى زنجبار ٩٥٪ من السكان ينتمى عدد كبير منها إلى أصول عربية، وخاصة عمانية ويمنية، ومع ذلك فقد نجح مجموعة من الشيوعيين من أبناء زنجبار بالتعاون مع بعض العناصر اليهودية فى السيطرة على السلطة فى ١٩٦٤م بعد انقلاب دموى راح ضحيته الآلاف من المسلمين، وبدعم من رئيس تنجانيقا نيريرى، وبعد ذلك تم الاعتراف بإسرائيل وإيجاد سفارة لها فى دار السلام، ثم تم إعلان توحيد زنجبار وتنجانيقا فى دولة فيدرالية واحدة سميت تنزانيا وعاصمتها دار السلام، وتحت رئاسة نيريرى، الذى ظل يعمل على تجفيف منابع العروبة والإسلام فى تلك المنطقة من العالم، حيث منع استخدام العربية، وعمل على تجفيف منابع الثقافة الإسلامية، فى مقابل التوسع فى بناء الكنائس حتى فى المناطق التى لا يوجد فيها مسيحيون، وتشجيع حركات وجمعيات وجهود التنصير فى زنجبار.

ورغم أن المسلمين «حتى فى ظل التوحيد القسرى» يمثلون النسبة الأكبر إلا أن أرقام النظام الحاكم تجعل المسلمين أقلية، وظلت السلطة من تلك الأثناء حكرًا على المسيحين، ما عدا بعض الوزارات الخدمية التى لا علاقة لها بمفاصل السلطة.

وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن «مالاوى» دولة أفريقية تقع جنوب تنزانيا، وكانت نسبة المسلمين فى مطلع القرن العشرين فيها أكثر من ٦٠٪، بينما تقول إحصاءات ١٩٨٦م أنهم صاروا ١٧٪ فقط!!.

٧- كينيا:

هى إحدى دول شرق أفريقيا وتقع بين الصومال وتنزانيا، يصل عدد سكانها إلى ٢٥ مليون نسمة، ٣٥٪ منهم من المسلمين، حيث يتركز المسلمون فى المناطق الساحلية، وخاصة فى الإقليم الشمالى الذى أخذته بريطانيا من الصومال ومنحته لكينيا عند استقلالها عام ١٩٦٣م، وعاصمة هذا الأقليم هى مدينة مومباسا الساحلية الجميلة التى تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٩٠٪ ورغم أن كينيا هادئة نسبياً، مقارنة بدول المنطقة، إلا أن المسلمين يعانون من تجاهلهم والتضييق عليهم، حيث تقلل الحكومة من أعدادهم، وتمنعهم من الحركة والعمل بحرية.

وحتى عندما انفتحت البلد على التعددية السياسية، لم تتح حكومة الرئيس دانيال آراب موى للمسلمين الاستفادة من هذا الانفتاح، فقد تقدم خالد بلعلا بطلب عام ١٩٩٢م لتأسيس الحزب الإسلامى ليتسنى له دخول الانتخابات التى كانت ستجرى فى ١٩٩٣م، لكن الرئيس رفض الطلب، بحجة رفض إنشاء أحزاب دينية، لكن المسلمين هناك أفضل حالاً من جيرانهم، وأغلب مشاكلهم ناتجة عن معاناتهم من التخلف الموروث، حيث كان الاستعمار الإنجليزى يعمل على تجهيلهم، إضافة إلى انقسام المسلمين فى جماعات وتيارات وطرق، فى وقت تكثف فيه الحركات التنصيرية جهودها على فقرائهم وجهلائهم.

٨- أوغندا:

وصل الإسلام إلى أوغندا منذ ما يزيد عن خمسة قرون، وتختلف التقديرات حول نسبتهم، وكانوا وفق إحصاءات الستينيات، أى: ما بعد الاستقلال بقليل،

يشكلون ٥٠٪ وظلت النسبة ترتفع لجهود الجمعيات الإسلامية ولقوة الإسلام الذاتية، وخاصة فى عهد الرئيس المسلم الوحيد ممن حكم أوغندا منذ الاستقلال حتى الآن وهو عيدى أمين دادا- الذى أسلفنا فى الحديث عنه- والذى واجه الحركات التنصيرية، وشجع الجمعيات الإسلامية، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل الوثنية فى الإسلام، ووصل الرقم فى عهده إلى أكثر من ٦٠٪.

وعمل عيدى أمين ليس على مطاردة النفوذ الصهيونى فى بلاده فحسب، ولكن فى القارة الأفريقية، حتى بلغ السيل الزبا بالدوائر الصهيونية الإقليمية والدولية، وبدأ العد التنازلى لحكمه، ووصل الحال إلى حد اعتداء مجموعة من الطائرات العسكرية الصهيونية على مطار «عنتيبى» الأوغندى.

وتمالأ على إسقاطه الإنجليز لأنه صفّى الوجود البريطانى هناك، وكذلك الأمريكان؛ لأنه مكن للمسلمين وحارب النفوذ اليهودى فى القارة، إضافة إلى الكيان اليهودى، وقبل ذلك وبعده، بقايا النظام الذى سبقه وعلى رأسه الرئيس السابق ملتون أوبوتى، وكان على رأس الحربة فى غزو أوغندا رئيس تنزانيا نيريرى الذى أرسل جيشًا من أربعين ألف جندى، إضافة إلى الميليشيات الأوغندية العميلة، فى ظل صمت وربما تمالؤ عربى وحملة تشوية دولية لنظام عيدى أمين، نجحت كلها فى اقتلاع النظام، حيث فر عيدى أمين إلى السودان، ومن بعدها ظل لاجئًا فى السعودية حتى مات فيها فى منتصف أغسطس ٢٠٠٣م[١].

وبعد ذلك بدأت معاناة المسلمين القوية، حيث فر مئات الآلاف إلى خارج البلاد، بعد أن قتل الآلاف منهم، وكان عدد الذين فروا إلى السودان فقط حوالى نصف مليون، ومن بقى منهم أصبح مواطنًا من الدرجة الثانية وربما الثالثة، لتصل نسبة المسلمين فى التسعينيات من (٣٥-٤٠٪)، وإن كانت عادت لتزداد فى ظل بعض الجهود الدعوية الهادئة والمثمرة.

ويعانى مسلموا أوغندا اليوم، إضافة إلى تجاوز النظام لهم وعدم إعطائهم حقوقهم مقارنة بالنصارى والوثنيين، يعانون من تحديات داخلية نتيجة الأمية الدينية

(١) مات عيدى أمين أثناء إعدادى لهذه الدراسة..

والثقافية، وانتشار الحركات المنحرفة عن الإسلام للدعوة فى أوساط المسلمين، مثل القاديانية والإسماعيلية والبهائية، هذا إضافة إلى تحديات التنصير والمنصرين، الذين يمتلكون إمكانيات هائلة ويحظون بتشجيع الدولة[1].

٩- رواندا وبورندى:

قبل أن نغادر هذه المنطقة الساخنة، والثرية بالمشاكل عمومًا وضد المسلمين خصوصًا، نشير إلى دولتين تقعان فى جنوب أوغندا، وقد عانتا من مشاكل الصراع العرقى، وهما بورندى ورواندا اللتان وصل ضحايا الصراع العرقى والحرب الأهلية ما بين ٥٠٠ ألف - مليون قتيل.

يبلغ سكان بورندى ٦ مليون، يمثل المسلمون ٢٥٪ منهم، بينما سكان رواندا ٧,٥ مليون، نسبة المسلمين فيهم تصل إلى ١٠٪، وقد دفع المسلمون هناك ثمنًا باهظًا للاقتتال العرقى بين الهوتو، وهم الأغلبية الضعيفة، والتوتسى وهم الأقلية القوية الحاكمة، هذا إضافة إلى معاناة المسلمين من نفس الإشكالات الثقافية والاقتصادية التى يعانيها مسلموا البلدان التى أسلفنا فى الحديث عنها.

ثانيا: منطقة غرب أفريقيا:

وهذه المنطقة الأكثر سخونة بعد القرن الأفريقى فى أفريقيا، وربما فى العالم، تضم دولاً مثل ساحل العاج وسيراليون وليبيريا وغانا وبوركينا فاسو وتوجو وبينين ونيجيريا، وكلها تطل على المحيط الأطلسى، باستثناء بوركينا فاسو التى تحول بينها وبين المحيط دولتا ساحل العاج وغانا.

١- ليبيريا:

هى جمهورية صغيرة فى غرب أفريقيا مساحتها ١١١,٣٧٠ كم٢، وسكانها ٢,١٦٤ مليون نسمة، عاصمتها مونروفيا، وقد تأسست حديثًا من مجموعات من السكان الأصليين، إضافة إلى أعداد من العبيد الذين كانوا فى أمريكا، جاءت بهم

(١) للمزيد حول مسلمى أوغندا انظر: -زياد صالح لوبانغا: المسلمون فى أوغندا تاريخ وتحديات. مجلة البيان: العدد (٩٩)، ص (٦٦ - ٧٥)، د/ محمد عثمان صالح: حول الإسلام والمسلمين فى أوغندا. مجلة الأمة - قطر: العدد ٦٣، ص (٣٠، ٣١).

الولايات المتحدة، وسلمت لهم الحكم، فحاولوا إجبار الشعب كله على ترك دياناته الوثنية والإسلامية ودخول المسيحية، حيث يوجد ١٥٪ من إجمالى السكان من المسلمين.

وحينما صعد الرئيس صموئيل دوه إلى الحكم، رفع عنهم القيود التى فرضت عليهم، وسمح لهم بالحركة والعمل والدعوة، حتى بدأ الإسلام يتقدم ونسبة المسلمين ترتفع، فما كان من بعض الجهات النصرانية المعادية للإسلام فى غرب أفريقيا إلا أن اجتمعت فى ندوة فى نوفمبر ١٩٨٩م، ليبدأ العمل الفورى من قبل عصابات تحت قيادة النصرانى تشارلز تيلور لتصفية المسلمين، واستئصالهم من البلاد إضافة إلى مواجهة رئيس الدولة والعمل على إسقاطه، لأنه رفض تصفية المسلمين، وقتل فى هذه الأثناء حوالى عشرة آلاف مسلم ، إضافة إلى تشريد حوالى ٥٠٪ من المسلمين إلى الدول المجاورة.

دُشنت هذه التصفية الجماعية للمسلمين فى مارس ١٩٩٠م، وبعدها زار وفد من مسلمى ليبيريا الكويت، وأجرت معهم مجلة المجتمع مقابلة مثيرة ومحزنة، عندما سئل أحدهم عن موقف الرئيس من هذه الجرائم قال: «عندما سمع الرئيس عن تلك الأحداث المؤلمة، فكان أول ما فعل هو عقد مؤتمر صحفى استنكر فيه هذه الأحداث المؤسفة بشدة، ولم يتمالك نفسه لشدة الصدمة، فأجهش بالبكاء خلال المؤتمر الصحفى[1].

وقد تصاعدت الجرائم ضد المسلمين وضد الرئيس دوه، الذى قتل فى هذه الأحداث عام ١٩٩٠م، وصعد تشارلزتايلور بدلاً عنه، واستمرت الحرب الأهلية بضع سنوات، وكان ضحيتها الأكبر هم المسلمون.

٢- سيراليون:

وهى جمهورية صغيرة تجاور ليبيريا ولها حدود معها ومع غينيا، وتطل على المحيط الأطلسى، تبلغ مساحتها ٧١,٧٤٠ كم٢، وسكانها ٥,٥٠٩,٢٦٣ نسمة

(١) انظر: المجتمع: العدد (٩٧٠)، ص (٢٢- ٢٥)، وفى نفس العدد ص- (٤، ٥) عددت المجلة المجازر والجرائم المرتكبة ضد المسلمين تحت عنوان (الحيوانات أغلى من المسلمين) وفى العدد السابق من المجلة ذاتها (٩٦٩) موضوع تحت عنوان: ذبح المسلمين فى ليبيريا على الطريقة الوثنية.

وعاصمتها فريتاون، وتتوزع الخارطة الدينية بين ٨٣٪ من المسلمين و١٠٪ من النصارى والبقية من ديانات محلية، ومع ذلك فإن حال المسلمين ليس أفضل بكثير فى سيراليون منه فى ليبيريا، حيث الحال من بعضه، والمعاناة واحدة، وإن كان المسلمون لم يتعرضوا لحرب تصفية شاملة، لكنهم يتعرضون لحملات جزئية، إضافة إلى الحصار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى، الذى يهدف إلى عزلهم إما لإجبارهم على التراجع عن دينهم أو لإضعافهم ونزع فعاليتهم، والعجيب أن الأقلية النصرانية منذ الاستقلال وهى تحكم البلد. وكان قائد عسكرى مسلم (يحى كانو) قد انقلب على الرئيس المسيحى فى أبريل ١٩٩٢م لكن المجلس الكنسى الأعلى ظل فى حالة طوارئ حتى تم إفشال الانقلاب بانقلاب آخر قاده عسكرى مسيحى، حيث ذهب القائد المسلم خارج البلاد، بينما ذهب القائد المسيحى إلى الكنيسة ليتحدث عن المسيحية، وذهب وزير الخارجية لإعادة العلاقات مع إسرائيل، بعد أن لعبت دورًا فى إحباط الانقلاب المسلم[1].

٣- بوركينا فاسو (فولتا العليا):

تقع فى غرب أفريقيا، غير أنها لا تطل على المحيط الأطلسى، مساحتها ٢٧٤,٢٠٠ كم٢، واستقلت عام ١٩٦٠م عن فرنسا وعاصمتها أوغادغو، تتكون من ٤٥ منطقة (محافظة) منذ عام ١٩٩٩م، يشكل المسلمون أغلبية فى ٢٢ إقليمًا حيث كانت نسبتهم فى التعداد الرسمى عام ١٩٩١م ٥٢,٣٪ بينما وصلت نسبتهم فى آخر إحصاء سكانى فى ١٩٩٨م إلى ٦٥٪، والكاثوليك ٨٪ والبروتستانت ٧٪ والوثنيون ١٩٪.

والمسلمون هناك أفضل حالاً من البلدان الأخرى، حيث لم يتعرضوا لما تعرض له إخوانهم فى ليبيريا وسيراليون، ومجمل التحديات التى تواجه المسلمين نابعة إما من جهتهم أنفسهم، وإما من التنصير، لكن الجمعيات الإسلامية نشيطة جدًا وتقارع التنصير فى كل ميدان ومنطقة[2].

(١) انظر المركز العالمى للكتاب الإسلامى - الكويت: حاضر العالم الإسلامى عام (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م): ص (١٧٠).

(٢) راجع عن هذه الأنشطة: متوكل فياما - يعقوب سعيد جابى: بوركينا فاسو وآمال المستقبل. مجلة البيان: العدد (١٧٤)، ص (٧٠ - ٧٣).

٤- نيجيريا:

هى أكبر الجمهوريات الإسلامية سكانًا فى عموم قارة أفريقيا، حيث يبلغ عدد سكانها ما يزيد قليلاً عن ١٢٣ مليون نسمة، مساحتها ٩٢٣,٧٦٨ كم٢، عاصمتها القديمة لاجوس، بينما عاصمتها الجديدة هى أبوجا، ويشكل المسلمون ما بين ٦٥-٧٧٪ من مجموع السكان، يتركز معظمهم فى الشمال الفقير، بينما يتركز المسيحيون فى الجنوب الغنى والمطل على المحيط الأطلسى، حيث يصب النيجر بعد أن يكوِّن دلتا عظيمة السعة والخصوبة.

ورغم أن الإسلام دخل نيجيريا على يد التجار المسلمين منذ القرن الثانى الهجرى، إلا أن أعدادًا كبيرة من الوثنيين دخلت الإسلام على يد الشيخ عثمان دان فوديو (١٧٥٤-١٨٠٤م) كداعية وكزعيم دولة بعد ذلك، ويقال بأن من أسلم على يديه وأيدى تلاميذه وأتباعه وصل إلى مليون إنسان[١]. استقلت عن فرنسا فى أيلول ١٩٦٣م، وتولى الحكم أبو بكر تفاوة كرئيس للدولة وأحمد بللو- حفيد عثمان بن فوديو- كرئيس للحكومة، بعد انتخابات ديمقراطية، سيطر فيها المسلمون على أكثر مقاعد البرلمان، لكن المسيحيين فى الجنوب- ربما بدعم من جهات خارجية- اتهموا أحمد بللو بتزييف الإحصاء السكانى لصالح المسلمين، وثاروا ضد الحكومة فى سلسلة من المجازر الدموية التى أودت بالرئيسين المسلمين، ومن تلك الآونة ظلت نيران الحرب الطائفية تتأجج بين الطرفين، بين آونة وأخرى لأسباب عدة، لكن ضحاياها من المسلمين أكثر مع أنهم الأكثرية، لأن النصارى منظمون وفاعلون، حيث نسبة التعليم بينهم مرتفعة، ويسيطرون على مفاصل الاقتصاد والجيش والمؤسسات الأمنية، رغم أنهم أقلية.

ويركز المنصِّرون على نيجيريا- كأكبر دولة إسلامية فى أفريقيا - مثلما يركزون على إندونيسيا كأكبر دولة فى آسيا، وهذا ربما يفسر هبوط نسبة المسلمين من ٧٧٪ إلى ٦٩٪ فى الإحصاءات الأخيرة.

عانت نيجيريا من الانقلابات العسكرية المتوالية من بعد استشهاد أحمد بللو، وتوالى على حكم البلاد مسيحيون ومسلمون، وعندما عاد الحكم الديمقراطى

(١) محمد رضا القهوجى: حاضر العالم الإسلامى: ص (١٤٧) (بتصرف).

وقسمت نيجيريا إلى أقاليم ضمن حكم فدرالى اختارت بعض ولايات الشمال ذات الأغلبية المسلمة تطبيق الشريعة الإسلامية، فجن جنون النصارى، الذين خرجوا إلى الشوارع فى المدن الإسلامية فى الشمال فى احتجاجات بدأت من فبراير ٢٠٠٠م، رغم أن رئيس الدولة المنتخب كان نصرانياً، ولم ير فى الدستور النيجيرى ما يمنع ذلك.

ورغم أن نيجيريا دولة نفطية، وهى الثالثة فى أفريقيا فى هذا الجانب، إضافة إلى امتلاكها الكثير من الثروات المعدنية والزراعية، إلا أن شعب نيجيريا يعانى من الفقر والبطالة والأمية، وكل هذه الآفات منتشرة بقوة بين المسلمين، بينما لا توجد إلا نسبة بسيطة من الديانات الأخرى، إضافة إلى تمزيق المسلمين مذهبياً وطائفياً وسياسياً، حيث تكثر الفرق الصوفية والفكرية، وينشط الشيعة، وتكثر الاختلافات وتتعدد الجماعات، مما أثمر صعود رئيس مسيحى منتخب فى أكبر دولة إسلامية فى أفريقيا، مع مطلع الألفية الثالثة.

*** مراجع إضافية حول قضايا المسلمين فى أفريقيا، وخاصة فى الشرق والغرب:**

أ- حول أفريقيا عامة:

١- د. عبد السلام إبراهيم بغدادى: الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات فى أفريقيا.

٢- د. عماد الدين خليل: مأساتنا فى أفريقيا - الحصار القاسى.

٣- رابطة العالم الإسلامى: الأقليات المسلمة فى أفريقيا.

٤- عنايات الطحاوى: أفريقية الإسلامية.

٥- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية.

٦- عبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام فى أفريقيا.

ب- حول شرق أفريقيا:

١- عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا.

٢- غالى عودة: أرتيريا بلاد المسلمين وصراع النفوذ.

٣- د. أحمد الأصبحى: إطلالة على البحر الأحمر والنزاع اليمنى الإرتيرى.

٤- حامد صالح تركى: إريتريا والتحديات المصيرية.

٥- محمود شاكر: سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية فى: الحبشة، الصومال، تشاد، تنزانيا، أوغندا، السودان، بورندى.

٦- فتحى غيث: الإسلام فى الحبشة.

٧- محمد أحمد مشهور: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام فى إفريقيا الشرقية.

جـ - حول غرب أفريقيا:

١- عبد القادر محمد سيلان: المسلمون فى السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل (كتاب الأمة رقم ١٢).

٢- عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غربى أفريقيا.

٣- محمود شاكر: سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية فى: غينيا، نيجيريا، موريتانيا، السنغال، مالى، سيراليون.

***

المبحث الثانى

المناطق الساخنة فى آسيا

هناك ثلاث مناطق إسلامية ساخنة فى قارة آسيا، الأولى فى وسط آسيا والقوقاز، وتضم الجمهوريات الإسلامية الست المستقلة عن الاتحاد السوفيتى والجمهوريات التى ما تزال محتلة من قبل السوفيت فى منطقة القوقاز، مثل الشيشان وأنجوشيا وتتارستان، وسندخل مع هذه المجموعة أفغانستان لاقترابها من هذه الجمهوريات، رغم أنها محسوبة عند الجغرافيين من منطقة جنوب غرب آسيا. أما المنطقة الثانية فتضم بلدان جنوب شرق آسيا، وتضم الثالثة جنوب آسيا (شبه القارة الهندية).

أولا منطقة وسط آسيا والقوقاز:

فى هذه المنطقة الساخنة هناك بؤرتان لهذه السخونة الإسلامية الرافضة للتبعية والانهزام، والرافضة للانصياع، وهما: الشيشان وأفغانستان، وبينهما جيوب بسيطة.

١- الشيشان وجمهوريات القوقاز:

فى منطقة القوقاز مجموعة من الشعوب ذات الأغلبية المسلمة، مازالت تشكل جمهوريات ذات حكم ذاتى تحت الاتحاد الروسى، وأهم هذه الجمهوريات هى:

١- بشكيريا: مساحتها ١٤٠ ألف كم٢، وسكانها ٤ مليون نسمة أغلبهم مسلمون.

٢- جمهورية القرم: مساحتها ٢٨ ألف كم٢. وقد هُجِّر التتار أيام ستالين فى طول البلاد وعرضها، ولم يبق منهم فى موطنهم الأصلى أكثر من نصف مليون ويحاول التتار حاليًا العودة إلى بلادهم.

وكانت القبائل فى شبه جزيرة القرم قد دخلت الإسلام بصورة جماعية، بعد اعتناق (بركة خان) أمير القبيلة الذهبية فى القرم للإسلام عام ١٢٦٧م، وظل

فى انتشار حتى صار دين الأغلبية، لكن روسيا سيطرت بصورة تامة على هذه البلاد عام ١٨٧٣م، ومنذ ذلك الوقت ظل المسلمون يتناقصون فى مقابل ازدياد الروس، واليوم هى جمهورية ذات حكم ذاتى ضمن جمهورية أوكرانيا، وعاصمتها سيمغيروبل، يبلغ سكانها ٢,٤ مليون نسمة، يمثل الروس ٥٥٪ والأوكران ٣٠٪ والتتار ١٢٪.

٣- جمهورية تتاريا: ومساحتها ٦٨ ألف كم٢ وسكانها ٥ مليون نسمة.

٤- جمهورية داغستان: مساحتها ٥٠ ألف كم٢، وعدد سكانها فى حدود ٤ مليون نسمة.

٥- كباردیا: مساحتها ١٢,٥ ألف كم٢ وسكانها فى حدود المليون.. كلهم مسلمون.

٦- شاشان أنغوشى: مساحتها ٢٣,٢ ألف كم٢ وسكانها فى حدود ٢,٥ مليون نسمة كلهم مسلمون.

٧- أوستينيا الشمالية: مساحتها ١١,٥ ألف كم٢، وسكانها نصف مليون نسمة كلهم مسلمون.

٨- كراتشاى الشركسية: مساحتها ١٣,٥ ألف كم٢، وسكانها نصف مليون نسمة.

٩- الأديجة: مساحتها ٤٠ ألف كم٢، وسكانها فى حدود نصف مليون نسمة[١].

ويواجه المسلمون فى هذه المناطق خطر التذويب، حيث ربطت روسيا مقومات الحياة كلها فى هذه الجمهوريات بها، إضافة إلى تنظيم ونشاط الأقليات الروسية فى هذه الجمهوريات.

وعبر التاريخ، ظلت الشيشان، رغم صغر حجمها السكانى، القائدة والملهمة لهذه المنطقة، حيث اشتهر الشيشانيون بالشجاعة والبسالة والإباء، ولذلك ما إن

(١) المركز العالمى للكتاب الإسلامى: حاضر العالم الإسلامى (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م): ص (٢٩٧، ٢٩٨). وانظر استطلاعين عن التتار المسلمين فى: مجلة العربى: العدد (٣٤٥)، أغسطس ١٩٨٧م، ص (١٣٢). قنستنطين ماتفيف: تتارستان تصنع حياتها الجديدة، مجلة النور - لندن: (٦٢)، صفر ١٤١٧هـ - يوليو ١٩٩٦م، ص (٤٩-٥٢).

سقط الاتحاد السوفيتى، وأعلنت الجمهوريات المكونة له الاستقلال، حتى هب الشيشانيون للمطالبة بالاستقلال، رغم أنهم ضمن جمهوريات الاتحاد الروسى وليس الاتحاد السوفيتى، وتصاعدت مطالب الاستقلال، ووصلت إلى حد الإعلان عن الجهاد فى ١٩٩٢م، واستمرت الحرب التى ضرب فيها الشيشانيون أروع الأمثلة فى الشجاعة والتضحية، حتى اضطرت روسيا إلى إعلان هزيمتها وانسحابها من الشيشان فى ١٩٩٤م وتولى قيادة البلاد الزعيم الإسلامى جوهر دودايف، الذى اغتيل فيما بعد بمجموعة صواريخ روسية.

ورغم تمتع الشيشان بخيرات الاستقلال، إلا أنها رفضت التنعم بها وحدها، وبدأت تحرض المسلمين فى القوقاز، وخاصة جارتها أنجوشيا على التمرد ورفع راية الجهاد ضد روسيا، ولما شعر الروس بأن الحريق بدأ ينتقل إلى أنجوشيا، حيث ثبت أن القائد الشيشانى شامل باساييف ذهب بنفسه إلى هناك، مقاتلا مع المسلمين، عند ذلك فكرت روسيا كيف سيكون مستقبلها بدون جمهوريات القوقاز التى تمتلك الكثير من الخيرات ومنها النفط والغاز فعادت فى ١٩٩٦م لاحتلال الشيشان من جديد.

ومن تلك الأثناء قام الشيشانيون بعمليات عسكرية بطولية دوخت الروس، وجعلت الجنود يفرون من معسكراتهم، متمردين على قادتهم، وبعضهم انتحر حتى لا يستمر فى حياة الرعب من المجاهدين.

وفى المقابل فإن الروس ارتكبوا كل ما يخطر وما لا يخطر على البال من جرائم ضد السكان المدنيين من أجل إرهاب المقاومة، حيث قتل الآلاف، وفر أكثر من نصف السكان إلى أنجوشيا. وبلغ الإجرام بالروس حد قيام بعضهم بتقطيع أطفال المسلمين وهم أحياء أمام آبائهم وأمهاتهم، وإلقائهم طعامًا للخنازير قائلين: أنتم لا تأكلون لحم الخنزير، والخنزير يأكلكم اليوم، ولبشاعة الجرائم التى ارتكبت فى حق الشعب الشيشانى قدم عدد من المسئولين الروس استقالتهم من مناصبهم منهم الجنرال «سافين»[1].

(١) المجتمع: العدد (١١٣٣)، ص (٢١)، وانظر: مجلة البيان العدد (١٥٠)، ص (١٢٦ - ١٢٩)، مجلة العربى العدد (٤٣٢)، ص (١٣٢ - ١٥١) (استطلاع).

٢- جمهوريات تركستان ووسط آسيا:

تركستان تاريخياً تضم معظم وسط آسيا، وقد انقسمت إلى قسمين منذ بداية القرن العشرين، حيث أخذ السوفيت تركستان الغربية، وتضم أنحاء واسعة من الجمهوريات الست الإسلامية التى استقلت عام ١٩٩٠م عن الاتحاد السوفيتى، وخاصة كازاخستان.

أما تركستان الشرقية، وتبلغ مساحتها ٢,٧٠٠ كم٢ فقد ضمتها الصين، ومارست عليها ستاراً حديدياً، حتى أن أحد لا يعرف بالضبط كم عدد المسلمين فى الصين، حيث يتركز معظمهم فى تركستان الشرقية، لدرجة أننى وجدت التباين فى المصادر عن عدد المسلمين هناك ما بين ١٠ - ١٠٠ مليون نسمة ووفقًا لإحصائيات رسمية صينية جرت عام ١٩٨٨م فإن تعداد المسلمين فى الصين يساوى ١٨ مليون نسمة. ولكن مصادر محايدة تشكك بهذا الرقم، وتقول: إن المسلمين ما بين ٥٠ - ٧٠ مليون نسمة.

ويعانى المسلمون فى الصين من التخلف والجهل بالإسلام، إضافة إلى معاناتهم من الظلم والطغيان والاضطهاد الدينى، وأمامى خبر يتحدث عن مقتل ١٢٠٠ صينياً مسلمًا لرفضهم أكل لحم الخنزير، وأن الدولة بنت مشروعًا فندقياً سياحياً فاخرًا، فى مقبرة ومزار إسلامى شهير، يقع فيه قبر الصحابى الجليل أبو وقاص، وبتمويل من عدة شركات يهودية[1] وقد ركبت الصين موجة محاربة الإرهاب لتصفية حسابها مع المسلمين حيث اتهمتها منظمة العفو الدولية بسجن الآلاف من المسلمين؛ لأدائهم (الشعائر التعبدية) وذلك بعد بضعة أشهر فقط من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

أما جمهوريات تركستان الغربية ووسط آسيا الإسلامية فهى كالتالى:

١- جمهورية كازاخستان: وهى تمثل معظم أراضى تركستان الغربية، ومساحتها هى الأكبر فى العالم الإسلامى، حيث تصل إلى ٢,٧١٧,٣٠٠ كم٢، وسكانها حوالى ١٧ مليون نسمة، يمثل المسلمون ٦٠٪ من السكان، عاصمتها الجديدة هى

(١) مجلة الدعوة: العدد (١٠٤)، ص (٣٨).

أستانا، أهم منتجاتها: القطن والفواكه، وهى غنية بالمعادن والنفط، ويقال: إن فيها كميات كبيرة من اليورانيوم، وقد ورثت عن الاتحاد السوفيتى ١٨٠٠ رأسًا نوويًا.

٢- أوزبكستان: وهى أكبر الجمهوريات الإسلامية سكانًا فى تلك المنطقة، حيث يصل سكانها إلى ما يزيد عن ٢٤ مليون نسمة، بينما تصل مساحتها إلى ٤٤٧,٤٠٠ كم٢، وتصل نسبة المسلمين فيها إلى ٩٠٪، وهى تضم أعرق المدن والحضارات الإسلامية، وعاصمتها طشقند التى خرجت الكثير من العلماء عبر التاريخ، إضافة إلى بخارى وسمرقند اللتين خرج منهما كثير من أعلام الحديث الشريف.

تنتج القطن والفواكه والحبوب، وفيها بعض المعادن، إضافة إلى النفط، لكن إنتاجها منه ما يزال قليلاً، مقارنة بالجمهوريات الأخرى فى تلك المنطقة، ويعانى الشعب من استمرار حكم الشيوعيين، رغم سقوط الشيوعية، ولكن بلافتات جديدة، مرتبطة بالليبرالية تارة وبالقومية تارة أخرى.

٣- قرغيزيا (قرغيزستان) مساحتها ١٩٨,٥٠٠ كم٢ وسكانها حوالى ستة مليون نسمة، معظمهم من المسلمين، عاصمتها بيشكيك، وتنتج القطن والحبوب والمعادن بكميات كبيرة.

٤- طاجيكستان: مساحتها ١٤٣,١٠٠ كم٢ وسكانها ٦,٣٧٤,٠٠٠ نسمة، وعاصمتها دوشانبيه، وهى أفقر هذه الجمهوريات وأكثرها تمزقًا، حيث دارت حرب أهلية فى منتصف التسعينات بين المعارضة وبقايا الحكم الشيوعى الذى انقلب على الديمقراطية، وعاد إلى الحكم الشمولى، وإلى التضييق على الإسلاميين والقوميين، وقامت بدور كبير فى دعم تحالف الشمال الأفغانى مع الولايات المتحدة ضد طالبان. تشتهر بتربية المواشى والصناعات الجلدية، إضافة إلى تصنيع النسيج والصناعات الهندسية والحديد والصلب.

ومن الناحية الثقافية، فإنها الجمهورية الوحيدة من بين جمهوريات وسط آسيا الست التى تتكلم اللغة الفارسية، وهذا ما قارب بينها وبين إيران وأفغانستان.

٥- تركمانستان: مساحتها ٤٨٨ ألف كم٢، وسكانها يزيدون عن خمسة ملايين، وعاصمتها التاريخية عشق أباد، لكنها غيرت فى مطلع الألفية الثالثة.

تنتج القطن والحبوب والفواكه، وتشتهر بصناعة الغزل والنسيج والفرو، إضافة إلى التعدين والمواد الكيماوية.

٦- أذربيجان: وهى أقدم دولة فى العالم تنتج النفط ومن أغناها فيه، مساحتها ٨٧ ألف كم٢، وسكانها ٧,٧٣٤,٠٠٠ نسمة، ينتمى ٨٥٪ منهم إلى الإسلام. وهى الجمهورية الوحيدة التى يشكل الشيعة فيها نصف السكان أو أكثر قليلاً، بينما بقية الجمهوريات كلها سنِّية بالكامل، أو فيها أقليات شيعية بسيطة باستثناء طاجيكستان التى تجتمع مع إيران باللغة الفارسية والمذهب الشيعى، مثلما تجتمع إيران مع أذربيجان فى الانتماء المذهبى والعرقى، حيث يوجد إقليم فى إيران يسمى أذربيجان الفارسية وسكانه يناهز سكان جمهورية أذربيجان.

ومن أهم منتجاتها: القطن والحبوب والفواكه والنفط والغاز، وبعض المعادن، وتمتلك احتياطيات هائلة من النفط المكتشف حديثًا وسط بحر قزوين، مثلها مثل الدول المطلة على هذا البحر، لكنها أغناها جميعًا مع صغر حجمها.

وتعانى هذه الجمهوريات من مشاكل مشتركة ومتقاربة، ومعظمها مرتبط بالتحديات العامة التى يواجهها العالم الإسلامى من تخلف وتبعية وتمزق وفقر، إضافة إلى غياب الحريات، حيث ما تزال الأنظمة الشيوعية الدكتاتورية هى التى تحكم فى الغالب فى هذه الجمهوريات وإن حاولت تغيير جلدها، أو تعديل بعض سياساتها، لكن سياساتها الاستبدادية القمعية، وخاصة للتيارات الإسلامية والقومية ما تزال هى الحاضر الأبرز.

وهناك مشاكل حدودية بين بعض هذه الجمهوريات، حيث حرصت روسيا القيصرية ثم روسيا السوفيتية على تغيير معالم الحدود، وانتزاع بعض الأقاليم من بلد إلى بلد والعكس، حتى تظل هذه المشاكل مانعة من الاستقرار وإقامة العلاقات الطبيعية، ولتستخدمها كقنابل موقوتة يتم تفجيرها فى الوقت المناسب.

٣- أفغانستان:

مساحتها حوالى ٦٥٠ ألف كم٢، وسكانها ٢٨ مليون نسمة، وعاصمتها كابول، وهى من أكثر النقاط توترًا وسخونة فى العالم. ظلت بسبب بأسها الشديد

وانحيازها الكامل عرضة للغزاة الإنجليز والروس. لكنهم كانوا دومًا يبوؤون بالفشل الذريع والهزيمة المنكرة.

تولى الملك ظاهر شاه حكمها من (١٩٣٣ - ١٩٧٣م) حتى انقلب عليه ابن عمه رئيس الحكومة محمد داود الذى كان مواليًا للشيوعيين والذين سرعان ما انقلبوا عليه بصورة دموية وسيطروا على الحكم بمفردهم، لكن الشعب بدأ يواجههم، مما حدا بالسوفييت للتدخل المباشر بغزو أفغانستان سنة ١٩٧٩م.

وطيلة ما يزيد عن عشر سنوات خسر السوفييت عشرات الآلاف من جنوده وعشرات المليارات من الدولارات إضافة إلى مئات الطائرات والدبابات، وآلاف الأسرى، وكان ذلك أول مسمار فى نعش الشيوعية، مما اضطر السوفييت إلى الانسحاب راغمين فى ١٥ فبراير ١٩٨٩م.

ورغم قوة المجاهدين فى هذه الفترة، حيث وصل عددهم إلى مليونين، إلا أنهم بسبب اختلافهم عجزوا عن اقتحام كابول إلا فى ٢٨/ ٤/ ١٩٩٢م عندما انهارت الحكومة الشيوعية بالكامل، ومع ذلك فإن سقوط العدو المشترك، زاد من اختلاف وتشرذم فصائل المجاهدين، وخاصة الفصيلين الرئيسيين، الحزب الإسلامى بقيادة المهندس قلب الدين حكمتيار، والجمعية الإسلامية بقيادة البروفيسور برهان الدين ربانى.

ومن أجل حسم الصراع بين هذين الحزبين وغيرهما، وقعت عدة اتفاقيات بوساطات داخلية وباكستانية وعربية، ومنها اتفاقية مكة فى مارس ١٩٩٣م واتفاق جلال آباد فى مايو ١٩٩٣م، لكنها باءت بالفشل، حيث كان الخرق يبدأ من القواعد، وسرعان ما يسرى إلى القيادات، فى ظل قابلية شديدة للتمزق، بسبب الانتماءات العرقية والطائفية المتعددة للفصائل المتقاتلة، وكذلك دور الشيوعيين والشيعة، والدور الخارجى وبالذات الأمريكى والإيرانى والروسى والهندى والباكستانى.

وبسبب هذا التشرذم، وجدت حالة من الملل فى أوساط الشعب الأفغانى، وخاصة عندما ظهرت عصابات للسلب والنهب وقطع الطرق، وفى منتصف

نوفمبر ١٩٩٤م وقعت حادثة كانت السبب فى ظهور حركة طالبان، حيث قام مجموعة من اللصوص بالقرب من مدينة قندهار بالسطو على حمولة ٢٠ شاحنة من مواد الإغاثة، فقام مجموعة من خريجى وطلاب المدارس الدينية التقليدية الذين يدرس أكثرهم فى باكستان بمهاجمة اللصوص واستعادة المسروقات، فأعجب الناس بهؤلاء، وتدخلت باكستان بدعم هؤلاء بقوات ومدربين، فبدأ تقدم «طالبان» نحو توحيد أفغانستان والسيطرة على السلطة، حتى سقطت كابول فى ١٩٩٦/٩/٢٧م وسرعان ما بدأت الخارطة السياسية فى أفغانستان بالتبدل، ولكن بعد فوات الأوان، حيث لم تجد محاولات الفصائل المتحاربة للتوحد فى الوقوف أمام طالبان التى يبدو أنها كانت تحظى بدعم إقليمى ودولى غير معلنين، من أجل اجتثاث أحزاب المجاهدين، إضافة إلى قابلية لدى الشارع الأفغانى الذى مل من التمزق والاختلاف وكره الجميع، وظلت طالبان تتقدم حتى سيطرت على ٩٥٪ من الأراضى الأفغانية، وبدأت بإقامة نظام إسلامى على النمط التقليدى الذى لم يستوعب روح العصر ولا جوهر الإسلام، وحدثت العديد من الأخطاء التى كانت وسائل الإعلام العالمية تتناقلها بعد تضخيمها بشدة حتى بدأت تظهر حالة فزع فى الدول المجاورة من إمكانية انتقال المد الطالبانى إليها، وخاصة بعد تدمير طالبان لتمثال بوذا، وتضخيم مواقفها من تعليم المرأة، والزعم أنها تسمح بزراعة وترويج المخدرات، رغم أن تقريرا للأمم المتحدة، كان قد قال: إن زراعة المخدرات فى أفغانستان تناقصت فى عهد طالبان بنسبة ٩٠٪.

وبعد تفجير سفارتى أمريكا فى نيروبى (كينيا) ودار السلام (تنزانيا) فى ١٩٩٦م وجهت أمريكا ضربة عسكرية لأفغانستان والسودان، بعد أن اتهمت أسامة بن لادن بالمسئولية عن ذلك، وكان ابن لادن فى تلك الأثناء قد استقر فى أفغانستان بعد أن غادر السودان، وفى ١٩٩٧م توجهت كل من أمريكا والسعودية بطلب إلى طالبان بتسليم بن لادن، ولكن بدون جدوى، وفى سبتمبر ٢٠٠٠م وجهت ضربة قاصمة للمدمرة الأمريكية «كول» فى ميناء عدن، وترددت أخبار عن علاقة جماعة (القاعدة) التى يقودها ابن لادن بذلك الحادث. وفى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وجه مجهولون ضربة قاتلة لبرجى مركز التجارة الدولى فى نيويورك، وعلى الفور

أعلنت أمريكا فى ١٣ سبتمبر ٢٠٠١م عن مسئولية ابن لادن عن الحادث، ثم تولت أجهزة المخابرات الأمريكية وحليفاتها وأجهزة الإعلام الدولية صنع أسطورة اسمها «القاعدة» تحت قيادة (ابن لادن) من أجل تحقيق أهداف استراتيجية عديدة فى العالم الإسلامى، وتجفيف منابع الإسلام، وقمع محاولات الانعتاق من التبعية الغربية، كل ذلك تحت حجة محاربة الإرهاب.

وفى أكتوبر ٢٠٠١م شنت الولايات المتحدة الأمريكية حربًا عسكرية شاملة ضد أفغانستان بعد أن رفضت طالبان تسليم ابن لادن، واشتركت فى هذه الحرب أعداد كبيرة من الدول الغربية والإسلامية، فى أدوار متعددة. بل واشتركت أحزاب الشمال فى القتال ضد طالبان التى تنتمى إلى الجنوب حيث قومية (البشتو) بدعم من إيران وأوزبكستان وطاجيكستان وروسيا، وكل ذلك ساهم فى إسقاط حكومة طالبان فى مدة وجيزة.

وقد ظلت القوات الأمريكية فى أفغانستان فى تلك الأثناء، رغم قيادة حكومة محلية من الأحزاب والشخصيات التى كانت رأس حربة فى معركة أمريكا مع طالبان، والتى خسرتها طالبان بسرعة، بسبب أخطاء استراتيجية وتكتيكية كثيرة، ورغم عمليات القمع للشعب الأفغانى بحجة محاربة طالبان، فإن هناك حرب عصابات يمكن أن تتطور على المدى المتوسط والبعيد إلى حرب استنزاف شاملة، فالشعب الأفغانى لم يعرف فى تاريخه الاستكانة للأجنبى أبدًا[1].

ثانيًا: منطقة جنوب آسيا (شبه القارة الهندية):

وتضم هذه المنطقة الهند وباكستان وكشمير وبنجلاديش وبوتان ونيبال وسريلانكا وجزر المالديف.

١- الهند:

يشكل المسلمون فى الهند أكبر أقلية فى العالم، حيث تتراوح نسبتهم بين ١٢ - ٢٠٪، ونرجح أن النسبة هى ١٧٪، وهذا يعنى أن عدد المسلمين هناك يزيد عن

(١) انظر للمزيد: مجلة البيان: العدد (١٩٩)، ص (١٠٩ - ١٢٠) (حول تلاقى المصالح على حرب الإسلام فى آسيا الوسطى) وحول مسلمى الصين انظر مجلة الفيصل - الرياض: العدد (٦٩)، ص (٦٧ - ٧٠).

١٧٠ مليون نسمة، لأن آخر إحصاء سكانى للهند أوضح أن السكان وصلوا إلى مليار وخمسين مليون نسمة.

وبقدر ما يشكل المسلمون هناك أكبر أقلية إسلامية فى العالم، فهم الأوفر حظاً بالتضييق والحرب والتصفية، حيث يقتل كل عام آلاف من المسلمين فى مناسبات ومواسم معينة، من ضمنها مناسبة عيد الأضحى، بسبب ذبح الأبقار، والمناسبات الدينية للهندوس، والمناسبات الدينية والوطنية للمسلمين، والمتعلقة خصوصًا بأحداث فترة الحكم الإسلامى للهند التى استمرت أكثر من خمسة قرون، حتى سقطت آخر دولة إسلامية على يد الإنجليز فى القرن الثامن عشر.

وقد قدرت عدد المجازر التى ارتكبها الهندوس ضد المسلمين، منذ استقلال الهند سنة ١٩٤٧م حتى مطلع التسعينات بحوالى ٤٠ ألف مجزرة، إضافة إلى هدم عشرات الآلاف من المساجد، ومنها المسجد البابرى التاريخى عام ١٩٩٢م، ومحاولة بناء معبد (راما) المزعوم على أنقاضه.

وعن المجازر التى ارتكبت فى حق المسلمين عام ١٩٨٤م قال صحفى هندى بارز: إن الهدف الأساسى من إقامة المذابح ضد المسلمين هو تأديبهم وتعليمهم ليعرفوا المشى خاضعى الأعناق، مطأطئى الرؤوس فى أرض الهند[١] ووصل أمر التضييق على المسلمين، ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية إلى حد أن زعيمًا هندوسيًا اسمه «بيكنت لال شرر مابريم» طالب بحذف سبع وعشرين آية من القرآن، لأنها حسب زعمه تثبت الكراهية ضد عبدة الأصنام[٢].

وتبلغ المحنة مداها بالنسبة للمسلمين هناك، إذا علمنا أن معظم التيارات والفئات الهندية مناصبة للمسلمين العداء، سواء كانت معتدلة أو متطرفة حاكمة أو معارضة، أمية أو مثقفة.

وتشترك الصحافة العلمانية المزعومة فى التحريض على المسلمين، فهذه جريدة (أندين اكسبريس) تنادى بجمع كلمة الهندوس لمواجهة المسلمين، وجريدة «برتاب» تدعو إلى جمع التبرعات للوقوف أمام الخطر الداهم المزعوم من قوة المسلمين

(١) مجلة المجتمع: العدد (٦٦١)، ص (٣٤).

(٢) المجتمع: العدد (٨٦١)، ص (٣٤).

وجريدة «اركنا مئزر» تدعو بشكل علنى لمحاربة المسلمين وإجبارهم على الاندماج فى الثقافة الهندوسية وقبول التيار لهندكة كل ما يتعلق بالعقيدة والسلوك والقانون[١].

وهذه أنديرا غاندى، رئيسة الحكومة الأسبق وصديقة العرب، فى زيارة لها إلى تبرمى وفى معرض حديثها عن الحضارة الهندية هناك عام ١٩٨٢م قالت: إن الهندوس قد انتقموا لأنفسهم من الاحتلال الإسلامى للهند والذى دام ما يقرب من ألف عام، وذلك باقتطاع بنجلاديش عن باكستان عام ١٩٧١م[٢] أما ابنها راجيف غاندى الذى تولى رئاسة الحكومة الهندية بعد مقتلها، ففى لقائه بمجموعة من الصحفيين الأمريكيين قال بأن أى سلاح تنتجه باكستان يعد قنبلة إسلامية[٣].

أما ما ارتكب من جرائم منذ صعود حزب «بهارتيا جاناتا» المتطرف إلى السلطة، فهو أعصى على الوصف، فهذه الجرائم التى أشرنا لبعضها سلفًا، كلها حدثت فى عهد حزب «المؤتمر» الهندى الذى أسسه فى الأصل القائد المسلم محمد على جناح - مؤسس باكستان فيما بعد - وغاندى الأب الروحى للهند الحديثة. أما الحزب الهندوسى المتطرف، فقد ظل يستخدم جماجم المسلمين وقودًا لحملاته الانتخابية، حتى نجح فى اكتساح المؤتمر الهندى وإقصائه عن السلطة، وعلى سبيل المثال لخص هذا الحزب برنامجه الانتخابى فى أواخر ١٩٩١م بـ «أيوديا» وهى تعنى بكل بساطة هدم أكثر من ألفى مسجد للمسلمين بينها مسجد «بابرى» بمدينة (أيوديا) يقول أدفانى زعيم هذا الحزب - والذى أصبح وزيرًا للخارجية ونائبا للرئيس - فى حملاته الانتخابية: «دعونا نتحد أيها الهندوس لبناء المعبد فوق المسجد، وإذا كان ذلك يقتضى وقوع حمامات من الدماء فلم لا نفعل ذلك؟.. لشرفنا نحن مستعدون للتضحية بأنفسنا، ولكن قبل ذلك سوف نرتكب آلاف المجازر ضد أعدائنا من المسلمين.. إن هؤلاء المسلمين الغزاة.. ليس لهم مكان فى بلادنا، بعد أن دنسوا إلهنا رام[٤].

(١) المجتمع: العدد (٧٧٦)، ص (٢٢، ٢٣).

(٢) مجلة البنيان المرصوص: باكستان: ديسمبر ١٩٩١م، ص (٤٣).

(٣) المجتمع: العدد (٨٩٩)، ص (٤٢).

(٤) البنيان المرصوص: ديسمبر ١٩٩١م، ص (٣٩).

وهناك شهادات لصحف هندية ولكتاب هندوس عن بشاعة الجرائم التى ارتكبت فى حق المسلمين هناك وعن تآمر الدولة كلها عليهم بسلطاتها الثلاث بما فيها السلطة القضائية التى أعطت الإذن بهدم مئات المساجد، وعن تزييف المناهج الهندية للتاريخ الإسلامى فى الهند، وعن حرمان المسلمين من الترقى فى السلم الوظيفى، وحرمان الضباط فى الجيش والأمن من الوصول إلى المناصب، خاصة إذا كانوا مسلمين، وهناك الكثير مما يجب قوله ومعرفته، ولكن المقام لا يسمح، والمساحة لا تتسع بأكثر من هذا[١].

وننهى الحديث عن مسلمى الهند بالإشارة إلى حزب «بهارتيا جاناتا» الهندوسى المتطرف، والذى ضاعف مقاعده الانتخابية فى ١٩٨٩م أربعين ضعفًا عما كان عليه من قبل؛ لأنه كان الأكثر تعبيرًا عن الحقد الهندوسى على المسلمين، حيث كانت من أبرز النقاط فى برنامجه الانتخابى، إلغاء لجنة حقوق الأقليات التى تتولى رفع بعض المظالم عن المسلمين، إنهاء الإدارة الإسلامية لإقليم جامو وكشمير، ومن شعارات الحزب الجماهيرية: هندو هندى، هندوستان، يذهب الملا باكستان، وكذلك: للمسلمين مكانان، باكستان أو قبرستان[٢].

٢- باكستان وكشمير:

عندما احتلت بريطانيا الهند، سقطت آخر دولة للمسلمين على أيدى الغزاة فى شمال الهند، وظل المسلمون لاعتبارات مرتبطة بدينهم وبمصالحهم، هم الأكثر مقاومة للاحتلال الإنجليزى للهند، وكان قد اتفق قادة المسلمين - منهم محمد على جناح - مع قادة الهندوس وعلى رأسهم غاندى أنهم بعد تحرير الهند من الإنجليز سيقيمون دولتين فى شبه القارة الهندية، فى مناطق الأغلبية المسلمة ستقوم دولة باكستان، وبقية المناطق ستظل الهند.

---

(١) راجع: مجلة الرسالة - لبنان: ٥ تموز ١٩٧٩م، ص (٢٤ - ٢٦)، مجلة البيان: العدد (١٧٤)، ص (٥٤ - ٦١)، قضايا دولية: ص (٢٨١)، ص (١٦، ١٧)، قضايا دولية: ص (٣٣٨، ٣٣٩)، ص (٣٠-٣٣٢)، الإصلاح: ص (١١٤)، ص (١٤، ١٥)، البيان، ص (١٧٢)، ص (٩٢ - ٣-١) مجلة المجتمع: ص (٦٦٨)، ص (٣٤، ٣٥)، مجلة العربى، أكتوبر ١٩٩٣م، ص (٢٨-٣٤).

(٢) مجلة الإصلاح - الإمارات: ص (١٤-)، يناير ١٩٩٠م، ص (٣١).

وقد حدث الاستقلال فى ١٩٤٧م وتم تنفيذ الاتفاق، لكن بعض التيارات الهندوسية المتطرفة. ضغطت على سلطة دلهى، فرفضت تسليم إقليم كشمير، رغم أن نسبة المسلمين فيه كانت أكثر من ٩٠٪ بل واتفقت مع سلطان كشمير الهندوسى على توقيع صك تنازله عن كشمير لصالح الهند، ومن هنا بدأت المشاكل حول إقليم كشمير، فقد أرادت الهند أن تخنق باكستان عبر كشمير، لأنه أغنى أقاليم شبه الجزيرة الهندية بالزراعة والمياه والغابات، ومعظم منابع الأنهار الكبرى فى القارة تأتى منه، وحدثت أول حرب بين الدولتين الوليدتين على إقليم كشمير بعد الاستقلال بعامين، أي: فى عام، ١٩٤٩م واستطاعت باكستان أن تحقق نصراً جزئياً، وانتزعت ثلث كشمير، وظل الثلثان بيد الهند من تلك الأثناء، وطلبت الهند من الأمم المتحدة التدخل لحل المشكلة، فأصدرت قراراً يقضى بعمل استفتاء بين أوساط المواطنين الكشميرين حول رغبتهم فى البقاء مع الهند أو الانضمام إلى باكستان أو الانفصال بدولة مستقلة، ورغم أن هذا القرار يناقض الاتفاقية السابقة القاضية بانضمام كل الأقاليم التى يزيد المسلمون فيها عن ٥٠٪ إلى باكستان، غير أن باكستان وافقت على هذا القرار وظلت فى المحافل الدولية تعمل للضغط على الهند لتطبيقه، حيث ظلت تماطل، ثم أصبحت بعد ذلك تعتبر أى حديث فى هذا الموضوع من قبل أىّ كان تدخلاً فى الشؤون الداخلية للهند.

وقد أوجدت قضية كشمير هوة واسعة بين الهند وباكستان، حيث أصبحت علاقاتهما أشبه بعلاقة القط والفأر، فلم يخل عام من اشتباكات محدودة بين الجيشين، ولم يلبث الوضع أن اتجه إلى الانفجار فى ١٩٦٥م، إذ خاضت البلدان حرباً شاملة، انتصرت فيها الهند؛ لأنها كانت مدعومة من عدة جهات بما فيها بعض الأنظمة القومية فى الوطن العربى، بينما كادت باكستان أن تكون وحدها.

وعلى خلفية التآمر الهندوسى المستمر على باكستان المسلمة ومحاولة إذلالها من أجل إجبارها على العودة إلى (بيت الطاعة)، دفعت الهند بحزب الشعب فى بنجلاديش - التى كانت تسمى حينئذ باكستان الشرقية، وكانت الهند تفصل بين شطرى باكستان - إلى المضى فى طريق الانفصال، مستثمرة بعض أخطاء السلطة المركزية فى باكستان الأم والتى كان يرأس حكومتها ذو الفقار على بوتو زعيم

حـزب الشعب الحـاكم آنذاك، وظلت الهنـد تغذى الوضع إلى أن أعـلن مجـيب الرحمن فى باكسـتان الشرقية (البنغال) الاسـتقلال بإقليمه الكبـير، وتأسيس دولة جديدة تحت اسم «بنجلاديش» وحـينما ذهب الجيش الباكستانـى لقمع الانفصال، تدخلت الهند عـسكرياً لتخـوض حربًا ثالثـة سنة ١٩٧١م انتهت أيـضا بانفـصال بنجلادش وهزيمة باكستان.

وعندما وصلت المحاولات السياسية فى استعادة كشمير إلى طريق مسدود تمامًا، اندلعت الثورة الكشميرية فى ١٩٨٩م، ومنذ ذلك التاريخ استشهد عشرات الآلاف من أبناء كـشمـير بعـد أن دفعـت الهند بسبـعمـائة ألف جندى إلى هذه المنطقـة الصغيرة، لتصل نسـبة الجنود الهنود إلى المواطنين المسلمين ١- ٧ وهى أعلى نسبة من نوعها فى العالم!.

وتقول أرقام الضحايا المسلمين فى كشميـر حتى ما قبل نهاية القرن العشرين أن الشهداء وصلـوا إلى ٧٠ ألفًا، والجرحى أكثر من ثـمانين ألفًا، والمعتقـلين سبعين ألفًا، إضافـة إلى آلاف المنازل والمتاجر والمساجـد والمدارس التى دمرت وأحرقت، وآلاف النساء المسـلمات اللاتى تعرضن لـلاغتصـاب على أيدى الجنود الهندوس، وبلغ عدد العوائل التى نكبت فى فقد عائليها نحو نصف مليون عائلة[1].

وظلت الهند تُصعِّد من سبـاق التسلح حتى تجبر باكستان علـى الركوع أمامها، وكانت المفاجأة فى مايو سنة ١٩٩٨م، عندما أعلنت الهند عن إجراء خمس تجارب نووية، وحينهـا تبجح وزير الدفاع الهندى وألمح إلى قـدوم عملية إذلال باكسـتان واحتلالها، وليس كشمير فحـسب، فقال: إن على باكستان أن تختار زمان ومكان الحرب مع الهند. ولم يتأخر الرد الباكستانى كـثيرًا فبعد يومين أعلنت باكستان عن ست تفجـيرات نووية، وأتبـعتـها بتجـارب على صواريخ باليـستيـة طويلة المدى وأطلقت عليها أسماء قادة من المغول المسلـمين الذين فتحوا شمال الهند، وبالتالى تحقق توازن الرعب، وعادت الهند لتتحدث فى أروقـة السياسة عن ضرورة التعاون بين الجيران فى محاربة الفقر والتخلف والجريمة.

(١) وردت هذه الأرقام فى مقـابلة مع البروفيسـور أليف الدين الترابى - أحد قـادة كشمير - فى مـقابلة مع مجلة (الحرس الوطنى) السيعودية، العدد (٢١٠)، رمضان ١٤٢٠ هـ.

وعندما ظهرت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى أمريكا، وإعلان الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب، ركبت الهند الموجة، وبدأت تضغط على باكستان، سياسيّاً وعسكرياً، حتى أنها دفعت بمئات الآلاف من مقاتليها على حدود باكستان، بحجة أنها ترسل الإرهاب عبر الحدود، إشارة إلى دعمها لمجاهدى كشمير، وتعريضًا بدورها فى دعم جماعة طالبان فى أفغانستان، التى أصبحت محل نقمة أمريكا والعالم من ورائها واضطرت باكستان أن تحنى رأسها للعاصفة، فقدمت تنازلات مهمة، لأنها صارت بين فكى كماشة، وخاصة بعد أن قام رئيسها بزيارة لحلفاء باكستان فى الصين وبعض البلدان العربية، ولم يجد منهم حماسًا للوقوف مع باكستان أمام الضغوط الأمريكية والهندية.

وإضافة إلى معاناة الشعب الباكستانى نتيجة النزيف الدائم لجرح كشمير، فهناك مشكلة ضعف الاستقرار السياسى، حيث تتبادل الحكومات الديمقراطية المقاعد مع الحكومات العسكرية منذ الاستقلال، إذ ارتبطت الحكومات المدنية بالحريات فى مقابل التسيب والفساد، وارتبطت الحكومات العسكرية بالبناء فى مقابل الاستبداد وقمع الحريات، وهذه واحدة من محن باكستان، إضافة إلى مشاكل التخلف، ومشاكل الاصتراع العرقى والطائفى، حيث توجد أربع أعراق رئيسية متنافسة بلغات مختلفة، لكنها تجتمع على اللغة القومية (الأردو). وهناك طائفتا السنة والشيعة، إضافة إلى الإسماعيلية والبهرة والآغاخانية والقاديانية والبهائية وعشرات الطرق الصوفية، فالعاطفة الدينية هناك قوية للغاية، ولكن يقابلها جهل شديد بالإسلام، ولذلك كثرت هذه الجماعات والفرق والطوائف، وسهل على أعداء باكستان اختراقها من الداخل، حيث تشير أصابع الاتهام - مثلاً - فى كثير من حوادث القتل المجهولة ضد الشيعة تارة والسنة تارة أخرى، إلى يد للمخابرات الهندية وهذا مؤكد، لأن المجتمع الباكستانى فى الأصل من أكثر المجتمعات تسامحًا بين طائفتيه، وهذا ما أجزم به(*).

(*) لقد أقام المؤلف فى باكستان ما بين (١٩٩٤ - ١٩٩٦م) فعرف هذا الأمر عن قرب، أثناء دراسته للماجستير فى جامعة السند آنذاك فى مدينة حيدر آباد وهى أكثر مناطق تواجد الشيعة كثافة.

٣- سريلانكا (سيلان):

هى جزيرة تقع قرب الساحل الهندى من جهة الجنوب، وهى جمهورية مستقلة، مساحتها ٦٥,٦١٠ كم٢، أما سكانها فهم قرابة العشرين مليون، وعاصمتها كولومبو.

توجد ثلاث ديانات أساسية فى هذا البلد، هى بالترتيب: البوذية وتمثل ٧٧٪، والهندوسية ١٥٪، والإسلام ٨٪، أى: أن عدد المسلمين يقترب من المليونين.

تسيطر على السلطة الأكثرية البوذية، بينما يتركز الهندوس فى الشمال، ومنذ زمن طويل توجد مشكلة كبيرة بين البوذيين والهندوس على السلطة، حتى أن الهند تدخلت عسكرياً لصالح الهندوس، واحتلت شمال وشرق الجزيرة، ثم انسحبت بعد مؤتمر للسلام فى كولومبو فى مطلع التسعينات، لكن المشكلة استمرت، حيث توجد حركة عنيفة تمثل الهندوس وهى (جبهة تحرير تاميل إيلام)، تمارس حرب العصابات بكل صنوفها ضد السلطة.

ورغم أن المسلمين وقفوا فى هذا الصراع على الحياد غير أنهم لم يسلموا من الأذى، بل تعرضوا للحرب من قبل الطرفين، وخاصة من قبل نمور التاميل (المعارضة الهندوسية) الذين أعلنوها حربًا شعواء ضد المسلمين فى الشمال، لأنهم رفضوا الانخراط فى الأحزاب الهندوسية التى تعمل على انفصال الشمال بدولة مستقلة عاصمتها (جافنا).

وقد ركز ثوار أو نمور التاميل حربهم على المسلمين عبر صور منظمة وهى القضاء على القيادات والشخصيات الإسلامية البارزة، إعدام الشباب المسلم فوق الخمسة عشرة، تدمير اقتصاد المسلمين وفرض الضرائب الباهظة عليهم، القضاء على الهوية الإسلامية والعمل على تذويب المسلمين بين الأغلبية البوذية والهندوسية فى البلاد[1]. وهذا المخطط يسير على قدم وساق، فى ظل صمت عربى إسلامى مطبق وانكشاف دور لليهود فى ذلك، تحريضًا وتسليحًا وتدريبًا.

(١) المركز العالمى: حاضر العالم الإسلامى: ص (٣١٨، ٣١٩).

ثالثًا: منطقة جنوب شرق آسيا:

جنوب شرق آسيا عند الجغرافيين تضم إندونيسيا والفلبين وماليزيا وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام وسنغافورة وبروناى، والمسلمون موجودون فى كل هذه الدول إما أكثريات وإما أقليات، ولهم الكثير من المشاكل، ولذلك اعتبرنا هذه المنطقة واحدة من المناطق الساخنة فى العالم الإسلامى، وسنعرف ذلك من خلال مجموعة من النماذج بصورة مختصرة وسريعة:

١- إندونيسيا:

إندونيسيا هى أكبر دولة إسلامية فى العالم من حيث السكان، كما أسلفنا، فقد زاد عدد سكانها فى آخر إحصاء عن ٢٢٠ مليون نسمة، ٨٥٪ منهم على الأقل مسلمون، وتصل مساحتها إلى ١,٩٠٤,٤٤٣ كم٢، وعاصمتها جاكرتا، وتتكون من آلاف الجزر الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، المسكونة وغير المسكونة، وحيث يمر بإندونيسيا خط الاستواء فهى من أكثر بقاع الأرض مطرًا وأخصبها أرضا وأغزرها ميًاها. وربما استغرب البعض إدخال إندونيسيا -الدولة الإسلامية الكبرى فى العالم المعاصر- ضمن هذا السياق، ولكن إذا عرف السبب بطل العجب..!

إندونيسيا تعانى مثل غيرها من بلدان العالم الإسلامى مشاكل التخلف الكبيرة والوفيرة، من ضعف فى مشاريع البنية التحتية، ومن ضعف فى الإنتاج مقارنة بالإمكانات الطبيعية والمساحات الهائلة والأعداد الكبيرة من السكان، نسبة الأمية عالية، ونسبة البطالة عالية، والتضخم فى ارتفاع مستمر، وبالتالى فإن مستوى الحياة يضعف حينًا بعد حين، حتى أن إندونيسيا نتيجة البطالة العالية وازدياد الفقر وانخفاض مستوى المعيشة، صارت فى العقود الأخيرة من أكبر المصدرين للعمالة البشرية الرخيصة إلى الدول الأخرى، وفى أبسط الأعمال والمهن.

هذه المشاكل كلها، لابد أن سببها هو **الفساد السياسى، حيث سيطرت على** السلطة مجموعة من اليساريين والقوميين، **الذين جمعوا بين الانحراف الفكرى** والفساد المالى، إضافة إلى تميزهم بالاستبداد السياسى فى الداخل، **وفتح أبواب** البلاد للخارج على مصراعيها، وهذا ساهم **بدوره فى اختراق المجتمع الإندونيسى** بقوة من كل النواحى، الأخلاقية والسياسية **والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.**

هذا الوضع المزرى، أغرى الحركات التنصيرية فى العالم، منذ منتصف القرن العشرين للعمل الحثيث من أجل تنصير إندونيسيا فى عام ٢٠٠٠م، أى: أن يصبح المسلمون أقلية، وامتلكت الحركات التنصيرية إمكانات هائلة فاقت ميزانيات كثير من الدول، من مطارات، وقنوات تلفزة وإذاعة وعشرات الصحف والمجلات والدوريات، إضافة إلى تمالؤ السلطات المحلية، وتعاون الدول النصرانية فى العالم، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا التى لعبت دور رأس الحربة الغربية التى طعنت بها إندونيسيا خلال العقود الفائتة، وخاصة عند نهاية القرن العشرين، ودخول العقد الأول من الألفية الثالثة.

وقد بدأت هذه الجهود تؤتى أكلها، حيث انخفض نسبة المسلمين من ٩٣٪ إلى ٨٥٪، وأصبحت هناك عدد من الجزر والمناطق تمثل أغلبية للمسيحيين، ومن المناطق التى سقطت فى قبضة التنصير -حسب أستاذ جامعى عربى عمل فى إندونيسيا-: نوسا تنجارا الشرقية، التى أصبحت نسبة المسلمين فيه فقط ٩,١٢٪، وهى تتكون من ١١١ جزيرة أكبرها تيمور، وأغلب السكان صاروا مسيحيين ومن ديانات أخرى، وهناك إيريان جايا وتيمور الشرقية - وستتحدث عنهما بعد قليل - وسولاويسى الشمالية التى انخفضت نسبة المسلمين فيها إلى ٤٤,١٪[١].

وعندما بدأت طلائع النظام الدولى الجديد فى عقد التسعينيات من القرن الماضى تزحف لتمزيق البلدان الإسلامية الكبيرة، كانت إندونيسيا جاهزة للتمزيق، لأنها كانت مصابة بمرض فقدان المناعة الثقافية، ومحقونة بداء فتاك اسمه «التنصير».

ومع مطلع الألفية الثالثة كانت الضجة ضد إندونيسيا حول تيمور الشرقية قد بلغت قمتها، بينما كانت دوائر الاستخبارات الغربية تحرك الأحداث فى الداخل، فى اتجاه تقطيع أوصال جسد إندونيسيا وهى ما تزال حية، لكنها قد خدرت، ولعبت كبر هذه الجريمة بصورة سافرة أوستراليا.

وتيمور الشرقية هى أول ثمار التنصير والتفتيت نضوجًا، ومساحتها تصل إلى قرابة ١٥ ألف كم٢، وهى غنية بكل أنواع الأخشاب، ويقال: إن فيها كميات

(١) هو: د. توفيق علوان: المواجهة بين الإسلام والنصرانية فى إندونيسيا، مجلة البيان: العدد (١٥٤)، ص (٧٢ - ٧٩).

هائلة من النفط لم تستخرج بعد، وسكانها قرابة المليون، يمثل المسلمون ١,٧٪ منهم فقط، أما عاصمتها فهي ديلي، وقد بدأ الأمر بعمل تصفية جسدية بشعة للمسلمين وللمتعاطفين مع النظام الإندونيسي، وعندما عمل الجيش على التدخل لوقف المجزرة وإعادة الأمن ضجت الدوائر الغربية، سياسياً وإعلامياً، وتكاتفت الضغوطات لكي يتسحب الجيش الإندونيسي، ويسلم السلطة للانفصاليين، وكمحاولة من السلطة لحفظ ورقة التوت، فقد وافقت على إجراء استفتاء تشرف عليه الأمم المتحدة، وعمل الاستفتاء لصالح الانفصال وبأغلبية ساحقة، وتحت إشراف ضباط ومسئولين من أوستراليا وليس من الأمم المتحدة.

وعندما نجحت هذه الخطوة، وقبل أن تفيق جاكرتا من الصدمة، انتقل السيناريو إلى إيريان جايا ومساحتها تقترب من مساحة المملكة المغربية، أي: ٤٢١,٩٨١ كم٢، بينما سكانها حوالى مليونين، وهي غنية بإنتاج البترول والنحاس، إضافة إلى الثروات الزراعية والمائية، وكانت نسبة المسلمين قد انحدرت إلى ١٥٪، وكان قد حدث حولها قتال فى عام ١٩٦١م بين الجيش الإندونيسى ومجموعات من النصارى، ثم قررت الأمم المتحدة فى ١٩٦٣م إجراء استفتاء، وفى أغسطس ١٩٦٩م أجرى الاستفتاء لصالح الوحدة مع إندونيسيا، لتصبح المحافظة السادسة والعشرين بتعميد من الأمم المتحدة على صورة قرار يحمل رقم (٢٥٠٤).

وفى مايو ٢٠٠٠م طلب بعض النصارى إجراء مؤتمر حول هذه المنطقة، ووافق الرئيس عبد الرحمن وحيد على المؤتمر، ودعمه على أمل أن يخرج بقرارات تنسف الفتنة الطائفية وتؤكد على الوحدة، وأقيم المؤتمر فى ٢٩ مايو ٢٠٠٠م وقرر المؤتمرون الانفصال بالجزيرة، ووجهوا نداء إلى الأمم المتحدة لسحب قرارها السابق.

وكانت سذاجة عبد الرحمن وحيد قد استفزت البرلمان الإندونيسى، وخاصة عندما وافق الرئيس على رفع أعلام الانفصاليين بجانب أعلام إندونيسيا، وأوضح رئيس البرلمان أن الشعب الإندونيسى لن يتسامح فى شبر واحد من أرضه، وأن الجميع مستعدون للموت دون ذلك.

وقبل أن يتحقق هدف إيريان جايا ظهرت مشكلة جزر الملوك، عندما اجتمع بعاصمتها حوالى ٣٠ ألف من المسيحيين، وهم يرفعون الأعلام الخاصة بمنطقتهم والشعارات الداعية إلى الانفصال والمعادية للإسلام والمسلمين. وبدأت بعد ذلك عمليات المطاردة للمسلمين والقتل بالسيوف والخناجر والفؤوس والأسلحة الحديثة، ولطخوا المساجد بلحوم الخنازير ودمائها، وكتبوا على جدرانها بدم الخنازير شعارات تطالب بطرد المسلمين وإبادتهم، وتدربوا فى رمى السهام بأجساد الأطفال ومارسوا أصنافًا من القتل والتمثيل لا يتسع المقام لذكرها[١].

وبعد ذلك بدأت السبحات تتتابع. حيث ظهرت مشاكل متشابهة، فى جزر ومناطق أخرى، فى ظل ذهول حكومى مما يحدث، وتأهب شعبى مقموع، أما الدول الإسلامية، فهى الغائب الأكبر فى «حاضر العالم الإسلامى» ليس فى إندونيسيا فقط، ولكن فى كل بلدان المسلمين وقضاياهم المعاصرة.

وهكذا بعد أن أشرنا إلى رؤوس أقلام حول ما يعانيه المسلمون فى نيجيريا وإندونيسيا، لم أعد أعرف الفرق بين أن يكون المسلمون أكثرية أو أقلية، لكن الحق أن مأساة المسلمين ليست فى الأقلية أو الأكثرية، ولكن فى «الوهن» المتمثل فى ضعف الفاعلية المرتبطة بالإنتاج والوعى والاستقلال.

٢- الفلبين (عذراء ماليزيا):

تقع فى شرق آسيا بالقرب من إندونيسيا وتايوان وماليزيا، وتتكون من أرخبيل تصل جزره إلى ٧٠٠٠ جزيرة، تبلغ مساحتها ٣٠٠ ألف كم٢، وأكثر الجزر هى غابات استوائية، أما الجزر المسكونة فهى فقط اثنا عشر جزيرة.

دخلت الفلبين فى الإسلام بنفس طريقة إندونيسيا، أى: على أيدى التجار المسلمين، وخاصة اليمنيين منهم. والذين جاءوا من حضرموت، واستطاعوا اكتساب التجار والحكام المحليين بأخلاقهم الإسلامية.

كانت هذه البلاد أرضًا إسلامية، وتسمى «عذراء ماليزيا» وأصبحت عاصمتها فى ظل حكم المسلمين تسمى «أمان الله» نسبة إلى أحد حكامها، ومع عوامل

(١) راجع: البيان: العدد (١٥٤)، ص (١٢٩).

التعرية اللغوية أصبحت «مانيلا» عندما دخل الأسبان البلاد واحتلوها، وغيروا اسمها إلى الفلبين نسبة إلى ملكهم آنذاك فى القرن السادس عشر، بعد أن قتل مسلموها الرحالة المشهور ماجلان!

وفى مطلع القرن العشرين تقول بعض الإحصائيات: إن نسبة المسلمين كانت ٥٥٪ لكن الاستعمار الأسبانى الذى استمر ثلاثة قرون، ثم الغزو اليابانى والأمريكى إضافة إلى قيام السلطات المحلية منذ الاستقلال - وكلها بيد النصارى - بحربهم أدت بهم إلى الانزواء فى جزيرة (مندناو - مورو) فى الجنوب، وبالتالى انخفضت نسبتهم إلى ١٢٪، وهم يصلون اليوم إلى ستة ملايين من جملة ٥٠ مليونًا هم سكان الفلبين، وحتى هذا العدد الضئيل لا تعترف السلطات الحاكمة إلا بنصفه.

وإذا كنا قد عرفنا وضع المسلمين فى بعض جزر إندونيسيا المسلمة، فكيف سيكون الحال فى دولة هى الدولة المسيحية الوحيدة فى كل قارة آسيا، وإن كانت قد انضافت إليها تيمور الشرقية، لاشك أن الوضع سيكون سيئًا.

وحقيقة الحال أن الوضع القائم بين المسلمين فى الجنوب والدولة الفلبينية يمكن أن نطلق عليه أنه حرب لا هدنة فيها، لأن الاتفاقيات التى وقعت بين الطرفين بين حين وآخر، كانت فقط، بالنسبة للنظام الحاكم، مجرد كسب للوقت، حتى تعد العدة بصورة أكبر، وحتى يزداد وضع المسلمين سوءًا، حيث يعانون من الجهل والتخلف والانقسام، لقد كان للمسلمين جبهة واحدة للتحرير ثم صارت هناك جبهتان، إحداهما قومية والأخرى إسلامية، وفى العقد الأخير من القرن العشرين ظهرت جماعة جديدة هى ما اصطلح على تسميتها بـ (جماعة أبو سياف)، وهى حسب المعلومات المتوفرة، ذات فكر إسلامى تقليدى، لا يجيد فهم الواقع السياسى ولا التعامل معه بالصورة المطلوبة، ورغم أنها قليلة العدد، إلا أن صوتها أصبح مدويًا بفضل وسائل الإعلام الدولية التى ضخمت من حجم هذه المجموعة، وربطتها بتنظيمات دولية، أبرزها جماعة (القاعدة) لأسامة بن لادن. وقد ساهمت هذه المجموعة بلفت أنظار المجتمع الدولى إلى مسلمى الفلبين كعناصر إرهابية، من خلال قيامها بمجموعة من حوادث الاختطاف لعناصر أجنبية.

وهذا كله بجانب الأحداث الدولية التي تركزت حول ما أطلق عليه بالإرهاب، ساهم في تدخل أمريكا مباشرة في الحرب الدائرة بين المسلمين والنظام النصراني الحاكم، فقد كانت الفلبين من ضمن الدول التي استقبلت قوات أمريكية لتدريب قواتها وللمساهمة في القتال ضد العناصر الإرهابية، والمقصود بها هنا (جماعة أبو سياف)، لكن هذا الأمر استغل ضد أحلام المسلمين عامة في الاستقلال أو الحكم الذاتي الواسع الصلاحيات هناك.

ورغم الدماء الغزيرة التي سالت على مذبح الاستقلال، فمازالت المعاناة قائمة، زادتها أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا لهيبًا، لتظل جنوب الفلبين مصدرا من مصادر اللهيب العالمي ضد المسلمين في منطقة أخرى ساخنة، ولكن ضد المسلمين، وبدمائهم ودموعهم وعرقهم، بل وبنفطهم.

٣- فطاني (تايلاند):

هي إمارة إسلامية تقع بين ماليزيا وتايلاند، وتطل على بحر الصين والمحيط الهندي، وقد دخلت الإسلام بنفس طريقة إسلام إندونيسيا والفلبين، وخاصة بعد أن أسلم ملكها (أندراسري) على يد التجار المسلمين في القرن التاسع الهجري.

قامت تايلاند عام ١٩٠٢م باحتلال فطاني، ومن ثم التنكيل بسكانها الذين يبلغون ٦ ملايين من جملة سكان تايلاند البالغ ٥٠ مليون، أي: أن نسبة المسلمين ١٢٪ مثل الفلبين، وبقية القصة متشابهة في التنكيل بالمسلمين، ثقافة وإنسانًا ومصالح، والفارق أن النظام الفلبيني مسيحي، بينما النظام التايلاندي بوذي، رغم أن كليهما يدعي أنه علماني.

قامت تايلاند بتهجير سدس سكان فطاني إلى العاصمة بانكوك؛ ليتولوا أتفه المهن، وليتم هضمهم واستيعابهم وسط الأكثرية البوذية. وقد قام المسلمون بعدة ثورات في السنوات ١٩٤٧م، ١٩٥٤م، ١٩٧٦م، لكنها قُمعت كلها بشدة.

وبعد الانفتاح النسبي للنظام الحاكم في تايلاند، وارتفاع منسوب الحريات، أتيح للمسلمين هامش للحركة في بناء المدارس والمساجد والدعوة في وسطهم حتى لا يذوبوا في أوساط البوذيين، لكن جهل المسلمين وتفرقهم، أوقعهم فريسة للدعوات

المنحرفة، سواء كانت سياسية مثل الشيوعية والليبرالية العبثية التى تطلق العنان للشهوات والفساد، أو كانت باسم الدين، مثل بعض الدعوات المنحرفة باسم الإسلام، وهناك تحدى الانحلال المخيف، فإذا كان أكثر من سدس سكان المسلمين يسكنون فى العاصمة «بانكوك» وهى من أشهر عواصم البغاء والدعارة، فإن الخطب عظيم بالنسبة للمسلمين هناك.

*** مراجع إضافية حول مسلمى قارة آسيا:**

١- د. أحمد صدقى الدجانى: أضواء على الصين اليوم.

٢- رحلة الشيخ الطنطاوى إلى البلاد الروسية. تحقيق: د. محمد عيسى صالحية.

٣- د. إحسان حقى: أفغانستان: نشأتها وكفاحها.

٤- أحمد منصور: مستقبل كابول - رؤية تحليلية لواقع الجهاد الأفغانى.

٥- ناصر الدين شاه: أفغانستان والغزو الشيوعى.

٦- عبد الحليم الندوى: مراكز المسلمين التعليمية فى الهند.

٧- إيان ستفنز: باكستان بلد قديم وشعب جديد: ترجمة: د. نبيل صبحى الطويل.

٨- عزيز بيك: كشمير ومستقبل باكستان.

٩- عبد العظيم الديب: المسلمون فى الفلبين.

١٠- مارشال برومهول: الإسلام فى الصين.

١١- شانتال طربيه كلكجى، الكسندر بينغين: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ترجمة: د. إحسان حقى.

١٢- مصطفى مؤمن: عذراء ماليزيا.

١٣- أبو الحسن الندوى: من نهر كابل إلى نهر اليرموك.

١٤- الإمام الجرجاوى: الرحلة اليابانية: تحقيق: سمير عبد الحميد إبراهيم.

١٥- محمد ضياء شهاب- عبد الله نوح: الإسلام فى إندونيسيا.

١٦- محمود شاكر: المسلمون تحت السيطرة الشيوعية.

١٧- محمود شاكر: سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية فى آسيا وتضم: تركستان الغربية - تركستان الشرقية - قفقاسيا - باكستان - إندونيسيا - اتحاد ماليزيا - فطانى - المسلمون فى الفلبين - جزر المالديف - أفغانستان - تركيا - إيران - شبه جزيرة العرب - المسلمون فى الهند الصينية - خراسان.

١٨- قيصر أديب مخول: المسلمون فى الفلبين.

١٩- أبو الحسن الندوى: المسلمون فى الهند.

٢٠- د. قيصر أديب: الإسلام فى الشرق الأقصى.

٢١- عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند.

٢٢- مسعود الندوى: تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند.

٢٣- زينب الحكيم - محمد حسن الأعظمى: جنة الأرض كشمير.

٢٤- محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ إندونيسيا المعاصرة.

***

المبحث الثالث

المناطق الساخنة فى البلقان وشرق أوروبا

منطقة البلقان جغرافياً تقع جنوب شرق قارة أوروبا، وتضم الدول التى تقع بين تركيا من الشرق وإيطاليا وألمانيا من الغرب، وهى: يوغسلافيا بجمهورياتها الست (كرواتيا - سلوفينيا- مقدونيا - صربيا - الجبل الأسود - البوسنة والهرسك) وألبانيا واليونان وبلغاريا والنمسا وهنغاريا (المجر) ورومانيا.

وهذه المنطقة واحدة من أسخن المناطق فى العالم، وعلى مستوى أوروبا هى المنطقة الأسخن فيها بدون منافس، وخاصة فى العقود الأخيرة، وسنلقى نظرة سريعة على هذه المنطقة الساخنة لنرى مصير المسلمين المعاصرين فيها.

أولاً: البوسنة والهرسك:

تقع جمهورية البوسنة فى جنوب أوروبا بين فكى كماشة هما: صربيا الأرثوذكسية من الشرق، وكرواتيا الكاثولكية من الغرب، تبلغ مساحتها ٥١,١٢٩كم٢، أما السكان فيصلون إلى ٥,٥ مليون نسمة تقريبًا، يشكل المسلمون ٥٥٪ منهم، والصرب الأرثوذكس ٣٠٪، والكروات الكاثوليك ١٤٪.

ومن المعروف تاريخياً أن الأتراك (الخلافة العثمانية) ظلوا يحكمون البلقان خمسمائة عام، بعد أن فتوحها بالقوة، ولكن للحقيقة وللأمانة العلمية، فإن العثمانيين - وخاصة بعض حكامهم - لم يكونوا على مستوى الإسلام، ولا فى مستوى القادة المسلمين الأوائل من العرب فى فتوحاتهم، فقد فعل الأتراك فى شرق أوروبا كما فعل المغول المسلمون أثناء فتحهم للهند، حيث اختلطت الدوافع الدينية القائمة على العاطفة وليس على الفهم، بالدوافع القومية والرغبة فى الاستحواذ والتمدد، ولذلك فلم تكن هداية الناس إلى الإسلام ودعوتهم هى الهدف الأوحد، وهذا يعلل بقاء كثير من الأوروبيين هناك خارج الإسلام رغم الفترة الطويلة التى بقى المسلمون الأتراك مسيطرين فيها على شرق أوروبا، وكذلك

الهند، حيث بقيت الغالبية للهندوس، فإن أخلاق العرب الأوائل التى جسدت قيم الإسلام هى التى أدخلت غالبية الشعوب فى الإسلام، وهذا ما لم يكن موجوداً فى فتح الأتراك لشرق أوروبا أو فى فتح المغول للهند.

ويمكن أن يكون استخدام هذين الطرفين (المغول - الأتراك) المفرط للقوة، وغياب الدعوة القائمة على فهم هذا الدين وتجسيد قيمه فى السلوك والحركة، من أسباب الحقد الهندوسى على مسلمى الهند، والحقد المسيحى على مسلمى البلقان.

إذن، البلقان منطقة عثمانية مفتوحة - فى عرف الأتراك - ومستعمرة - فى عرف الغرب - لمدة خمسة قرون، واسم (البلقان) فى الأصل هو كلمة تركية بمعنى سلسلة الغابات الجبلية.

وكان المسلمون فى أوروبا الشرقية والبلقان قد وصلوا إلى أكثر من النصف، ولكن ما أن بدأ (الرجل المريض) تبدو عليه حالة العجز، حتى انتفضت كثير من الأطراف، ونقصت أعداد المسلمين فى كل أوروبا، وجاء مطلع القرن العشرين، ولم تعد توجد فى أوروبا شعوب ذات أغلبية مسلمة إلا شعبين هما الألبان والبوشناق (البوسنة)، وظلت المؤامرات تحاك ضد هذين الشعبين، ولكن كل المؤامرات كانت تصطدم بصخرات الصمود والصبر والمصابرة.

وكانت البوسنة والهرسك قد احتُلت من قبل الصرب والكروات، لتصبح جزءاً من اتحاد جمهوريات يوغسلافيا، على نفس النمط السوفيتى، وبالتالى أصبح المسلمون بين خمس جمهوريات ذات أغلبية مسيحية، يمثلون الأقلية.

وعندما سقطت الشيوعية فى ٨٩/ ١٩٩٠م، كان من تداعيات ذلك، سقوط اشتراكية يوغسلافيا التى استخدمت كمبرر من قبل الصرب والكروات للسيطرة على الآخرين، وبالتالى حاول كل شعب العودة سالماً إلى قواعده، لكن الأمر اختلف قليلاً مع الكروات، بسبب التباين المذهبى مع الصرب والتنافس التوسعى بينهما، فحدثت حرب محدودة بين الدولتين (الجديدتين - القديمتين) أما بالنسبة للبوسنة والهرسك، فقد اختلف الأمر بالكلية، نتيجة التباين الدينى والحقد التاريخى الصربى ضد مسلمى البلقان عامة والبوسنة خاصة.

هذا التباين وذلك الحقد الرهيب أديا بجمهورية صربيا وجمهورية الجبل الأسود إلى البناء على ميراث الصليبية، وميراث يوغسلافيا فى حرب المسلمين، مع الاستفادة من تجارب روسيا واليونان، والاهتداء بنصائح أوروبا الغربية، فى شن حرب إبادة دينية عرقية لا تبقى ولا تذر ضد مسلمى البوسنة والهرسك منذ عام ١٩٩١م، مستخدمين كل أسلحة الجيش اليوغسلافى الضخمة والذى كان الجيش الرابع فى قارة أوروبا.

وقد استخدم الصرب وحلفاؤهم أساليب رهيبة طيلة بضعة أعوام فى حرب مسلمى البوسنة، ومحاولة استئصالهم من الوجود، ومن أهم هذه الأساليب:

١- الإبادة العرقية الشاملة، والمقابر الجماعية، حتى أن جيوش الصرب وميليشياتهم عندما كانت تصل إلى قرية يختلط فيها المسلمون مع المسيحيين، تعمد إلى الكشف عن عورات الرجال والأطفال، فإذا كانوا مختونين ذبحتهم ذبح النعاج!. وتصل بعض الأرقام بشهداء المسلمين فى هذه المذابح إلى أكثر من خمسمائة ألف إنسان على الأقل!.

٢- اغتصاب النساء: تقول بعض التقديرات القريبة من الميدان أن الثمانية شهور الأولى فقط من الحرب شهدت اغتصاب أكثر من ستين ألف امرأة تجاوزت حالات الحمل أربعين ألف، وتروى «حاتسيداش» وهى فتاة صغيرة أن جنود الصرب هددوا أمها باغتصاب طفلتها إن لم تستسلم لهم، فلما رضخت أمرها أحد الجنود أن تصلى أولاً، ثم وضع سلاحه على رأسها... وتتابع الطفلة، فتقول: ثم أشحتُ بوجهى بعيداً كى لا أرى ما يفعلون بها. وكانوا بعد اغتصاب النساء المسلمات يرسمون الصليب على أجسادهن بالسكاكين أو الحراب، ثم القتل لمن تبدى أى مقاومة. وكانت جرائم الاغتصاب الجماعى للنساء المسلمات قد وصلت من الذيوع والانتشار حداً، جعل جنود وضباط القوات التابعة للأمم المتحدة يمارسون هذه الجريمة بأنفسهم، كما أثبتت ذلك تقارير وتحقيقات محايدة، ووصل الأمر إلى أعلى سلم القيادة لهذه القوات، فقد تناقلت وسائل الإعلام أن قائد قوات الأمم المتحدة فى البوسنة الجنرال ميكنزى قام باغتصاب النساء المسلمات فى معسكرات الاعتقال الصربية، بمعدل أربع كل ليلة حمراء، مقابل كتابة التقارير المعبرة عن

وجهات نظر الصرب، وبعد إنكشاف أمره كان أقصى ما فعلته الأمم المتحدة سحبه من موقعه[١].

٣- تشريد الكبار وبيع الصغار: عمدت سياسة الصرب إلى إهلاك الحرث والنسل، وإن لم تنجح هذه السياسات، فإن البديل الجاهز، هو تشريد الكبار فى أصقاع المعمورة، حيث فر أكثر من مليونى مسلم من ديارهم إلى الملاجئ والمخيمات فى دول عدة، منها النمسا وألمانيا وإيطاليا وبعض البلدان الإسلامية.

ومن أغرب الغرائب أن بعض صحف العالم الإسلامى كانت تتحدث عن وصول أفواج من الفتيات البوسنيات إلى عدد من البلدان العربية، وأن ما يشبه المزاد كان يقام للرجال كى يختار كل واحد منهم من يريدها للزواج!!.

أما ما حدث للأطفال، فقد كان أشد وأنكى، حيث احتضنت الملاجئ، والمنظمات التنصيرية ودور الأيتام الغربية عشرات الآلاف من الأطفال الذين هاموا على وجوههم فى قفار الأرض البوسنية دون أن يعلموا عن أسرهم شيئًا.

والأدهى والأمر أن عصابات إجرامية عدة، قامت بالمتاجرة بهؤلاء، وبيعهم فى أسواق الرقيق الحديثة فى قلب الحضارة (أوروبا) وعصر حرية الإنسان (القرن العشرين).

وكمثال بسيط، نشرت جريدة «فيتشرنج ليست» الكرواتية خبرًا عن إحباط شرطة جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا مخططًا لجلب عدد من أطفال البوسنة، من أجل بيعهم هناك. وذكرت أن ١٥ ألف طفل بوسنى اختفوا فى مدينة كرواتية واحدة[٢].

٤- سياسة الأرض المحروقة: اتخذ الصرب سياسة إحراق الأخضر واليابس، والسعى الحثيث لعدم بقاء حجر على حجر، وخاصة المساجد والقلاع والجسور والمتاحف والمبانى التاريخية، وكل ما يمت بصلة، للأتراك أو الإسلام، وبهذا الأسلوب، دمرت الكثير من المدن التاريخية، وهدمت مئات المساجد، ولم يبق إلا

(١) مجلة سراييفو: العدد الأول، جمادى الآخرة ١٤١٣هـ - ديسمبر ١٩٩٢م ص (١٤-٢٠).

(٢) مجلة الأسرة هولندا: العدد (١٦)، جمادى الأولى ١٤١٥هـ - أكتوبر ١٩٩٤م، ص (٩).

أقل القليل من المعالم التاريخية الإسلامية التى تُذكِّر بأن المسلمين أقاموا هنا خمسمائة عام.

٥- التآمر الغربى المسيحى وخاصة من قبل الروس، : نظرًا لأن روسيا تعتبر نفسها المسئولة عن الأرثوذكس فى العالم، فقد ربطت مصيرها بصورة كاملة، بمصير الصرب فعند حصار الصرب لمنطقة بيهاتش تقدمت الدول الإسلامية بمشروع قرار يمنع إمداد صرب البوسنة بالنفط، فاستخدمت روسيا حق الفيتو، وفى أول نوفمبر ١٩٩٤م صرح سيرجى لافروف مندوب روسيا لدى مجلس الأمن الدولى بقوله: إذا لم يقم مجلس الأمن بالرد على هجمات المسلمين بشكل لائق وسريع، فسوف نواجه تطورًا خطيرًا يقود إلى كارثة جديدة. وأكد أندريه كوزيف وزير الخارجية الروسى فى صلافة وجود متطوعين روس يقاتلون إلى جوار صرب البوسنة، ونشرت الصحف الروسية بصفة دورية نداءات وإعلانات كبيرة تدعو الروس لنصرة إخوانهم الصرب ضد المسلمين، معتبرة أن الاستجابة لهذا النداء يعتبر مهمة دينية فى المقام الأول.

أما عن الدعم العسكرى، فقد شهدت عشرات الصحف فى الغرب بهذا الأمر، حيث تحدثت صحيفة «ديرشبيجل» الألمانية عن تسليم القوات الروسية العاملة ضمن القوات الدولية لكميات هائلة من السلاح للصرب، وذكرت مجلة «جينز» البريطانية أن حجم الأسلحة التى حصل عليها الصرب من الروس فى عام ١٩٩٢م بلغت أربعة بلايين دولار، وذكرت صحيفة «التايمز» البريطانية أن الصرب حصلوا من الروس فى عام ١٩٩٣م على صفقة أسلحة - رغم الحظر العسكرى آنذاك - بحوالى ٢٥٠ مليون جنيه إسترلينى، أما معهد فرانكفورت للدراسات الروسية، فتحدث عن أن روسيا زودت صرب البوسنة فى أواخر ١٩٩٤م بكميات كبيرة من الصواريخ سى ٣٠٠ المضادة للطائرات[١].

وقدمت دول غربية ثانية مساعدات بصورة أخرى، مثل بلغاريا واليونان، حيث تجمعها مع الصرب، القومية السلافية والمذهب الأرثوذكسى، والعداء للمسلمين وخاصة الأتراك.

(١) بتصرف عن: أحمد منصور، جرائم الروس ضد مسلمى البوسنة، مجلة المجتمع: العدد ١١٢٩، ص(٢٧).

أما دول أوروبا الغربية، فقد حاولت أن تظهر غير راضية عن الصرب، لكنها عملياً لم تفعل ما يرفع الذبح عن رقاب المسلمين، وبعض القوات الأممية من هذه الدول اتهمت بالوقوف مع الصرب ضد المسلمين بهذه الصورة أو تلك، وخاصة أن سلوبودان ميلوسوفيتش، كان يقدم صربيا على أنها خط الدفاع الأول عن أوروبا ضد بربرية المسلمين، وأن الصرب يثأرون لشرف أوروبا الذى استباحه العرب من قبل والأتراك من بعد!!.

وصحيح أن أوروبا لم تكن كلها متآمرة، إذ أن بعض المسئولين فى الغرب كانوا أكثر غيرة من مسئولى أكثر الدول الإسلامية، فقد قدم عدد من الوزراء استقالاتهم إحتجاجًا على ما يحدث للمسلمين فى عرين الحضارة، ومن هؤلاء وزيرة فى حكومة ألمانيا الاتحادية، ولكن الأصح أن بعض هذه الجهات كانت حتى وهى تتظاهر بتقديم أمل الحياة للمسلمين البوسنيين، إنما كانت تشارك فى مهرجان قتلهم، ولكن بصورة خفية.

لقد ذكرت وسائل إعلام غربية أن مساعدات دوائية وصلت إلى البوسنة والهرسك خلال الحرب الطاحنة يعود تاريخ تصنيعها إلى الحرب العالمية الثانية، حيث أكدت منظمة «أطباء بلا حدود» أن ٦٠٪ من تلك الأدوية لم تكن صالحة، وأن المتبرعين بها ربحوا ٢٥ مليون دولار هى نفقات التخلص منها فى بلادهم، وبلغت كلفة إتلاف بعض هذه المساعدات الفاسدة فى البوسنة قرابة ٣٤ مليون دولار. كما تؤكد منظمة الصحة العالمية أن نصف الأدوية التى وصلت إلي متضررى حرب كوسوفا فى عام ١٩٩٩م لم تكن صالحة بعد أن انتهت مدة صلاحيتها أو قاربت على الإنتهاء[١].

وقد ثبت واقعياً أن إسرائيل لعبت دوراً فى الحرب ضد مسلمى البوسنة، حيث خرقت الحظر على الصرب وأمدتهم بصفقات أسلحة، ودربت مجموعات من جنودهم، وكسرت الحظر الاقتصادى عليهم، ثم قامت باستضافة مجموعة من أطفال البوسنة المسلمين كدعاية من ناحية آنية، ولعمل غسيل دماغ لهم من ناحية استراتيجية.

(١) مجلة البيان: العدد (١٨٥)، ص (٧١)، مجلة منار الإسلام - الإمارات، المحرم ١٤١٩هـ - مايو ١٩٩٨م، ص (٥٠).

ومما انفردت به حرب الاستئصال الصربى ضد مسلمى البوسنة، ثم أشقائهم الألبان بعد ذلك أنها حظيت بشىء من الإضاءة الإعلامية، حيث كتبت مئات التقارير والأخبار، وعشرات الكتب، وهذا ليس تعاطفًا مع المسلمين، بقدر ما هو مراعاة لحرمة الأرض التى دارت رحى المجزرة فيها وهى «أوروبا» ولذلك لم يحدث شىء من ذلك لمسلمى الهند أو الصين أو أفريقيا أو غيرها.

وللأسف الشديد، فقد لاحظت عند محاولة إحصائى للكتب التى ألفها المسلمون عن قضايا إخوانهم فى هذا العصر، أن البوسنة احتلت المرتبة الأولى بدون منازع، وسبب الأسف هنا هو أن هذا الاهتمام لم يكن سببه الوحيد الغيرة الدينية والشعور بالمسئولية، بل كان يمثل صدى لما قاله الأوروبيون، كعادة مسلمى هذا العصر فى المحاكاة والتقليد.

وقد انتهت هذه الحرب على إثر توقيع أطراف الحرب على اتفاقية «دايتون» للسلام فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٦م، والتى أعطت للمجرم ثمن جرائمه، حيث أعطت الصرب من الحقوق والامتيازات فى البوسنة أضعاف النسبة السكانية التى يمثلونها، وأعطت مثل ذلك للكروات، بينما كان المسلمون هم الخاسر الأكبر فى الحرب السياسية كما كانوا فى الحرب العسكرية، لأنهم كانوا وحدهم، ولم يكن معهم روسيا أو فرنسا أو حتى ألمانيا وأمريكا.

وفى الحرب الثقافية يواجه المسلمون نفس المصير، حيث إن المؤسسات التنصيرية تُعمل فيهم معاول هدمها، وخاصة أن أكثرهم لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، حيث يجهل أغلب هؤلاء أبجديات الإسلام، وهذه واحدة من الأخطار التى تحدق بالمسلمين، وخاصة بعد أن قدم الرئيس على عزت بيكوفيتش استقالته وترك الأمر لآخرين، عمل بعضهم على دمج البوسنة بمحيطها الجغرافى (أوروبا) وليس بمحيطها الثقافى (العالم الإسلامى)، وبالتالى فإن الأغلبية الإسلامية فى تلك البلد على المدى المتوسط إنما هى فى خطر عظيم.

ثانيًا: المسلمون الألبان:

الشعب الألبانى من أعرق الشعوب الأوربية، وتذكر كتب التاريخ أنهم أول من سكن منطقة البلقان، ثم لما جاءت قبائل الصرب إلى بلادهم، بدأت بالتوسع على

حسابهم وأقامت دولة صربية كبرى فى شرق أوروبا، ولما جاء الإسلام بادر الألبان بدخوله، فارتبطت قوتهم بقوة الإسلام بعد أن ذوى الصرب وسقطت دولتهم، وعندما سقطت الدولة العثمانية، كان الصرب يحقدون على أشياء كثيرة فى مقدمتها الألبان، فقد تعمق الحقد بتباينات دينية وعرقية، وتعزز بثأرات تاريخية، وكذلك الأجناس الأخرى فى المنطقة، ولهذا الأمر، فقد تمالأ هؤلاء جميعًا ضد الألبان، مستحضرين الحقد التاريخى. وتولى كبر هذا الأمر الصرب، حيث انتزعوا من الألبان واحدة من أغنى مقاطعاتهم وهى «كوسوفا» وكذلك فعل المقدونيون، واليونانيون، وقُنن هذا الأمر على المستوى الرسمى الأوروبى، باتفاقيتى برلين عم ١٨٧٨م ولندن عام ١٩١٣م.

١- جمهورية ألبانيا:

تبلغ مساحتها بعد تقطيع أوصالها وسلبها، ما يساوى ٢٨,٧٤٨كم٢، أما السكان فيبلغون ٣,٥ مليون نسمة، نسبة المسلمين فيهم ٨٠٪ على الأقل وعاصمتها تيرانا.

كانت واحدة من أغرب الدول الشيوعية فى العالم، حيث كان زعيمها، «أنور خوجة» من أسوأ الطغاة فى القرن العشرين بكل المقاييس المادية والأخلاقية، ومن عجائبه أنه اتهم زعيم السوفييت خروتشوف بالردة عن الشيوعية وقاطع الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٦١م وأقام علاقات وثيقة مع الصين، ثم اتهم الصينيين بذات التهمة، وقاطعهم سنة ١٩٧٨م ليؤكد بأن شيوعية ماركس الحقيقية لم تعد موجودة إلا فى ألبانيا!

رجل بهذا الحمق والتهور فى تعامله مع أكبر دولتين فى العالم الشيوعى، كيف سيكون تعامله مع شعبه الضعيف، الذى سجل فى هذا القرن أعلى نسبة للجهل والتخلف والأمية والمرض فى أوروبا، فى مقابل معدلات التنمية والدخل، حيث تقيم ألبانيا كأفقر دولة بلا منازع فى عموم القارة الأوروبية؟. لقد ضرب خوجة ستارًا حديديًا على الشعب الألبانى، ليس فى علاقته بالعالم الإسلامى وهو فى هذا الجانب قد فاق مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا وإنما فى العلاقة مع محيطه الأوروبى.

ومضى فى طريق تحويل ألبانيا إلى الدولة المثالية فى الإلحاد، حتى أنه منع مجرد أداء الشعائر التعبدية، ولو كانت طقوسًا بسيطة بلا روح، حيث أمم المساجد وحولها إلي متاحف ومتاجر ومخازن، واستمر على هذه السياسة الغربية التى لم تحترم دينًا ولم تبن دنيا حتى هلك عام ١٩٨٥م بعد ٤١ عامًا من السلطة الشيوعية فى بلاد المنشأ، أجبرت هذا الطاغية على التراجع قليلاً عن سياسات سلفه خوجة، ومع ذلك فقد ظلت ألبانيا تعض على الشيوعية بالنواجذ بعد أن سقطت فى كل قارة أوروبا والاتحاد السوفيتى. وكانت أخر الدول التى تخلصت من الشيوعية، لكن الأحزاب التى تكونت بعد ذلك، لم تكن إلا إمتدادًا للحزب الشيوعى فى الكثير من الأمور، سواء فى السياسات أو فى القيادات، وبالتالى لم تراوح البلد مكانها فى التخلف، لا بالمقياس المادى الغربى ولا بالمقياس الإسلامى الشمولى، حيث مازالت إلى اليوم أكثر الدول الأوربية فقرًا وتخلفًا، ومازال إنسانها يعانى من نفس هموم وآفات ومعضلات العالم الإسلامى الأساسية الخمس.

ومن الناحية العملية فإن ألبانيا تعتبر مجرد خزان خلفى لإيطاليا، التى احتلت ألبانيا مرتين ونصف خلال القرن الماضى بصورة سافرة، فى عام ١٩١٤م وفى عام ١٩٣٩م، إضافة إلى تدخل فى ١٩٩٧م ضد حكومة الحزب الديمقراطى بقيادة صالح بريشا، الذى كان يبدو من مجمل سياساته أنه يحاول التوجه بألبانيا نحو محيطها الإسلامى، لكن ذلك لم يرض الوصى (إيطاليا) حيث اندلعت فى عهد الرئيس بريشا أزمة انهيار شركات توظيف الأموال فى ١٩٩٧م على النمط المصرى، وبالتالى قامت قوات من الجيش الإيطالى بالتدخل لحفظ النظام وإنهاء تلك الأزمة التى تصاعدت بطريقة تراجيدية تشكك بأنها مدبرة لإزاحة صالح بريشا!!

٢- ألبان كوسوفا:

كوسوفا إقليم ألبانى ضمته صربيا إليها، مع أن نسبة المسلمين فيه تصل إلى ٩٣٪ من مجموع سكانه البالغ قرابة المليونين.

ومما يذكر أن سلوبودان ميلوسوفيتش بعد انتخابه رئيسًا لجمهورية صربيا عام ١٩٨٧م سافر إلى إقليم كوسوفا وخاطب جمهوره الصربى قائلاً: «لن يهزمكم

أحد مرة أخرى» إشارة إلى معركة كوسوفا الشهيرة عام ١٨٣٩م التى انهزم فيها الصرب أمام العثمانيين. وعندما بدأت تحرشات الصرب بالمسلمين فى هذا الإقليم قال ميلوسوفيتش: «لقد بدأنا الجولة الثانية من معركة كوسوفو ضد المسلمين»[١].

وفى ذكرى مرور ستة قرون على معركة (كوسوفو) التاريخية، أعلن ميلوسوفيتش أن معركة كوسوفا التاريخية لم تنته، وأنه آن الأوان لاسترداد الصرب لأرض كوسوفا، وأعلن إلغاء الحكم الذاتى الذى أعطى للمسلمين الألبان فى عهد الرئيس اليوغسلافى الأسبق (تيتو) سنة ١٩٦٣م.

وقد مرت الأحداث منذ إعلان ميلوسوفيتش هذا بثلاث مراحل:

الأولى: شن دعاية عنصرية صربية مكثفة ضد الألبان بهدف شحن المشاعر ضدهم.

الثانية: بدء سن قوانين التمييز والتفرقة ضد الألبان.

الثالثة: بدء عمليات العنف والإرهاب ضدهم بدءاً من يناير ١٩٩٨م إلى يونيو ١٩٩٩م بهدف إلجاء الألبانيين إلى الفرار خارج أراضيهم، وهذا ما حدث، حيث قتل وجرح وشرد فى هذه المحنة مئات الآلاف من الألبان الكوسوفيين[٢].

وبعد أن بدأ (جيش تحرير كوسوفا) المقاومة، رغم عدم إمتلاكه ٥٪ مما امتلكه الصرب، وحتى لا يستيقظ المارد الجبار الذى عمل الغربيون طويلاً على نومه فى قلوب المسلمين، عمد الغربيون إلى تنفيذ اتفاق «رامبويه» ورغم إجحافه الشديد بحق المسلمين ومحاباته للصرب، فقد رفضه الصرب ووافق عليه المسلمون، وهذا الرفض المقرون بالتحدى كاد أن يكشف أوراق التوت عن عورات النظام العالمى الجديد، ولذلك سارعت الولايات المتحدة للمحافظة على شىء من مصداقيتها ببعض عمليات القصف الجوى لبعض المواقع الصربية، فى الوقت الذى استمرت فيه القوات الصربية فى استباحة المدنيين المسلمين.

---

(١) مجلة العالم - لندن -: العدد (٣٩٤)، ص (٣٢).

(٢) البيان: العدد (١٦٢)، ص (٨١).

ومن تلك الأثناء أدخلت كوسوفا تحت الإدارة الأممية، وحال الغرب دون تحول (جيش تحرير كوسوفا) إلى جيش حقيقى يشكل نواة أو أداة لدولة مسلمة مستقلة، حيث قام بنزع أسلحة هذا الكيان وأجبره على التحول إلى حزب سياسى منزوع الأسنان والسنان!.

٣- ألبان مقدونيا:

مقدونيا هى واحدة من الجمهوريات الست التى كونت الاتحاد اليوغسلافى، ومثل صربيا تنتمى إلى العرق السلافى والمذهب الارثوذكسى. تبلغ مساحتها ٢٥,٧١٣كم٢، وسكانها حوالى مليونين، يشكل المسلمون نصفهم (٥٠٪)، غير أن السلطات الحاكمة هناك - وهى أرثوذكسية - زعمت أن نسبة الألبان هى فقط ٢٢,٩٪ وفقًا لتعداد ١٩٩٤م، ومن هنا تبدأ معركة المسلمين مع محاولات حصارهم وتجاهلهم سعيًا لتغييبهم بغرض استئصالهم وتجاوزهم على المدى البعيد، والطريق دائمًا يبدأ بتزييف التعداد السكانى، ثم تزييف نتائج الانتخابات - إذا وجدت - ومن ثم تزييف الواقع وربما التاريخ، وتجاهل كل الحقائق والمعطيات.

ومقدونيا هى ثانى أفقر دولة فى أوروبا بعد ألبانيا، وهذا يعود بالضعف أولاً على سكانها المسلمين لأنهم يشكلون النصف الأبعد عن السلطة والمال والقوة، وهذه صورة من صور المعاناة عند أولئك المسلمين.

وعمل حكام مقدونيا، مثل حكام صربيا وغيرهم، على تجاهل الخصوصيات الدينية والثقافية للألبان، بل ومحاولة طمسها تمامًا، من خلال منع استخدام اللغة الألبانية بنص دستورى، حتى أن الألبان عندما عجزوا عن إقناع السلطة بمراعاة ثقافتهم ولو فى الحد الأدنى عملوا على بناء جامعة فى مدينة «تيتوفو» التى يتواجدون فيها بكثافة بحيث يشكلون الغالبية، لكن الدولة لم تعترف بها.

ويمكن القول: إن تفاصيل قصة البوسنة، ثم كوسوفا، تشبه إلى حد ما قصة مسلمى مقدونيا، من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، غير أن ألبان مقدونيا أكثر تمنعًا على محاولات التدجين، وأكثر مقاومة لمحاولات القتل والاستئصال، حيث استفادوا من الدرسين السابقين، فلملموا صفوفهم، وبالتالى

كان موقفهم أقوى، ومكاسبهم أفضل، مما يؤكد دومًا أن ضريبة الذل والهوان أفدح من ضريبة العزة.

ولأن المسلمين هنا كانوا أكثر حركة ونظامًا. وأقوى مقاومة، فى حربهم مع النظام المقدونى، فقد تدخلت أوروبا بصورة سافرة وموحدة ضد أحلام الألبان المسلمين فى الاستقلال بذواتهم والتوحد مع إخوانهم فى جمهورية ألبانيا وإقليم كوسوفا، بل رفضوا حتى مجرد إعطاء المسلمين شيئًا من الحكم الذاتى إلا بعد أن ينزعوا أسلحتهم ويكُفُّوا عن المقاومة.

ثالثًا: مسلمو بلغاريا:

يختلف البلغاريون فى اليسار واليمين على كل شىء، لكنهم يتفقون على مواجهة المسلمين وإخلاء بلغاريا منهم، بدأ ذلك (ديمتروف) الرئيس الأسبق لبلغاريا حينما قال: «سنجعل البلقان للبلقانيين فقط، ويجب أن نمحو بقايا العثمانيين من البلقان» وفى عام ١٩٥٤م جاء تيودور جيفكوف للحكم، وتبنى نفس الشعار وطبقه بالحديد والنار، ومعنى هذا الشعار أن بلغاريا دولة سلافية أرثوذكسية، وكل إنسان يعيش على أرضه ينبغى أن يغير اسمه ودينه، ومن لم يفعل ذلك فليس أمامه إلا القتل أو السجن... إلا إذا استطاع الهرب.

وتقول الأرقام: إن عدد القتلى المسلمين فى بلغاريا منذ الحرب الروسية -العثمانية الأولى عام ١٨٧٧م وحتى مطلع التسعينات من القرن العشرين- قد زاد عن ٦٥٠ ألف مسلم، بينما زاد الذين استطاعوا الهرب عن أربعة ملايين آخرين.

وقد بلغت المحنة ذروتها بمسلمى بلغاريا عام ١٩٨٩م حتى أن عدد المهاجرين فى (يوليو ١٩٨٩م) فاقوا الثلاثمائة ألف مهاجر[١]. ولكن عندما تشتد المحنة يأذن الله بالفرج، وبصورة عامة وحتى لا نجتر تفاصيل مأساة تتكرر هنا وهناك، نقول: إن كل ما جرى فى البوسنة وكوسوفا ومقدونيا قد جرى هنا، مع فارق أن البلغار كانوا أكثر وحشية حتى أنهم سجنوا وقتلوا وشردوا، فقط من أجل الأسماء، فالذى لم يغير اسمه الإسلامى ناله هذا العقاب، وفى المقابل كان المسلمون أكثر

(١) المركز العالمى: حاضر العالم الإسلامى ص (١٩٩) - ١٤١٣هـ: ص (٣٣٢، ٣٣٣).

وداعة وذلاً، ولم يبدوا أى مقاومة، ولذلك فقد كانت الخسائر هنا أكبر مقارنة بأعدادهم التى لم يبق منها اليوم إلا حوالى المليونين، ومع ذلك لا تعترف السلطات البلغارية بهذا العدد من المسلمين.

ومنذ نهاية ١٩٨٩م بدأ المسلمون يلتقطون أنفاسهم بعد سقوط الحزب الشيوعى وتحوله إلى حزب اشتراكى، وبعد انتخابات ١٩٩١م استعادت الأقلية المسلمة هناك بعض حقوقها. مثل تدريس أبنائها باللغة التركية وانتخاب رجال الإفتاء بحرية، وبدأت تظهر جمعيات إسلامية خيرية، ويشارك المسلمون فى العمل السياسى إلى حد ما، ولكن لا يزال المسلم مواطنًا من الدرجة الثانية فى كثير من الحقوق السياسية والثقافية والاجتماعية، بل ينظر إليه البعض على أنه وافد غريب ومن بقايا الأتراك المستعمرين، وأهم من ذلك هناك التحديات الداخلية التى يعانى منها المسلمون، وهى الجهل والتخلف والانقسام، وهى التى تشل الإرادة وتضعف الفاعلية، وتفت فى العضد.

رابعًا: أقليات أخرى:

هناك أقلية مسلمة تركية توجد فى «تراقيا الغربية» بشمال اليونان، يزيد عددها عن ١٥٠ ألف مسلم، وتلاقى أصنافًا من الاستعباد والتجاهل، لكن اليونان التى تمتلك نظامًا ديموقراطيًا نسبيًا، عملت وتعمل على ابتلاع الأقلية المسلمة بهدوء حتى لا تثير منظمات حقوق الإنسان من جهة، وحتى لا تعطى تركيا سلاحًا ضدها فى صراع الدولتين، خاصة وأن تركيا أقوى فى الناحية العسكرية من اليونان، وأكبر منها مساحة وأكثر سكانًا، حيث يمكن أن تتحول الأقلية التركية فى تراقيا الغربية إلى قنبلة مؤقتة يمكن لتركيا استخدامها متى شاءت، ولذلك فإن اليونان عملت على نزع فتيل هذه القنبلة من خلال العمل الهادئ والتذويب المخطط له الرصين الذى لا يثير المسلمين هناك ولا يستلفت الأنظار فى الخارج.

وتدور معركة أخرى ذات صلة بموضوع الأقليات المسلمة بين تركيا واليونان حول جزيرة (قبرص) التى ظلت ردحًا من الزمن، مثل أوروبا الشرقية، جزءًا من العالم الإسلامى، ولكن فى مطلع هذا القرن كانت المواقع يتم تبادلها، فالأقلية اليونانية أصبحت أكثرية والعكس صحيح، وهذا أغرى الأكثرية باضطهاد الأقلية

كما يحدث فى كل شرق أوروبا، لكن الجيش التركى اندفع إلى الجزيرة؛ لإنقاذ المسلمين الأتراك من الذبح، وسيطر على ثلث الجزيرة ثم أقام عليها دولة خاصة للقبارصة الأتراك، لتنقسم قبرص من ذلك الوقت (١٩٧٤م) إلى دولتين، لكن دون اعتراف أى دولة سوى تركيا بجمهورية قبرص التركية.

وهناك أقليات بسيطة فى بقية دول البلقان وأوروبا الشرقية ومعاناتها تشبه معاناة المسلمين الأتراك فى تراقيا الغربية باليونان.

*** مراجع إضافية حول مسلمى أوروبا:**

١- زكريا على أفسكى، چاسمين كانتا روفيتش: الأندلس الثانية (الكويت: لجنة العالم الإسلامى، ١٩٩٣م).

٢- د. محمد محمد قاروط: المسلمون فى يوغسلافيا.

٣- د. سامى الصقار: تطورات عدوان الصرب على المسلمين فى يوغسلافيا.

٤- دافيد ريف: مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب، ترجمة: عبد السلام رضوان ومحمد الصاوى الديب.

٥- د. على الكتانى: المسلمون فى أوروبا وأمريكا.

٦- د. محمد الأرنؤوط: الإسلام فى يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفوا.

٧- مروان درويش: البوسنة والهرسك: تاريخ ومشاهد.

٨- مجموعة من الشعراء: ديون البوسنة والهرسك.

٩- غانم سلطان أمان - يوسف محمد الغانم: المسلمون فى يوغسلافيا.

١٠- د. لواء فوزى محمد طايل: البوسنة والهرسك فى إطار المؤامرة الغربية.

١١- د. لواء فوزى محمد طايل: البوسنة والهرسك أندلس جديدة فى أوروبا.

***

المبحث الرابع
السرطان اليهودى يستوطن القلب
ويشل الأطراف

من يحصى نكبات العالم الإسلامى فى العصر الحديث، سيجد أن أكبرها وأخطرها هو نجاح السرطان الصهيونى فى غفلة من المسلمين بالقفز إلى قلب الجسد الإسلامى فى فلسطين، واستخدام يده الطويلة فى محاولة شل كل أعضاء الجسد الإسلامى.

وتأتى خطورة هذا السرطان من أنه وراء كثير من كوارث المسلمين على كل المستويات وفى كل المناطق، مهما كانت نائية، حيث يعمل وفق أسلوب علمى، وتخطيط ذكى، مستعينًا بكل القوى الكبرى فى العالم، على تعميق تخلف المسلمين، والحيلولة بينهم وبين الوحدة، أو الانعتاق من أسر التخلف.

أولاً: السرطان يغزو القلب:

١- مراحل السرطان:

ظلت الدولة اليهودية أغنية فى أفواه الصهاينة طيلة فترات زمنية طويلة، والبداية الحقيقية فى العصر الحديث لتخلق هذا السرطان، كانت فى عقل زعيم الصهيونية الحديثة تيودور هرتزل عندما ألف كتابه «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٦م، حيث اكتشف النصارى تقاطع المصالح بينهم وبين اليهود، إذ أن مخططى السياسة الاستعمارية فى البرلمان البريطانى (مجلس العموم) كانوا فى تلك الفترة قد توصلوا إلى ضرورة إنشاء كيان غريب شرق قناة السويس فى سيناء أو فلسطين ليفصل بين عرب آسيا وعرب أفريقيا، وخاصة مصر والشام اللتين أثبت التاريخ أن توحدهما يعنى زوال الاستعمار من الشرق العربى.

وكانت محاولة اليهود الاتصال بالسلطان عبد الحميد منذ ١٨٩٦م وخاصة أنه كان قد أصدر أمرًا عام ١٨٨٠م يحظر على اليهود الإقامة فى القدس. وفى عام

١٩٠١م نجح اليهود فى مقابلة السلطان عبد الحميد، لكنه لم يستجب لشىء من مطالبهم، رغم أنها بدت متواضعة، بل وأصدر أمرًا بمنع شراء اليهود للأراضى فى فلسطين.

وبدأت مؤامرة استجلاب (السرطان) إلى قلب الأمة تتم عبر اتجاهات عدة، فمن ناحية نجح حزب الاتحاد والترقى، وهو صديق اليهود فى تركيا، فى السيطرة على السلطة، وكان أن ألغى عام ١٩١٢م موانع الهجرة إلى فلسطين، وفى ١٩١٤م رفع الحظر عن شراء الأراضى، ومن ناحية ثانية أعطى الإنجليز فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م وعدًا بإقامة وطن قومى لهم فى فلسطين، ليدخل قائدهم العسكرى اللنبى القدس بعد أسبوع واحد (٩ نوفمبر) وهو يردد: «الآن انتهت الحروب الصليبية» وحتى نجحوا فى احتلال فلسطين كاملة عام ١٩١٨م، وحنثوا بوعودهم للشريف حسين بإقامة دولة عربية مستقلة، والتى بموجبها قاتل معهم ضد الدولة العثمانية. ومن ناحية أخرى كانت العصابات الصهيونة تواصل الزحف من كل أنحاء العالم إلى فلسطين، مدججة بكافة الأساليب والوسائل المتراوحة بين الترغيب والترهيب.

فى عام ١٩٣٥م اندلعت ثورة القسَّام وانتهت باستشهاده، لكنها كانت الشرارة لاندلاع الثورة العربية الكبرى عام ١٩٣٦م والتى استمرت إلى ١٩٣٩م، حتى قمعتها بريطانيا بعشرين ألف جندى من ناحية وبمجموعة من الأكاذيب والوعود السرابية التى ضمنتها فى إصدارها، سمته «الكتاب الأبيض» من ناحية أخرى.

وانتقلت المؤامرة إلى حيز التنفيذ بوصول قطعان اليهود من كل أنحاء العالم التى يوجد فيها اليهود، وليتواصل مسلسل الزحف على أخصب الأراضى، ولتقام أبشع مجازر التصفية العرقية، وخاصة فى «دير ياسين» التى دمرت عن بكرة أبيها، وقتل فيها المئات بطريقة بشعة لتكون عبرة لمن يعتبر.

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م صدر قرار تقسيم فلسطين بين العرب والسرطان عن الأمم المتحدة وفى ١٥ مايو ١٩٤٨م أعلن عن قيام الكيان اليهودى بعد انسحاب الإنجليز منها، ونجاح السرطان فى الاستيلاء على معظم خلاياها.

٢- الصدامات بين السرطان وخلايا الأعراب: كان أول صدام خاضته الأنظمة العربية المتشرذمة والهشة ضد السرطان الصهيونى بعد إعلان قيام الدولة اليهودية مباشرة، لكن الأنظمة التى أبعدت الشعب الفلسطينى عن المعركة، وأعطت جيوشها أسلحة فاسدة، وقامت بلجم المتطوعين، ووقعت الهدنة، كانت قد أعطت شهادة النصر للسرطان اليهودى وأحقيته بالبقاء فى فلسطين، سواء أرادت ذلك أم لم ترده، علمته أم لم تعلمه.

وجاء العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦م (بريطانيا - فرنسا - إسرائيل) على مصر ليمثل خطوة جديدة فى التمدد اليهودى والجَزْر العربى، وفى ٥ يونيو ١٩٦٧م كانت نكبة النكبات، حيث نجح ذلك السرطان فى الاستيلاء على بقية فلسطين، وأضاف إليها كل سيناء المصرية، وهى تزيد عن مساحة فلسطين بعدة أضعاف، وكذلك هضبة الجولان السورية، رغم أنها محصنة طبيعياً.

وفى ١٩٧٣م ابتعد العرب قليلاً عن المربع الذى وقفوا فيه طيلة هذا العصر، فحققوا نصراً جزئياً، لكنه كان مدوياً، بعد أن أشيع أن جيش إسرائيل لا يُقهر، وأن خط بارليف لا يُعبر، لكن فساد السياسات الرسمية العربية، مكن الصهاينة من سرقة هذا النصر، بعد أن قام أنور السادات بزيارة للقدس سنة ١٩٧٧م ووقع اتفاقيتى الصلح وكامب ديفيد فى (١٩٧٨ و ١٩٧٩م) مع مناحيم بيجن رئيس حكومة اليهود.

وفى ١٩٨٢م قامت إسرائيل باجتياح لبنان وجرف المقاومة، لتقع مجازر صبرا وشاتيلا فى ١٩٨٢م ثم حرب وحصار المخيمات فى بيروت فى ١٩٨٦م، ثم ضرب مدينة طرابلس اللبنانية فى العام ذاته (١٩٨٦م) وإخراج ياسر عرفات منها، وضرب مقر المنظمة فى تونس (فى ١٩٨٦م أيضًا) واغتيال القائد أبو جهاد هناك فى العام التالى (١٩٨٧م) وبعد ضرب العراق فى ١٩٩٩م، بدأ خط الاستسلام يخرج من وراء الكواليس ليتصدى للعمل بدعوى الواقعية، وبالتالى تسارعت الهرولة من بعد مؤتمر مدريد للسلام ١٩٩١م ومؤتمر أوسلو فى ١٩٩٣م، لتدخل السلطة الفلسطينية إلى (غزة وأريحا أولاً) وأخيراً فى ١٩٩٤م، ويتم وقف الانتفاضة فى ١٩٩٥م وتتابع قطار الهرولة، الذى توقف فى عدة محطات للتزود بمزيد من طاقة التنازل فى كامب ديفيد٢ وشرم الشيخ وواشنطن وغيرها.

وفى ١٩٩٥م قام الجيش اليهودى بغزو لبنان مرة جديدة تحت لافتة (عناقيد الغضب) والتى توجهت بمجزرة «قانا» التى قتل فيها حوالى ١٢٠ مدنياً فى مبنى تابع للأمم المتحدة، بعد أن هدمت الطائرت الإسرائيلية المبنى على من فيه من اللبنانيين والفلسطينيين ، ومعظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ.

وفى سبتمبر ٢٠٠٠م قام أرييل شارون - زعيم المعارضة الليكودية آنذاك - بتدنيس المسجد الأقصى بقدميه النجستين مع مئات من مرافقيه وحرسه، لتنتفض جموع الشعب الفلسطينى فيما أطلق عليه بـ «انتفاضة الأقصى» ولينهمر سيل المؤامرات عليها من كل ناحية، لكن الشعب الذى يضم الطائفة المنصورة كما وصفها النبى ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى قيام الساعة»** قالوا: أين هم يا رسول الله؟ قال: **«فى بيت المقدس وأكناف بيت المقدس»** هذا الشعب ظل يمتص الضغوط، ويتكيف مع المتغيرات، ويستجيب للتحديات، ويستعصى على كل محاولات التذويب والتذييل، وينتقل لإدراة المعركة بمفرده غير معتمد على أحد سوى الله، ولينجح فى تصنيع أسلحته الخاصة بما فيها «قسام ١- ٢- ٣». وليثبت أن أمة مشلولة يمكن أن يقوم بدورها رجل (مشلول) وهو الشيخ المجاهد أحمد ياسين الذى يعانى من شلل الجسد لا شلل الإرادة!.

٣- دور (الأعراب) فى نجاح السرطان بتحقيق أهدافه:

مارست الأنظمة العربية الكثير من السياسات المرتجلة والعشوائية، هذا إذا أحسنَّا بها الظن، وهى التى ساهمت فى إيجاد (القابلية للهزيمة) عند العرب، ومن ثم التمكين لليهود، وإيجاد أسطورة «جيش إسرائيل الذى لا يقهر»!!.

ومن هذه السياسات الحمقاء عزل الإسلام عن المعركة وتجفيف المنابع الإسلامية، والضربات الوقائية لدعاة الإسلام قبل كل معركة مع اليهود، وخاصة فى دول الطوق، وتبع ذلك عزل المسلمين عن المعركة عبر سياسة تضييق الدوائر، فقد كانت فلسطين قضية إسلامية، ثم ضاقت دائرتها لتصبح قضية عربية، ثم قضية حركة فتح، وظلت الدوائر تضيق على هذه القضية حتى اختنقت!!.

وكان إقصاء الشعب الفلسطيني عن المعركة، إحدى هذه السياسات التي نكبت فلسطين، بل ساهمت العديد من الأنظمة في شرذمة الفلسطينيين وفي تصفيتهم بعد أن قادتهم إلى معارك جانبية بعيداً عن فلسطين، حدث ذلك مرات عديدة، منها أيلول الأسود ١٩٧٠م وتل الزعتر ١٩٧٦م وصبرا وشاتيلا ١٩٨٢م ومعركة المخيمات ١٩٨٦م.

ولقد ظلت الأنظمة العربية والمنظمات الفلسطينية أسيرة الشعارات والأماني، بعيداً عن الإعداد الحقيقي للمعركة، وتم الانحراف بمسيرة المعركة لتصبح مع الشارع العربي الذي قُمع بشدة تحت لافتة كاذبة تقول: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، ولكن ثبت أن القمع الذي مورس كان يساهم بفاعلية في انتصار (إسرائيل).

أما قضية الأسلحة الفاسدة في ١٩٤٨م، وما قيل عن خيانات عربية في ١٩٦٧م، وما لعبته بعض الأنظمة والمنظمات من أدوار مشبوهة في كل مراحل الصراع فهذا حيث طويل، ولا يتسع له المقام هنا.

٤- **مستقبل السرطان:** وفق منهج الله القائم على الستن، فإن جسم الأمة الإسلامية العليل ما يزال يحمل الكثير من القابلية لبقاء «السرطان» فيه، سواء من ناحية التشرذم العربي والتمزق الإسلامي، أو من ناحية العلو الصهيوني إعداداً واستعداداً، أو من ناحية العوامل الخارجية، حيث تفردت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، وهي الوالدة الحنونة لذلك الكيان، وقد ثبت عملياً أن إسرائيل إذا بردت عطست الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي المقابل فإن الشعب الفلسطيني في العقدين الأخيرين تفوق في الإرادة، وبدأت تظهر أجيال جديدة تحمل جبالاً لأمن الإباء والشمم، نماذج من الأمهات اللاتي يشبهن الخنساء، حيث قدمت مئات الأمهات فلذات أكبادهن إلى الشهادة وهن يزغردن ويوزعن حلوى الأفراح، إضافة إلى انتقال ثقافة الاستشهاد إلى النساء، مثل وفاء إدريس وآيات الأخرس، كل ذلك يؤذن بذهاب السرطان بعد انتقال القيادة من (ثوار الفنادق) إلى (ثوار الخندق) وصدق رسول الله ﷺ: الذي قال: «لا خير فيكم إذا فسد أهل الشام»، واليوم وقد ضرب الشعب الفلسطيني المثل في الحياة والحيوية فإن المستقبل يبشر بالكثير من الخير.

ثانيًا: اليد الطولى لـ (إسرائيل):

أصبح من المسلَّمات العلمية أن السرطان إذا غـزا عضوًا فى جسد ما وتمكن من الاستيطان فيه، دون مقاومة تكفى لاستئصاله، فإنه بأيديه الطويلة وأحابيله الكثيرة يتمـدد فى الجسـد، وينتشـر بسرعـة البرق فى كل الأعـضاء، وحـتى لو لم يكن موجـودًا بصورة مباشـرة فى الأطراف البعيدة، فـإن أثره يصبح ملموسًـا ولو بعد حين.

وبالنسبة للسرطان (الإسرائيلى) فقد ثبت امتلاكـه لأيدى طويلة وكثيرة، فحيثما توجد مأساة للـمسلمين، فإن ثمة دور لليهود، وأينمـا يمر المسلمون بمحنة فابحث عن اليهود، فإن أصابعهم تعبث هناك، وهذا ما سـنثبته فى السطور التالية، كأمثلة مقتـضبة حتى نعلم أن اليهود يتـعاملون مع «العالم الإسلامى» كأنه جـسد واحد، وبالتالى فـإنهم لا يمثلون خطرًا على فلسطين والدول المجاورة فـحسب، وإنما على العالم الإسلامى أجمع.

١- فى كل نكبة للمسلمين يوجد دور لليهود:

أثبـتت الأحداث أن المسلـمين فى هذا العصـر لم يتـعرضـو لنكبـة على أيدى النصارى أو الـهندوس أو البوذيين إلا وكان الـيهود هناك، وسـأشيـر إشارات إلي قضايا وأحداث، توجد وثائق تصدقها، ولكن لا يتسع المقام لذكرها.

فى حـرب الصرب كـان لليهـود دور فى التحـريض وكسـر الحصـار والإمداد بالأسلحة وتدريب الجـيش الصربى ضد مسلمى البـوسنة، وفى الشيشـان عرضوا خدمـاتهم على بوريس يلتـسين، وقدموا مـا يفتـقده الروس من خـبرات فى هذا المجال، وفى جنوب الفلبين ثبت مثل هذا الدور، وفى سيرلانكا ثبت أن (الموساد) **كانـت تقف خلف نمور التاميـل فى جرائمـهم ضـد المسلمين هناك، وفى جنوب السـودان ضبـطت الأصابع الصـهـيـونية وهى تعبـث هناك لصالـح جون قـرنق والانفصال وتفجير السـودان وتمزيقه، وإسقاط حكوماته المستقلة فى الشمال.**

وفى الصومال لم تكن أحابيل السـرطان غائبـة، فعندما غاب المسلمون حضرت إسـرائيل، وقل مثـل ذلك فى الكثيـر من القـضايـا والعديد من البـلدان العربيـة

والإسلامية، وقد سبقت الإشارة إلى أن مسلمى سيراليون يشكلون الأغلبية السكانية، ومع ذلك فالرئيس دائمًا نصرانى، وعندما حاول المسلمون الانقلاب فى ١٩٩٢م، ساهمت قوت إسرائيلية فى إحباطه.[١]

٢- حركة لا تعرف الحدود:

أثبتت الأحداث أن يد إسرائيل طويلة، وأنها ضد أى خلية حية أو قوية فى جسد هذه الأمة، لأنها ضد هذه الأمة ابتداء، ولأن الغرب لم يأت بها إلى هذه المنطقة من العالم إلا لهذا الغرض، ثم لأنهم يعتقدون أن أى قوة فى بلد إسلامى ستعود ثمرتها على الفلسطينيين، لمعرفتهم أن المسلمين يمثلون جسدًا واحدًا، وفى هذا الجانب فإن اليهود أقرب إلى حديث النبى ﷺ: الذى شبه المسلمين بالجسد الواحد، من مسلمى هذا العصر.

لقد شنت إسرائيل فى ١٩٨١م حملة إعلامية شرسة ضد سوريا، وفى غمرة تلك الحملة هاجمت طائراتها المفاعل النووى العراقى ودمرته عن بكرة أبيه، وقامت بضرب مطار عنتيبى فى أوغندا، وأغارت على مقر المنظمة فى تونس فى ١٩٨٦م ودمرته، وظلت طائراتها تعبر الأجواء العربية، وباخراتها تمخر عباب البحار العربية فى وقت تنشغل فيه الأنظمة بمواجهة شعوبها.

وهدد زعماء اليهود بضرب السعودية وأسلحتها ونفطها، إذا وصلت مستوياتهم التسليحية إلي حد معين، وقاموا مع الأمريكان بعمليات قرصنة بحرية ضد سفن تحمل أسلحة لدول عربية أو يشتبه بحملها لها.

وهكذا، ففى ظل تمزق الأنظمة العربية قامت إسرائيل بتمزيق عذرية استقلال العرب ثم المسلمين، حيث تتحرك قواتها فى الأجواء بلا رقيب ولا حسيب، لتنفيذ عمليات قتل وتدمير واغتيال وإغارة.

٣- التحالف مع أعداء الأمة:

فى منطقة العالم الإسلامى، هناك قوى تقليدية بينها ثأرات قديمة أو حديثة مع العالم الإسلامى، حاولت إسرائيل أن تمد حبال الود، لتصنع معها ومنها حبائل للإيقاع بالعرب والمسلمين، وفى هذا السياق تقيم علاقات وثيقة مع الهند ضد باكستان، حيث أمدت الهند بالأسلحة والتكنولوجيا الحديثة، وأمدتها بالمعلومات

الاستخبارية بل بطائرات استخبارية، وأيدتها فى المحافل الدولية وعند صناع القرار فى الغرب، وفى المقابل لقيت باكستان من أنواع التآمر الصهيونى ما لم تنله دولة إسلامية أخرى، ابتداء من التجسس على مفاعلها الذرى ومحاولة تدميره بالتعاون مع الهند، وقد قبضت باكستان مرارًا على شبكات تجسس تابعة للموساد، ومرورًا بالتآمر مع الهند ضد كشمير، وقد قبض مجاهدوا كشمير عل عسكريين يهود كانوا يدربون القوات الهندية، وانتهاء بإشعال الفتن داخل باكستان وتوتير الأوضاع الداخلية، وتوجيه الأحداث نحو الانفجار، واغتيال بعض القيادات الخطيرة على المشروع الصهيونى فى العالم الإسلامى، وفى مقدمتها الجنرال محمد ضياء الحق الرئيس الباكستانى الأسبق، والذى تشير الكثير من الدلائل إلى تورط الموساد فى اغتياله، وحاولت مرارًا اغتيال علماء الذرة الباكستانيين وفى مقدمتهم عبد القدير خان أبو القنبلة الباكستانية، لكن المخابرات الباكستانية لم تتركهم فى العراء فريسة سهلة للموساد، كما فعلت المخابرات العربية المشغولة دائمًا بإحصاء أنفاس المعارضين للأنظمة الحاكمة.

ويمثل هذا القدر من العلاقات مع الهند، أقامت إسرائيل علاقات وثيقة مع أثيوبيا ثم مع إريتريا ضد العرب فى منطقة القرن الأفريقى وقضاياهم ومصالحهم، وكذلك قامت بإيقاد نار الفتنة بين أرمينيا وأذربيجان، كما أوردت ذلك مجلة المجتمع الكويتية فى أحد أعدادها.

٤- إسرائيل تحلم بإمبراطورية بحجم العالم الإسلامى:

لو نظرنا إلى سياسات اليهود ولوائحهم، فإنها تضع حدودًا واضحة للدولة الإسرائيلية، وما كتب من أدبيات رسمية حول هذا الموضوع يتحدث عن دولة توارنية تمتد من ماء الفرات إلي مياه النيل، وهذا الكلام موجود فى واجهة البرلمان «الكنيست» ويزعمون أن هذا كلام الله الوارد فى التوراة حيث أعطى الله لنسل إسرائيل ما بين النهر الكبير «الفرات» إلى نهر مصر «النيل»، وهذا الكلام أيضًا متضمن فى العلم «الإسرائيلى» حيث يحد نجمة داوود خطّان أزرقان يرمزان لنهرى النيل والفرات.

وعن الحدود النهائية، فإن أدبيات زعماء «إسرائيل» تشى بالحقيقة الخبيثة، يقول مناحيم بيجن فى مذكراته: «إن الأسلحة الجوية - اليهودية - هى التى ستقرر

حدود الدولة العبرية، ولا يمكن أن نشترى السلام من أعدائنا بالمفاوضات، فهناك نوع واحد من السلام يمكن أن يشترى هو سلاح القبور» ويقول بن جوريون: «سنجعل الحرب حرفة يهودية حتى يتم تحرير بلادنا بأجمعها، وحتى يعود الشعب اليهودى بأسره إلى استيطان أرض الآباء والأجداد من الفرات شرقًا إلى النيل غربًا، ويقول شارون عندما كان وزيراً للدفاع: «إن مصالح إسرائيل وحدودها سوف تشمل الخليج والجزيرة وباكستان وإيران وتركيا وشمال إفريقيا»[١].

وتقول صحيفة «الجارديان» البريطانية: «إن إيريل شارون يدعو إلى توسيع آفاق الدولة العبرية لتصبح أكبر قوة عسكرية في العالم. وقبل بضعة أشهر وضع شارون حدود العالم اليهودى عند حدود زائير غربًا وحدود الهند شرقًا[٢]. وهذه لمن لا يعلم هى حدود العالم الإسلامى تقريبًا، وهذا يعلل جزءًا من أسباب ما تقوم به الصهيونية من إثارة للقلاقل، ونشر للحروب بين المسلمين، سواء كانوا دولاً أو أقليات، فكلهم - فى نظر اليهود - خلايا فى جسد واحد، ينبغى أن يستهدف برمته.

٥- التعامل مع القنابل الموقوتة ومحاولة تفجيرها فى الأوقات المناسبة:

يعانى العالم الإسلامى من تناقضات وتباينات، يمكن أن تتحول فى ظروف معينة إلى قنابل موقوتة، تساهم بتفجير الوضع فى العالم الإسلامى، وازدياد التوتر فى علاقاته، والتمزق فى صلاته، وهذا الأمر سيكون موضوع الفصل القادم.

*** مراجع إضافية حول القضية الفلسطينية[٣]:**

من أراد التعرف على إسلامية القضية الفلسطينية وكيف تم التآمر عليها، ودور التيارات الإسلامية فى محاولة الدفاع عن فلسطين فى مختلف المراحل، يمكنه الرجوع إلى المصادر والمراجع التالية:

١- د. عبد الله ناصح علوان: الإسلام والقضية الفلسطينية.

---

(١) مجلة النور - صنعاء: رمضام ١٤١٤هـ - مارس ١٩٩٤م، ص (٤).

(٢) مجلة الإصلاح- الإمارات: العدد (٥٥)، ص (١٥).

(٣) يمكن مراجعة مذكرات زعماء اليهود لمعرفة كيف سقطت فلسطين واستخراج الدروس والعبر من مختلف الأحداث، وفى هذا السياق للمؤلف كتاب «مردة سليمان - قصة الرؤوس التى أوجدت إمبراطورية إسرائيل» يمكن الرجوع إليها

٢- د. زياد أبو غنيمة: الحركة الإسلامية وقضية فلسطين.

٣- كامل الشريف: الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين.

٤- محسن محمد صالح: التيار الإسلامى فى فلسطين وأثره فى حركة الجهاد (١٩١٧م - ١٩٤٨م) (رسالة ماجستير مطبوعة).

٥- د. عبد الفتاح العويسى: تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية.

٦- د. مصطفى السباعى: الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين.

٧- جعفر عبد الرازق: الإسلاميون والقضية الفلسطينية.

٨- أحلام فرهود: التيار الإسلامى والسياسة المصرية تجاه الصلح مع إسرائيل (دكتوراه مطبوعة).

٩- صالح حسن المسلوت: موقف التيار الإسلامى فى مصر من القضية الفلسطينية (١٩٣٦ - ١٩٤٨م).

١٠- فتحى يكن: القضية الفلسطينية من منظور إسلامى.

١١- د. إبراهيم المارديني: ألف يوم مع الحاج أمين.

١٢- د. عايدة سليمة: مصر والقضية الفلسطينية.

١٣- د. صالح مسعود أبو بصير: جهاد شعب فلسطين.

١٤- الحاج أمين الحسينى: حقائق عن قضية فلسطين.

١٥- زهير المارديني: ألف يوم مع الحاج أمين.

١٦- بسام العسلى: ثورة الشيخ عز الدين القسام.

١٧- نبيل شبيب: الحق والباطل فى القضية الفلسطينية.

١٨- د. جمال عبد الهادى: أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، الطريق إلي بيت المقدس، القضية الفلسطينية (ثلاثة أجزاء).

١٩- اللواء حسن البدرى: الحرب فى أرض السلام - الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (١٩٤٧ - ١٩٤٩م).

٢٠- جماعة افتدت أمة - من بطولات الإخوان فى حرب فلسطين - من مذكرات حسين حجازى.

الفصل الرابع

خماسية القنابل الموقوتة في بلدان العالم الإسلامي

المبحث الأول: القنبلة الدينية.

المبحث الثاني: القنبلة الطائفية.

المبحث الثالث: القنبلة العرقية.

المبحث الرابع: القنبلة الحدودية.

المبحث الخامس: القنبلة الديمغرافية القسرية.

المبحث الأول

القنبلة الدينية

من الطبيعى ألا يخلو أى مجتمع كبير من مجموعة من التيارات الدينية والعرقية والطائفية والمذهبية، وإذا وجد المنهج الصحيح، والشعوب السوية بأنظمتها الحيوية، فإن هذه التيارات تصبح نقاط قوة، وأسلحة فتاكة إضافية،بيد تلك الأمة، أما فى الوضع الآخر، وضع التخلف الذى تعيشه أمتنا اليوم، فإن الأمر يختلف، حيث تكون هذه الأمور أسلحة فى يد أصحابها، لكن التخلف يهيئ وضعًا يسمح بتفجرها بأصحابها، وخاصة إذا كان الأعداء يحيطون بالأمة من كل جانب بحثًا ودراسة، لمعرفة نقاط القوة من أجل إضعافها، واكتشاف نقاط الضعف لاستغلالها فى اختراق جدران المقاومة الأخرى، فى طريق العمل الحثيث لإسقاط سقف الأمة على رؤوس أصحابه.

وبناء على مفهوم العالم الإسلامى- الذى أسلفنا فى تعريفه- فإنه ليس كل من يسكن بلدان العالم الإسلامى مسلمًا، فهناك أقليات دينية موجودة بين ظهرانى المسلمين.

وتشير التقديرات القريبة من الحقيقة إلى أن المسلمين يشكلون ٨٨٪ من سكان العالم الإسلامى، بينما تأتى النصرانية كدين ثانى، حيث نسبة النصارى ٦,٥٪، أما البراهميون فهم١,٨٪ والبوذيون ٠,٤٪ واليهود ٠,٤٪ وتوجد أديان أخرى تقدر نسبتها بـ ٢,٩٪[1].

أولاً: النصارى:

أكبر أقلية دينية فى العالم الإسلامى هى النصارى، حيث تصل إلى ٦,٥٪، أى: أن من كل مائتى فرد يوجد ثلاثة عشر فردًا ينتمون إلى الديانة المسيحية، وهذه النسبة هى المتوسط العام، حيث توجد بلدان إسلامية مثل: اليمن والسعودية

(١) بتصرف عن: محمود شاكر: العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه: ص(٢٩).

وأفغانستان والصومال وموريتانيا، نسبة المسلمين فيها ١٠٠٪، وفى المقابل توجد بلدان ترتفع فيها نسب وجود النصارى، مثل: لبنان والسودان وإندونيسا ونيجيريا.

١- **نصارى إندونيسيا:** يشكل هؤلاء أكبر مخزن للنصارى فى العالم الإسلامى، فإندونيسيا أكبر بلد فيه من ناحية السكان، وتقترب نسبة النصارى من ٢٠٪، وهذا يعنى وجود ٤٤ مليون نصرانى فيها، يستخدمهم الغرب كقنبلة موقوتة لتفجير الوضع فى الدولة فى الوقت المناسب، وقد أشرنا إلى شىء من ذلك من قبل، فى حديثنا عن تيمور الشرقية، وكيف استخدمها الغرب لإضعاف إندونيسيا، ثم تعاونت جميع دوله لفصم عراها وتمزيق أوصالها، حيث اقتطعوا تيمور الشرقية نهائياً عام ٢٠٠٢م وفى الطابور جزر ومناطق جديدة.

٢- **نصارى نيجيريا:** وهم ثانى أكبر تجمع للنصارى فى العالم الإسلامى، حيث تصل نسبتهم إلى ٢٥٪ فى الدولة الأولى سكانًا على مستوى أفريقيا، وهذا يعنى أن هذا البلد الإسلامى الضخم يضم أكثر من ثلاثين مليون نصرانى ، تتجمع فى أيديهم أكثر مقاليد الثروة والقوة، ولذلك فقد نجحوا فى ظل غفلة المسلمين وتفرقهم مع مطلع الألفية الثالثة فى إيصال زعيم مسيحى بالانتخاب إلى كرسى الرئاسة فى هذه الدولة ذات الأغلبية المسلمة.

وبسبب هذه الأقلية النصرانية المستقوية، تعانى نيجيريا من انعدام الاستقرار، فالمواجهات الدينية لاتهدأ إلا لتبدأ من جديد، ووصل الأمر إلى اعتراض هؤلاء على تطبيق الشريعة الإسلامية فى الولايات الشمالية ذات الأغلبية المسلمة الساحقة، وواجهوا المسلمين فى الشوارع ليسقط المئات من الضحايا.

وظل العدو الخارجي يستخدم هذه الأقلية لإثارة القلاقل حتى لايذوق الشعب طعم الاستقرار ويتفرغ لمعركة البناء والتقدم، وعادة مايقارف بعض أبناء هذه الأقلية المسيحية مسائل وقضايا تستفز عاطفة المسلمين الدينية، وعلى سبيل المثال، قام بعض هؤلاء فى أواخر ٢٠٠٢م بتنظيم مسابقة ملكة جمال العالم فى نيجيريا، ولما خرجت بعض جموع المسلمين إلى الشوارع للتعبير عن الاعتراض وعدم الرضا عن ذلك، اتهم منظموا المسابقة المسلمين بأنهم لا يفهمون الإسلام، وأن النبى ﷺ لو

كان حـيّاً لأقر هذه المسابقـة، وربما تزوج بملكة جمال العـالم! هذا الكلام البذىء استفز جمـوع المسلمين أكثر من المسابقة ذاتها، وليتكرر بالتـالى سيناريو الصدامات الدموية التى تودى بمئات القتلى من الطرفين.

٣- **أقبـاط مصـر**: رغم أن أقباط مـصر لايزيدون عن ١٠٪ من السكان، ورغم أنهم يوصـفون بالأقليـة الأكـثر تدليـلاً على مسـتـوى العالم، ورغم أن تمثـيلهم الاقتصـادى والثقافى وحتى السـياسى أكبر من حـجمهم بكثيـر، ورغم أنه يوجد بينهم الكثير من العقـلاء الذين يفضلون انتماءهم إلى الحضارة العربيـة كبعد قومى والإسلامية كبعد ثقافى، على الانتماء للحـضارة الغربية التى استعبدت الجميع فى الشرق سـابقًا ولاحقًا، رغم ذلك كله فـإن هناك عناصر كثيـرة فى هذه الأقلية لا تتورع عن تحولها إلى لعبة بيد الأجنبى، الذى يسـتخدم عموم الأقلية عبر هؤلاء، كقنبلة مـوقوتة ضد الدولة وضـد النظام الحاكم، ليسـتخدمهـا إما كوسـيلة ضغط وابتزاز فى بعض الأوقـات، أو كأداة لتفجـير الوضع برمته فى أحـيان أخرى، إذا شعر بالحاجة لذلك.

رغم الانسجام الكـبير بين المواطنين المصريين، أقبـاطًا ومسلمين، إلا أن الأيدى الأجنبية العـابثة لعبت أدوارًا مختلفـة فى إثارة الفتنة الطائفية فى أوقات مـختلفة، وهوّلت أحيانًا من حوادث جنائية بسيطة بين مسلمـين وأقباط، وحولتها إلى قضايا فتنة طائفـية، ساهمت فى (زعزعـة) استقرار البـلد، و(تعزيز) التبعـية للأجنبى، ولعبت الجالية القبطية فى المهجر وخاصة فى الولايات المتحدة دورًا مشهودًا فى هذا الأمـر، حتى أنهم ظـلوا يشكلون مصـدر إحـراج ووسيلة ضـغط على الرؤسـاء المصريين عنـدما يزورون الولايات المتحـدة الأمريكيـة التى وجهت وسـائل صناعة الرأى العام وأوجدت القوانين التى تشـجع هذه الظاهرة، حيث أقر الكونجرس فى منتصف التسـعينات قانون الاضطهاد الدينى الذى يجيز لأمـريكا التدخل العسكرى فى أى بلد، إذا شعرت بأن الجاليات الدينية فيه تتعرض للاضطهاد[1]..

٤- **الأقليات المسـيحيـة فى أكثر بلدان الـعالم الإسلامى**: فى الغـالب يحاول الغرب اسـتخدامهـا كمخلب قط لضـرب استقـرار البلد، كما حـدث من الطائفة

(١) انظر عن أقباط مصر: مجلة المجتمع: العدد (٦٥٥)، ص(٣٣)، مجلة البيان: العدد (١٦٢)، ص(٨٧-٩٤)، مجلة السنة: العدد (١٠٥) ص (٥٣-٦٠).

المسيحية المارونية فى لبنان التى تسببت فى تفجير الحرب الأهلية اللبنانية والتى استمرت ستة عشر عامًا قضت على الأخضر واليابس، وأدت بآلاف القتلى والجرحى، إضافة إلى مئات الآلاف من المشردين والمهجرين، فضلاً عن انعدام الاستقرار وغياب الدولة، مما أدى إلى احتلال (إسرائيل) للبنان، بعد أن اجتاحته بدون مقاومة ذات شأن.

ويستخدم الغرب هذه الأقليات كوسيلة لاضطهاد الأكثريات المسلمة، وهذا موجود فى أفريقيا بقوة إذ رغم أن نسبة المسلمين فى تشاد تصل إلى ٩٠٪ من السكان إلا أن فرنسا سلمت السلطة عند مغادرتها إلى الأقلية المسيحية، وكذلك فعلت فى السنغال، وفى فولتا العليا (بوركينا فاسو)!

ثانيًا: اليهود:

قبل قيام الكيان اليهودى فى فلسطين كان هناك جاليات يهودية لابأس بها فى الوطن العربى، ورغم صغر حجمها السكانى -نسبة إلى عدد السكان الإجمالى فى كل بلد- إلا أنها لعبت أدوارًا فاقت أحجامها بكثير، بما يصل إلى عشرات المرات فى بعض الأحيان.

وقد ظلت الأقليات اليهودية تمثل مصدرًا لإزعاج الدول التى توجد فيها، حيث كانت تتعامل مع الاستعمار كما أثبتت الوثائق بالنسبة لليهود فى عدن والذين كانوا عيونًا للإنجليز على اليمنيين.

وفى هذه الفترة أصبحت الأقليات اليهودية رمزية فى أكثر البلدان، لكنها ماتزال تشكل هاجسًا كبيرًا للعالم الإسلامي، إما لأنها تتحكم بمصادر اقتصادية كبيرة تمكنها من العبث باقتصاديات البلدان، خاصة إذا نسقت مع اليهود خارج العالم الإسلامى (فى الغرب)، وإما لأنها تستخدم كأداة إحراج للأنظمة ووسائل ابتزاز، بحجة أن المجتمعات الإسلامية معادية للسامية وتضطهد الأقليات وتنتهك القوانين الدولية، وهذا الأمر عادة مايستخدم ضد الأنظمة غير المنبطحة، مثل قضية يهود إيران والعراق وسوريا.

جدول رقم (٦) مقارنة بين الأقليات اليهودية فى بعض البلدان العربية بين (١٩٥٨ و١٩٩٢م)[١].

البلد	اليهود سنة ١٩٥٠	اليهود سنة ١٩٩٢
مصر	٧٥,٠٠٠	٢٠٠
العراق	١٢٠,٠٠٠	٢٠٠
لبنان	٦,٧٠٠	٢٠٠
سوريا	٦٠٠٠	١,٢٠٠
اليمن	١١,٢٠٠	١,٦٠٠
ليبيا	١٤,٠٠٠	-
تونس	١٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠
الجزائر	١٢٠,٠٠٠	٣٠٠
المغرب	٢٤٦,٠٠٠	٧,٥٠٠
البحرين	٤٠٠	-

وعند العودة إلى الجدول رقم (٦) نجد أن أعداد اليهود فى الدول العربية أصبحت رمزية جدًا، ومع ذلك فقد أثبتت الوقائع أن كثيرًا من هؤلاء لعبوا دور الطابور الخامس بتوجيه من الموساد ضد الدول التى يتواجدون فيها، سواء بسرقة أسرارها وتسريبها، أو بالتلاعب باقتصادياتها، أو بتشكيل رأى عام معادى لها، بحجج مختلفة من ضمنها معاداة السامية.

ونلاحظ أن الجدول غير دقيق فى أرقامه، فاليمن- مثلاً- فى آخر إحصاء سكانى فيها مع نهاية القرن العشرين لم يزد عدد اليهود عن خمسمائة فرد، متركزين فى قرى بسيطة من محافظتنى صعده وعمران. ولكن هناك أقليات يهودية كبيرة فى بلدان إسلامية غير عربية مثل: إيران وجمهوريات آسيا الوسطى، ويمكن أن تمثل نوعًا من القنابل الموقوتة، لكنها بسيطة، وليست بحجم القنابل المسيحية.

ثالثًا: الوثنيون:

وهم من أديان شتى، فهناك البراهميون والبوذيون والكونفوشيوسيون والشنتيون، وكلهم فى قارة آسيا، وتصل نسبتهم إلى ٣,٦٪ من سكان العالم

(١) المصدر: مجلة البيان: العدد (١٦٢)، ص(١٠٠) (بتصرف).

الإسلامى بينما الديانات التوتمية تشكل ما نسبته ١,٥٪ من سكان العالم الإسلامى، وهى غالبًا فى أفريقيا.

وهذه الأقلية متفرقة وغير متجانسة، ولاتشكل بمفردها قنابل موقوتة، ولكن فى ظل العلو الغربى فإن الجهات الغربية تدفع بهذه الأقليات للانضمام إلى الأقليات المسيحية، لتشكل مصدر خلخلة للوضع فى أى بلد يراد خلخلته من البلدان التى تحتوى مثل هذه الأقليات.

ويمكن أن نضرب المثل الواضح بجنوب السودان الذى تقول الإحصاءات الرسمية: إن عدد النصارى فيه يصل إلى ١٩٪ من مجموع السكان، ويصل المسلمون إلى ٢١٪، بينما النسبة الأكبر الباقية هى من نصيب الوثنين وهى ٦٠٪.

وقد ظل جنوب السودان مرضًا مزمنًا فى الدولة السودانية، فهو مصدر القلاقل الداخلية وهو سبب الانقلابات المتتابعة، وهو مبرر الضغوط الخارجية، وهو عند الحاجة إلى ذلك القنبلة التى يمكن تفجيرها لمنع الحركة من التواصل فى البناء الداخلى، أولإغلاق البوابة الدعوية نحو أفريقيا.

ورغم أن هذه المشكلة زرعها الاستعمار البريطانى من عهود خلت، لتظهر إلى السطح منذ عام ١٩٤٥م، أى: قبل استقلال السودان بعامين، فإن مشكلة الجنوب المسيحى، المدعم بالوثنين رغمًا عنهم فى مواجهة الشمال المسلم، لم تظهر بقوة إلا بعد إعلان النميرى فى ١٩٨٣م مشروع تطبيق الشريعة الإسلامية، حينها خرج جون قرنق وأتباعه إلى الغابات، وحملوا السلاح على الحكومة، ولما جاءت ثورة الإنقاذ واتضحت مشاريعها الاستقلالية، حاولت تجاوز محنة الجنوب بالاعتراف بالمشكلة وتقدير العديد من المشاريع التى تلبى مطالب الجنوبيين وأكثر، ووصل الأمر إلى إعلان حكومة الإنقاذ موافقتها على فترة انتقالية يجرى بعدها استفتاء لتخيير الجنوبيين بين الوحدة أو الانفصال، وهذا مالم يكن يطالب به الجنوبيين فى الأصل، ومع ذلك فإن المشكلة لم تنته، لأن جون قرنق يحرك بالريموت كنترول (عن بعد) مما يؤكد أن الغرب يستخدم هذه الأقليات كقنابل موقوتة، يريدها أن تصبح مزمنة لكى تحول دون تحقيق التقدم الحضارى المطلوب فى العالم الإسلامى.

المبحث الثانى
القنبلة الطائفية

من الناحية الطائفية يمكن تقسيم العالم الإسلامى إلى قسمين رئيسيين: الأول: يضم طائفة السنِّة، وهى تمثل الغالبية العظمى من المسلمين، وتصل نسبتهم إلى ٩٣,٨٪ أما القسم الآخر: فهو الشيعة، وهم جناحان: الشيعة الإمامية وتصل نسبتهم إلى ٥,٧٪ من السكان المسلمين فى العالم، وجناح الفرق الباطنية التى هى محسوبة على المسلمين، لكن عامة أفرادها يحاربون المسلمين، ويوالون أعدائهم، وهؤلاء لايزيدون عن ٥,٠٪ وينتمون إلى فرق عدة، من نصيرية ودروز وإسماعيلية وابنجان وقاديانية وبهائية، وهى مع ذلك تحمل اسم الإسلام، وتدعى الانتماء إلى أمة المسلمين، وخاصة إمام المسلمين[١].

والطائفية تتحول إلى قنبلة موقوتة عندما تسيطر الأكثرية على مقاليد الأمور، وتضطهد الأقلية ولاتعطيها حقوقها المضمونة فى الشرع وفى الدساتير والقوانين، وفى العهود والمواثيق الدولية التى تتحدث عن حقوق الإنسان، وبالتالى يكون هناك ظالم ومظلوم، الظالم مصاب بعقدة التفوق والاستعلاء والمظلوم يعانى من عقدة الانتقاص، ويشعر بالقهر والحرمان، وحينها يدخل الغريب على الخط، ويتدخل فى الأمر بأساليب تبدو للمظلوم الحاقد أنها إنسانية، ثم إن الحقد أعمى، فإن المظلوم إذا قهر باغتصاب حقوقه المادية أو الإنسانية، أو بتعذيبه والحجر على حرياته، أو بانتهاك عرضه، فإنه حينئذ يملك استعداداً للتعاون مع الشيطان ضد ظالميه ومسببى آلامه!

هذا الأمر يحدث كل مرة فى بلدان عربية وإسلامية عديدة، بسبب غياب الحقوق والحريات الإنسانية، سواء بمقياس الشرع أو المواثيق الدولية، وبالتالى تصبح الأقليات الطائفية فى هذه الظروف أداة لزعزعة الاستقرار، والضغط على الأنظمة، وربما استخدمت كقنابل موقوتة، يمكن أن تتسبب فى تفجير الأوضاع برمتها، وسنشير هنا إلى بعض صور هذه المشكلة فى عدد من البلدان الإسلامية.

(١) انظر محمود شاكر: العالم الإسلامى ص(٢٩، ٣٠).

أولاً: الشيعة والسنة:

يشكل الشيعة أكثرية فى عدد قليل من البلدان الإسلامية، تأتى طاجيكستان فى مقدمتها بنسبة تصل إلى ٩٨٪ ثم إيران بنسبة ٦٤٪ من مجموع السكان، وهناك أذربيجان التى يزيد الشيعة فيها قليلاً عن السنة، وكذلك الوضع فى العراق، فإذا اجتمع السنة العرب مع الأكراد، فإن الشيعة قد يزيدون قليلاً عن النصف، أى: حوالى ٥٣٪، وإن كانت الأرقام الدقيقة والمأمونة غير موجودة، حيث يبالغ الشيعة فى أعدادهم، والأقرب إلى الحقيقة، هو ما أثبتناه هنا، من أن نسبة الشيعة تصل إلى ٥٢٪ أما فى البحرين فإن الأمر غير واضح، ومهما يكن الأمر فإن التقارب قائم بين أعداد السنة والشيعة هناك، وإن كان كل طرف يدعى إنه هو الأكثر، وكذلك الأمر فى لبنان تقريبًا.

وماعدا هذه البلدان، فإن السنة يمثلون الأكثرية الغالبة أو الساحقة، فى كل بلدان العالم الإسلامى، إذن، يمكن الاتفاق على أن هناك أقليات طائفية فى أكثر بلدان العالم الإسلامى:

١- الأقلية الشيعية فى باكستان وأفغانستان: وتتراوح بين ١٠٪ -٢٠٪ حسب مختلف التقديرات، فالسنة يوصلونهم إلى ١٠٪ والشيعة يقولون: إنهم لايقلون عن ٢٠٪ وهذا الأمر أحد أوجه المأساة فى الطائفية التى يعمل الغرب والعوالم الأخرى على استخدامها كقنبلة موقوتة ضد بلدان العالم الإسلامى، بسبب انعدام الموضوعية فى التعامل، وعدم تغليب أوجه الانفاق على أوجه الافتراق .

وفى أفغانستان كانت الطائفية إحدى القنابل التى أودت بحياة الجهاد الأفغانى، ومن ثم الدولة الإسلامية المنتظرة، حيث عمل الشيعة بالتحالف مع الشيوعيين على إفشال الجهاد وإدخال حركات المجاهدين فى نفق الاقتتال والتمزق والاحتراب.

وفى باكستان، ورغم التسامح القائم بين الطائفتين منذ قرون خلت، والذى وصل إلى حد عدم التميز بمساجد خاصة، والتزاوج بين الطائفتين، فإن دولاً عدة، على رأسها الهند، تعمل على استخدام هذا العامل لزعزعة الاستقرار، بإيجاد بعض الحوادث والوقوف خلف بعض الأحداث، فى محاولة لزج البلد فى آتون

حرب طائفية، أو على الأقل تترك البلد على صفيح ساخن، لايعطيها فرصة الشعور بالاستقرار والتفرغ لإعمار الحياة وخدمة الإنسان، ومواجهة الأخطار الخارجية القائمة والمحتملة.

٢- الشيعة فى الخليج، يقترب شيعة البحرين من نصف عدد السكان، وفى السعودية توجد أقلية شيعية فى الشرق، وخاصة فى مدينتى القطيف والهفوف، وربما وصلت نسبتهم إلى ٨٪ من سكان المملكة، لكن تركزهم فى المنطقة الشرقية، وفى ظل التفتت الإسلامى الداخلى، والتآمر الدولى الخارجى، فإنهم قد يشكلون قنبلة موقوتة، يمكن لجهات خارجية استخدامها ضد الدولة السعودية، فى الوقت الذى تراه مناسبًا أو ضروريًا لذلك، وبعد أحداث (١١ سبتمبر ٢٠٠١م) اتهام الدوائر الغربية للمسلمين بالوقوف خلفها، عبر إعلان أسماء من زعمت أنهم قاموا بتنفيذ تفجير مركز التجارة الدولى فى نيويورك، وبعد اتضاح أن هذه الأسماء تنتمى أكثرها إلى السعودية، ظهرت دعوات متطرفة فى الولايات المتحدة تدعو لضرب المملكة، وربما تمزيقها، وقد تسربت إلى بعض الوسائل الإعلامية سيناريوهات التمزيق، كان أبرزها يتكئ على التقسيم الطائفى، إذ يقترح فصل المنطقة الشرقية فى دولة مستقلة، لأنها تحمل بذور الانفصال، حيث تركز الثروة النفطية فيها، ثم إن مجمل الطائفية الشيعية تستوطن هذه المنطقة.

وفى الكويت توجد أقلية شيعية، لكن الهامش الموجود فى مجال الحريات عمل على تقريب الفجوة بين السنة والشيعة، وهذا يؤكد دور الحريات السياسية والفكرية فى المحافظة على وحدة العالم الإسلامى، وتحويل هذه التعددية من أداة (تآكل) إلى وسيلة (تكامل).

٣- السنة فى إيران: إذا كانت معاناة الأقليات الشيعية فى بلدان السنة، نتيجة لسيطرة مجموعات مستبدة على الحكم، وعدم تطبيقها للشريعة الإسلامية، باستثناء السعودية إلى حد ما، فإن معاناة طائفة السنة فى إيران أشد رغم أن النظام الحاكم نظام إسلامي، وكان زعيمه، الإمام آية الله الخمينى ملتحمًا قبل الثورة مع الحركات الإسلامية السنية، فكرًا وحركة، حتى أنه عندما كان يُسأل عن الهوية الطائفية

للدولة التى يدعو لها، فإنه يجيب بأنها إسلامية وحسب، ولكن الأمر تغير بعد الثورة، فقد أصبحت الدولة شيعية إمامية، وليست إسلامية.

ومع أن دولة تنص فى دستورها على أنها إمامية اثنا عشرية، إنما تتجاهل ٣٦٪ من السكان السنة، فإن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى غيره، حيث يتحدث أهل السنة عن اضطهادهم، ومنعهم من أخذ حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية على قدم المساواة مع الشيعة، بل وحرمانهم من حرية أداء الشعائر التعبدية وفقًا لفكرهم السنِّى، وإذا كان الأمر كذلك، فإن إيران تخبئ، فى داخلها قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر فى أى وقت، وخاصة إذا عمل الغرب على تحريك الأحداث فى اتجاه الانفجار.

ومما يزيد من خطورة هذه المشكلة فى إيران، أن الطائفية مرتبطة إلى حد كبير بالعرقية، إذ ينتمى معظم الفرس إلى الطائفية الشيعية، بينما تستحوذ طائفة السنة على معظم الأعراق الأخرى الموجودة فى إيران، وهم الأتراك الذين يتركزون فى غرب إيران، والتركمان فى الشمال الشرقى، وكذلك العرب الأكراد واللور والبالوخ، وهم يتوزعون فى مناطق مختلفة.

ويمكن أن نقول مثل ذلك عن الأقليات السنية الموجودة فى طاجيكستان وأذربيجان، حيث لابد من استحضار القواسم المشتركة بالمقياس الدينى، واستحضار مفردات المواطنة المتساوية بالمقياس الديمقراطى العصرى، واستحضار الأعداء المشتركين والتحديات الواحدة بالمقياس المصلحى الواقعى، حتى يتم تجاوز الطائفية المقيتة، التى يمكن استزراعها على شكل قنابل موقوتة، من قبل العدو التاريخى والحضارى للجميع.

ثانيًا: الأقليات الطائفية القديمة:

هناك طوائف صغيرة، وجدت منذ القدم داخل المجتمعات الإسلامية، يمكن فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى تمر بها الأمة، أن تستخدم على الأقل كخناجر، إن لم يمكن استخدامها كقنابل، نظرًا لصغر حجمها، وخاصة أن بعض هذه الطوائف تتحكم بمقاليد بعض الدول أو المجتمعات الإسلامية، وأهم هذه الطوائف:

١- الإسماعيلية والبهرة

وهم من غلاة الشيعية، يدعون الانتساب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد انفجرت إلى مجموعة من الفرق الصغيرة، لكنها لعبت دورًا كبيرًا فى التاريخ الإسلامى، وساهمت فى فترات متفرقة فى تمزيق الأمة، وفى التعامل مع الأعداء الأزليين للمسلمين، مثل التتار والصليبيين.

ومن هذه الفرق: الحشَّاشون، والقرامطة، والخرمية، والبهرة، وغيرهم. وقد بادت بعض الفرق، وهناك استمرار لبعضها، مثل البهرة التى لم تحفظ لنفسها الديمومة والاستمرار، بل أنها تزداد انتشارًا، بفضل مهادنتها ومجاملتها للسلطات القائمة فى كل بلد توجد فيه، وبفضل تنظيمها وتخطيطها، وامتلاكها لإمكانيات هائلة، إذ أن معظم أفراد هذه الطائفة،إن لم يكونوا كلهم، يمارسون التجارة، وبالمناسبة فإن لفظ (بهرة) ذو صلة بهذا الأمر، فهو كلمة هندية قديمة معناها (التاجر)، وتتجمع كمية هائلة من الأموال بيد سلطان الطائفة الذى يقدسه البهرة، حيث يمتلكون الإمكانات من ناحية، ويفرض دينهم- الذى تعارفوا عليه- على كل فرد أن يعطى ١٠٪ على الأقل من دخله لسلطان الطائفة.

تنتشر هذه الطائفة بصورة أساسية فى ثلاثة بلدان، هى: الهند، حيث يتركز البهرة فى قلب المدن الرئيسية، وخاصة فى مدينتى بومباى ودلهى، أما البلد الثانى فهو باكستان، ويشبه وضع الهند، فمع أن نسبة البهرة قليلة فى أوساط المسلمين، لكنهم يلعبون دورًا كبيرًا، وخاصة فى الجوانب الاقتصادية والسياسية، نظرًا لسيطرتهم على نسبة كبيرة من الحركة التجارية فى هذين البلدين. أما البلد الثالث فهو اليمن، وقد كانت عدن مركزهم الرئيسى أيام الاستعمار الإنجليزى بعد بومباى، غير أن تواجدهم الآن أصبح شبه محصور فى مديرية حراز، إضافة إلى جيوب صغيرة فى مناطق أخرى، مثل العدين ويريم من ضمن مديريات محافظة إبّ، ويعمل البهرة فى اليمن بصورة منظمة وبخطوات محسوبة، من أجل تثبيت أقدامهم من ناحية، وتسريع حركتهم لكسب مواقع جديدة، ومصدر الخطورة فى بهرة اليمن ليس فى هذا الأمر فحسب، ولكنه يأتى من قبل المجتمع والدولة، حيث تسعى جهات لتثبيت البهرة كطائفة داخل اليمن، دون نظر للعواقب البعيدة

المدى، حيث إن من نعم الله على اليمن أن أغلب التناقضات التى يمكن أن تصبح قنابل موقوتة غير موجودة، لكننا بسبب جهلنا ربما أوجدنا سلاح الطائفية الذى يمكن أن يستغله الاستعمار ويغمده فى صدورنا بعد حين!.

٢- الدروز:

ينتسبون إلى محمد بن إسماعيل الدزى الفارسى الأصل، والذى ألف كتابًا حول الحاكم بالله العبيدى، سلطان الدولة الفاطمية فى مصر فى مطلع القرن الخامس الهجرى، زعم فى هذا الكتاب ألوهية الحاكم بالله، وفسرَّ الإسلام تفسيرًا باطنيًا، كفره علماء المسلمين بسببه، وحاول العامة قتله حتى فر من مصر.

يتركز تواجد الدروز، الذين أصبحت لهم عقائد غريبة وعجيبة، فى بلاد الشام، حيث يتوزعون فى سوريا ولبنان وفلسطين.

وقد ثبت تاريخياً أن الاستعمار الصليبى القديم والحديث استخدمهم كرأس حربة لضرب المجتمعات الإسلامية هناك، وثبت مثل هذا الدور عند غزو إسرائيل للبنان، أما فى فلسطين فإن أبناء الانتفاضة يقولون: إن أكثر الجنود الإسرائيلين قسوة عليهم، هم المنتمون إلى طائفة الدروز، حيث امتنع عدد كبير من عرب ١٩٤٨م عن التجند فى الجيش الإسرائيلى، وتقدم غيرهم؟).

٣- النصيرية:

وتنتسب إلى محمد بن نصير أحد موالى بنى نمير، وكان من أنصار الإمام الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر عند الإمامية، وهو مصدر المقولة التى نفاها المؤرخون، حول أن الحسن العسكرى كان له طفل اسمه محمد اختفى فى سرداب بسامراء، هذا الطفل الوهم هو الإمام الثانى عشر والمهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا، عند الإمامية.

وكان محمد بن نصير قد قال بهذه الأكذوبة ليضمن لنفسه مكانة متميزة عند الشيعة، حيث زعم أنه باب الإمام الثانى عشر حتى يظهر -أى: نائب- ولما كان أغلب الشيعة قد رفضوا تحديداً أن يكون هو الباب، فقد فرّ إلى فارس، وهناك

غـالى فى إظهار حب الإمـام على بن أبى طالب حـتى أوصله إلى درجـة الإله، وكوّن له فرقة جديدة على هذا الأساس.

يوجد أتباع لهذه الطائفة فى سوريـا، حيث تصل نسبتهم إلى ١,١١٪ من عدد السكان تقريبًا، إضافة إلى نسب أقل فى جنوب تركيا وشمال لبنان، وبعض القرى الفلسطينية البسيطة عند الحدود مع سوريا.

ثالثًا: الأقليات الطائفية الحديثة:

١- البابية والبهائية:

وكلاهما اسم لحركة واحدة نشـأت بالتدرج فى إيران على يد الميرزا على محمد الباب سنة ١٨٤٤م، ولها الكثير من العـقائد الغريبة عن الإسلام، من الدعوة إلى الإباحية الجنسـية، والتفسيـر الباطنى للعقائد الإسـلامية، وعدم الإيمان ببعـضها، والقـول بالتناسخ وخلود الكائنات، وأن الثـواب والعـقاب يكون للأرواح فـقط، وإلغاء الصلوات الخـمس وصلاة الجـمعة والجـماعة، وإبطال الطـهارة من الجنابة، واعتقاد أن شهر الصوم يتكون من ١٩ يومًـا فى أول الربيع، وكثير من هذه العقائد الخارجة عن ثوابت الإسلام.

وقد نـشأت هذه الحركـة فى مدينـة شيراز بإيـران، مدعومـة من قبل الإنجلـيز والروس ويهـود إيران، وتنتشـر هذه الطائفة فى إيران بصـورة أساسـية، رغم أن محفلها الرئيسى فى العالم موجود فى مدينة حيفا الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م، وتتواجد فى أواسط الأقليات المسلمة فى الغرب.

٢- القاديانية:

هى طائفة منحرفة، تزعم الانتساب إلى الإسلام، أنشأها عام ١٩٠٠م فى الهند المرزا غـلام أحـمـد، وتنتـسب إلى مـديـنة (قـاديان) الهندية التى تقـع فى إقليم البنجاب. وقد أثبـتت الأحداث والوثائق أن الاستعمـار الإنجليزى هو الذى خطط وموّل هذه الحـركة لضرب الإسـلام من الداخل، وتحطيم معانى الجـهاد فى قلوب المسلمين.

وقد بدأت دعوة الميرزا غلام أحمد بتحركه كمصلح يناظر أعداء الإسلام ويدافع عن المسلمين، ثم ادعى أن الله كلفه بإصلاح الخلق، ثم ادعي أنه نبى مثل المسيح -عليه السلام- وبدأ يؤلف الكتب فى هذه المعاني، ويدعو المسلمين إلى اتباع دعوته وإلا فهم كفار. وفى نفس الوقت كان يثنى على الإنجليز ، يقول فى كتابه (ترياق القلوب): (لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية) ونصرتها، وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر (الإنجليز من الكتب والإعلانات والنشرات مالو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة، وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر والشام وتركيا. وكان هدفى دائمًا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك والمسيح السفاح والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى). ويتركز تواجد القاديانية فى باكستان وخاصة فى مدينة كراتشى، وفى أوساط الجاليات المسلمة فى الغرب وبعض الدول الإفريقية.

وهناك الكثير من الكتب التى ألفت حول عقائد القاديانية والبهائية، وعلاقاتها الخارجية، يمكن بالرجوع إليها اكتشاف انحراف هذه الطوائف عن الإسلام، واكتشاف أنها أحد أسلحة الغرب التى رمى بها المسلمين فى العصر الحديث، من أجل مزيد من التمزيق لمجتمعاتهم.

***

المبحث الثالث

القنبلة العرقية

توجد فى العالم الإسلامى أعراق وقوميات كثيرة، يجمعها الإسلام وقواسم العالم الإسلامى المشتركة وهى كثيرة، وقد تحدثنا عنها من قبل.

وفى ظل العصبيات القومية والعرقية، دخلت أقليات من بعض الأعراق تحت حكم الأكثرية، وعندما يغيب الإسلام وتغيب الحريات والمساواة، تحدث الكثير من المشاكل بين الأعراق، حيث يمكن أن ينفذ الاستعمار من الثغرات العرقية، ويمكن أن ينميها ويحيلها إلى نوع من القنابل الموقوتة، بحيث يتحكم بها عن بعد، ليفجرها فى الوقت المناسب. وفى هذه العجالة، سنأخذ نماذج من القنابل العرقية:

١- القنبلة الكردية:

يقدر عدد الأكراد بـ ٢٥ مليون نسمة ٤٦٪ منهم فى تركيا، ٣١٪ فى إيران، ٥٪ فى أرمينيا ٥٪ فى سوريا ١٨٪ فى العراق.

وكنموذج للمشكل الكردى فى هذه الدول الإسلامية كلها، عدا أرمينيا، نجد أن الأكراد يتركزون فى أربع محافظات فى شمال العراق، ويبلغ عددهم ٣,٨٠٠ مليون نسمة، ولم يكن بينهم وبين العرب أى إشكال، حيث يحرص المسلمون الأعاجم على احترام العرب إلى أبعد حد، ثم أن الأكراد صاروا فى حكم العرب، لأن غالبيتهم تتحدث العربية، والنبى ﷺ يقول: **«إنما العربية اللسان»**. فما الذى أوجد مشكلة الأكراد؟

الغرب هو المسئول بالدرجة الأولى، سواء من الناحية الثقافية، حيث صدّر القومية إلى العالم الثالث، أو من الناحية العملية المباشرة، إذ رعى كل الأفكار القومية حتى لا يتوحد العالم الإسلامى، ولما جاء حزب البعث فى سوريا والعراق، ليغالى فى مكانة العرب ويقدم المسيحى العربى على المسلم الكردى، بدأ الأكراد- كرد فعل طبيعى لذلك- يبحثون عن جذورهم القومية بعد أن لم يعد الإسلام جامعًا للقوميات.

وكان قد تأسس الحزب الديمقراطي الكردستاني في شمال العراق سنة ١٩٤٦، واتجاهه قومي، ثم انشقت عنه في ١٩٧٥م مجموعة من القيادات الأكثر ميلاً إلى الليبرالية الغربية ليتكون حزب جديد أصبح اسمه الاتحاد الوطني الكردستاني، ولتصبح علاقة هذين الحزبين -وفقًا لمنظومة التفتت الإسلامي المعاصر- مثل علاقة القط بالفأر، حيث خاضا الكثير من الصراعات السياسية والعسكرية، بجانب حربهما ضد النظام العراقي في بغداد.

وكتعبير عن عدم رضا الإسلاميين عن هذين الحزبين تأسس الاتحاد الإسلامي الكردستاني في عام ١٩٩٤م كحزب إصلاحي غير مسلح، وله علاقات جيدة مع الجميع، وقبل ذلك نشأت الحركة الإسلامية عام ١٩٨٧م بدعم إيراني لمواجهة النظام العراقي بعد عملية (الأنفال) التي قادها نظام البعث ضد الأكراد؛ لأنهم طالبوا بخصوصياتهم الثقافية واللغوية، وظلت حالة التشرذم تفرز المزيد من الأحزاب والجماعات التي لا تجتمع إلا على العداء للنظام العراقي في بغداد.

وعندما أراد الغرب ضرب العراق فجروا هذه القنبلة العرقية، وبدأوا يتحدثون عن عملية (الأنفال)، وعن استخدام السلاح الكيماوي في (حلبجة) الكردية، ويستضيفون قيادات الأكراد، وإضافة إلى وجود القابلية لاستخدام (الأكراد) كقنبلة، ضد العراق بسبب الظلم والطغيان وإضافة إلى الدور الغربي في ذلك، كانت الأصابع الصهيونية تعبث بكردستان وتدفعه للتحول إلى قنبلة لتفجير العراق[1].

٢- القنبلة الأمازيغية في شمال أفريقيا:

الأمازيغ هم السكان الأوائل الذين استوطنوا شمال أفريقيا، قبل مجئ المسيحية والإسلام، وينتشرون في دول المغرب العربي: الجزائر والمغرب وموريتانيا وتونس، إضافة إلى ليبيا والنيجر ومالي وسيراليون.

وبما أن الإسلام لايعترف بالقوميات إلا كأداة للتعارف والتآلف، ويجعل العروبة دائرة مفتوحة، فمن تعلم العربية أصبح عربياً، فقد أصبحت معظم دول شمال أفريقيا عربية، وبقيت اللغة الأمازيغية والعادات والتقاليد مجرد تراث تاريخي

(١) عن دور إسرائيل في كردستان العراق، انظر مجلة المجتمع: العدد (١٣٩٨)، ص(٢٠-٢٣).

كامن، ولما جاء الاستعمار الفرنسي، وكعادته في تمزيق الشعوب الإسلامية، فقد تزعم هذه القنبلة وتعهدها بالرعاية، عن طريق الدعم المالي والمدد الرجالي، حيث أوجد لها أكاديمية بربرية في بلادها، وأنشأ لها قناة فضائية خاصة، وحتى تبرر فرنسا تدخلها السافر في شؤون العرب المسلمين في شمال أفريقيا فقد اعتبرت الأمازيغية امتدادًا للثقافة الفرنكفونية، واعتبرت أبناءها أوربين، وأعطتهم امتيازات خاصة، تبدأ بالجنسية الفرنسية (ازدواج الجنسية) وتمر بالدعم المالي والسياسي، ولاتنتهي إلا عند ربط المصير بالمصير.

ومع شراسة الهجمة الفرنسية فقد كانت النجاحات طفيفة، فرغم تشجيع فرنسا على تعليم الأمازيغية وتحريمها لتدريس اللغة العربية، فقد كان معظم الجزائريين يتكلمون العربية، وبعد الاستقلال (الشكلي) للجزائر عام ١٩٦٢م وبقاء التبعية الثقافية والاقتصادية، إضافة إلى ظهور القومية العربية كعصبية، بدأت تطفو على السطح ظاهرة (الأمازيغية).

وتقول الأرقام: إن نسبة الجزائريين الذين يتكلمون العربية بعد استقلالها أقل من نسبتهم قبله، حيث كان الإسلام هو الدافع لتعليم العربية، أما بعد ذلك، فقد تحول الأمازيغ، وبالأصح حركاتهم السياسية المتعصبة إلى خصم للعربية والإسلام، حيث حال هؤلاء دون تطبيق مشاريع الأسلمة والتعريب، وخرجوا في مسيرات ضخمة لمعارضة التعريب، في شوارع الجزائر.

وانتقل الأمازيغ من خانة الدفاع إلى الهجوم، فضغطوا لإحياء الثقافة البربرية، واعتبار العرب غزاة، مع ما يستتبع ذلك من ضرورة مقاومة ثقافة الغازي لغة وتشريعًا وأخلاقًا وعادات، وتم تجميع طوائف البربر تحت راية واحدة موازية للراية العروبية الإسلامية، وقام اللائكيون (العلمانيون) من البربر باستثارة الحمية القومية للبربر، وركزوا على القبائل المتميزة بالقوة والشراسة في منطقتي (تيزي أوزو) و(الجاية)، حتى مشاريع وبرامج التنصير أظهرت اهتمامًا خاصًا بهذه المناطق، وقد نجح التنصير بالفعل في اختراق هذه القبائل بصورة مخيفة.

وظل الغرب يستخدم هذه الأقلية كشوكة في حلق النظام في الأوقات العادية مع العمل الحثيث على السير في طريق الانفصال عن الجزائر الأم، مالم تسيطر على مقاليد الحكم وتعمم النموذج الغربي على الجزائريين.

ومهما كان الأمر، فإن القنبلة البربرية ظهرت عندما أزيح الإسلام عن الحياة، ولن يبطل مفعول هذه القنبلة وأمثالها إلا الإسلام ذاته، لأن الكردى والأمازيغي والزنجي والإيرانى والهندى كلهم مستعدون للتنازل عن ثقافاتهم القومية لصالح الثقافة الإسلامية وليس لصالح الثقافة العربية.

٣- الزنوج فى السودان وموريتانيا:

سبق أن مررنا على نشأة مشكلة الجنوب السودانى، وعرفنا أن الاستعمار الإنجليزي، أغلق المنطقة الجنوبية لتظل متميزة عن الشمال، ففى مقابل الشمال المسلم كان الجنوب فى الغالب وثنياً أو مسيحياً، وفى مقابل عروبة الشمال يمثل الجنوب العنصر الزنجى، إضافة إلى وجود مشاريع البنية التحتية فى الشمال وندرتها فى الجنوب، كل هذا- بجانب التحريض الغربى والدعوات القومية للعرب- ساهم فى إيجاد مشكلة الجنوب السودانى.

ويمكن القول مثل ذلك فى مسألة الزنوج فى جنوب موريتانيا التى هى دولة عربية وعضو فى جامعة الدول العربية، وجاء عقدا السبعينات والثمانينات لتنشيط الحركة القومية العربية هناك، مما أدى إلى استفزاز الجنوب الزنجى، بل واستفزاز الدولة الزنجية الجارة (السنغال) وهذا وذاك أديا إلى إيجاد فتنة داخل الدولتين وبينهما، فقد قامت موريتانيا بطرد مجموعة من الزنوج الذين اتهمتهم بالعمالة للسنغال، وفى الطرف الآخر قامت السنغال بأسوأ من ذلك، حيث طرد أكثر العرب المقيمين فى شمالها بنفس التهمة وبذات المبررات.

وقد استغلت الدوائر الغربية والصهيونية الحملات الإعلامية المتبادلة بين السنغال وموريتانيا - والتى وصلت حد المصادمات العسكرية المحدودة- فى فتح ملفات مليئة بالأكاذيب، حول استعمار العرب للأفارقة، واستعبادهم وبيعهم فى أسواق الرقيق، مما أدى إلى موجة منظمة فى كثير من دول غرب أفريقيا لمعاداة العروبة والعرب، ووصلت الموجة فى بعض الأحيان إلى سلب أموال العرب وقتل بعضهم، وخاصة الجاليات اللبنانية التى تتواجد بقوة فى تلك البلدان، و تسيطر على نسب مقدرة من حركة التجارة فيها[١].

(١) حول هذا الموضوع يمكن مراجعة مجلة لواء الإسلام- القاهرة: ٥ يونيو ١٩٨٩م، ص(٤٠، ٤١).

المبحث الرابع

القنبلة الحدودية

ترتبط هذه القنبلة بصلة وثيقة بقنبلة الأعراق، فإن التنافس العرقى المحموم يمكن أن يؤدى إلى صدامات حدودية بين الدول، مثلما حدث بين موريتانيا والسنغال، وكلاهما ينتمى إلى قومية أخرى.

ويمكن أن توجد دولتان تنتميان إلى ذات القومية، ومع ذلك تحدث بينهما صدامات وحروب على الحدود، بسبب أن الاستعمار هو الذى وضع هذه الحدود، متعمدًا أن يوجد الكثير من التناقضات التى تضمن على المدى البعيد عدم حدوث الاستقرار والوئام بين هذه البلدان، بل وأن توجد مناطق يمكن أن تتسبب فى إحداث صدامات بين البلدين فى الوقت الذى يراد لها ذلك، كأن يؤخذ إقليم من هذا البلد ويلحق بذاك، حتى تظل إمكانيات التوتر والانفجار قائمة بصورة دائمة، ولأن هذه العملية لم تكن فعلاً عشوائية من قبل الاستعمار، وإنما هى عمل منظم مدروس، فإن القنابل الحدودية تتكثف فى المناطق المهمة فى العالم الإسلامى أكثر من المناطق المتوسطة أو القليلة الأهمية.

أولاً: الحدود الملتهبة (العراق نموذجًا)

نظرًا لأن العراق هى قلب مايسمى بالهلال الخصيب، وفقًا للمفاهيم التقليدية القديمة، وتقع فى القلب من المنطقة ذات الإمكانات النفطية الهائلة، وهى المنطقة الجامدة استراتيجيًا بالنسبة للمصالح الغربية الحديثة، فإنها تمتلك أكبر قدر من التناقضات التى يمكن استخدامها لضبط إيقاع العراق من قبل الغرب، ومنعه من الحركة إلا فى الاتجاه المرسوم له سلفًا، وإضافة إلى القنابل الطائفية والعرقية والدينية، هناك قنابل أخرى تنتظره فى حدوده مع جيرانه.

فى حدوده الشمالية مع تركيا، تدعى تركيا أن محافظة الموصل بكاملها محافظة تركية، وقد ظلت هذه القضية نقطة توتر بين البلدين، ومانعًا من موانع تطبيع العلاقات بالمفهوم الحقيقى وتكامل البلدين بالمعنى الكامل، طيلة عهود مابعد الاستقلال.

وفى حدوده الشرقية مع إيران، كانت توجد قنبلة أخرى، وهى منطقة صغيرة عند شط العرب ومدينة (عبدان) والتى انتزعها الشاه ذات غفلة من العراق، ورغم أن العراق كان قد وقّع اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥م التى تتنازل لإيران عن هذه المنطقة، إلا أن الرضا لم يكن متوفرًا، وكان الغرب يدخر هذا اللغم حتى يحين الوقت المناسب، وعندما قامت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م وأبدت عداء شديدًا للغرب، وقامت بحجز الدبلوماسيين الأمريكيين كرهائن، أرادت أمريكا والغرب الانتقام بطريقة غير مباشرة، فكان أن أوحت دوائرهم إلى الرئيس العراقى صدام حسين، بأن هذه هى الفرصة السانحة لاسترداد أراضيه، ووقف المد الفارسى الذى يراد تصديره إلى البلدان العربية تحت دعاوى تصدير الثورة الإسلامية، وبالفعل أعلن صدام الحرب على إيران فى ١٩٨٠م لتأكل معظم مقدرات وطاقات البلدين الكبيرين طيلة ثمان سنوات حيث توقفت فى ١٩٨٨م بعد أن قتلت مليونًا ونصف المليون إنسان، وشوهت مثل هذا العدد وربما أكثر، واستهلكت على أقل التقديرات ٨٠٠ مليار دولار.

وفى الجهة الجنوبية كانت إنجلترا قد اقتطعت جزءًا من العراق ومنحته شيئًا من الاستقلال كإمارة وهو الكويت، إضافة إلى وجود خلافات حديثة بين البلدين على منطقة صغيرة الحجم عند الحدود، وعندما شعر النظام العراقى أن الكويت فى ١٩٩٠م لم تعد تعطيه ما يشتهى، ذهب إلى الأمريكان يشكو من تصرفاتها، وكانت الولايات المتحدة تدفع به إلى منطقة هذه القنبلة حتى يدوسها لتنفجر به وبالعراق وبالكويت، وهذا ماحدث!

قابل صدام حسين السفيرة الأمريكية فى بغداد أواخر يوليو ١٩٩٠م، فأخبرته أن هذه الخلافات من الشؤون الداخلية للعرب، ولادخل للأمريكان بها، وظن صدام أن هذا الكلام يعتبر ضوءًا أخضر للتصرف مع الكويت كيفما يريد. فجاء صبيحة ١٢ أغسطس ١٩٩٠م ليعلن عن اجتياح العراق للكويت، وبالتالى انفجرت القنبلة المدخرة، لمثل هذا الوقت، ولم تدمر العراق والكويت فحسب، بل أوجدت زلزالاً هائلاً فى العالم الإسلامى برمته، مازال وسيظل المسلمون يعانون من تداعياته ويدفعون فواتيره حتى زمن غير قريب، مالم يتغير المسلمون ويفهمون هذه الألاعيب ويرتفعون فوقها!

إن الحدود العراقية هى فقط مجرد مثال للحدود العربية، وإن كانت المثال الأكثر سفوراً وبشاعة، وإلا فالمشاكل كثيرة والقنابل وفيرة، فالاستعمار بدهائه والعرب بغبائهم لم يقصر منهم أحد فى هذا المجال، فالعرب وفروا النفط، والغرب وفر أعواد الثقاب!

ثانيًا: الحدود العربية- العربية:

١- وجدت بين اليمن وجيرانه خلافات حدودية عديدة، فبينه وبين السعودية نزاعات حدودية طويلة امتدت إلى أكثر من ستين عامًا. وبينه وبين سلطنة عمان مثل ذلك، وكذلك بينه وبين إريتريا منازعات على السيادة والحدود فى البحر الأحمر وجزره، وكادت أن تصل إلى حد الحرب الشاملة، وقد حلت هذه الإشكاليات مع الجيران منذ منتصف التسعينيات حتى نهايتها، أى: عند نهاية القرن العشرين انتهت مشكلة الحدود اليمنية مع جيرانه، وبذلك أصبح البلد العربى الوحيد الذى تخلص من هذه القنبلة تقريبًا.

٢- توجد مشاكل حدودية لمصر مع جارتيها العربيتين ليبيا والسودان، ووصل الأمر إلى حد حشد مجاميع من الجيش المصرى مع هذين البلدين، وفى مطلع التسعينيات هجمت مصر على مثلث (حلايب) السودانى زاعمة أنه أرض مصرية، ولولا حكمة القيادة السودانية التى وفرت طاقتها لمواجهة أعداء الأمة الحقيقيين لربما اندلعت حرب مستعرة بين الدولتين.

٣- توجد مشاكل حدودية للمغرب مع الجزائر حول إقليم بين البلدين يقال: إنه غنى ببعض المعادن وكذلك حول الصحراء المغربية، وهناك مشاكل مماثلة بين المغرب وموريتانيا، وبسبب هذه المشاكل ظلت العلاقات الجزائرية المغربية متوترة فى معظم السنوات منذ الاستقلال.

ثالثًا: الحدود الإسلامية- الإسلامية:

توجد مشاكل كثيرة بسبب خلافات حدودية بين دول إسلامية وبعضها، سواء كانت عربية أو غير عربية، وهذه بعضها:

١- فى آسيا توجد خلافات حدودية بين إيران والإمارات العربية المتحدة، حيث يتنازع البلدان السيادة على ثلاث جزر فى الخليج العربى وهى: طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى.

ومثل هذا النزاع يوجد بين تركيا وبين سوريا حول لواء الإسكندرونة الذى تسيطر عليه تركيا وتعتبره سوريا أرضًا سورية لم تسلمه فرنسا لتركيا إلا قريبًا، ليس حبًا فى تركيا بالتأكيد، ولكن رغبة فى إبقاء مقدمات الحريق تحت رماد العلاقات البروتوكولية المظهرية التى لا وازع لها من صدق ولا ظل لها من الحقيقة، وتوجد مشاكل حدودية بين إندونيسيا وماليزيا حول منطقة فى شمال بورنيو تقع بين البلدين، ومثل ذلك توجد مشاكل حدودية بين إيران وباكستان، وبين إيران وأفغانستان، وبين إيران وأذربيجان وبين الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا وبعضها.

٢- وفى قارة أفريقيا هناك مشاكل بين البلدان الإسلامية فى أكثر المناطق الحدودية، فبين ليبيا وتشاد إقليم تسبب فى إثارة الحرب بين البلدين فترة طويلة، ومثل ذلك بين موريتانيا والسنغال، كما أسلفنا، وكذلك بين السودان وتشاد، وبين نيجيريا والنيجر، وبين دول غرب أفريقيا وبعضها عند خليج غينيا.

رابعًا: الحدود الإسلامية- الأجنبية:

عمل الاستعمار فى ذات غفلة من المسلمين على استزراع أحزمة النار فى كل أعضاء وأطراف الجسد الإسلامى، وعلى مستوى علاقة الدول الإسلامية بجيرانها نجد مثل هذه المشاكل قائمة على الحدود، إما بتحريض غربى للدول الأجنبية على احتلال أقاليم ومناطق إسلامية أو بتسليم تلك المناطق إلى تلك الدول، حتى تظل سببًا دائمًا للتوتر.

١- فى قارة آسيا تم العمل على فصل سنغافورة عن ماليزيا، ويتم العمل الآن لانتزاع المزيد من أقاليم وجزر إندونيسيا بعد تيمور الشرقية.

- لاتزال الصين تحتل تركستان الشرقية بكاملها، وتحتل روسيا كل جمهوريات القوفاز الإسلامية، إضافة إلى مناطق شاسعة فى القرم وسيبيريا وغيرها.
- لاتزال النلبين تحتل إقليم مورو الإسلامية فى الجنوب، وإقليم أراكان تحت الاحتلال البورمى، وإقليم قرة باخ الأذرى تحت الاحتلال الأرمنى، وإقليم أبخازيا المسلم تحت الاحتلال الجورجى، إضافة إلى فلسطين والجولان تحت

الاحتلال الإسرائيلى، وإقليم جامو وكشمير تحت الاحتلال الهندى، وفى كل هذه المناطق الأن حروب مشتعلة بين الغزاة وأهل هذه الأقاليم.

٢- فى قارة أفريقيا ماتزال كثير من مناطق المسلمين محتلة لتمثل سياجًا يحول بين هذه البلدان الإسلامية، وجيرانها وبين إقامة علاقة تعاون وتكامل.

ففى المغرب ماتزال مدينتا سبتة ومليلية، إضافة إلى عشرات الجزر فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى تحت الاحتلال الأسبانى. وفى القرن الأفريقى يعانى إقليم أوجادين الصومالى من احتلال أثيوبيا له، ويعانى الإقليم الصومالى الآخر فى الجنوب وهو (انفدى) من الاحتلال الكينى، وقريب من ذلك تعانى سلطنة زنجبار ذات الأصول العربية الإسلامية من احتلال تنجانيقا لها تحت أكذوبة تدعى (تنزانيا).

٣- فى قارة أوربا، مايزال الشعب الألبانى يعانى من التمزيق بين عدد من دول البلقان، إضافة إلى مشاكل حدودية بين البوسنة والهرسك وجيرانها الكروات. وتعانى تركيا من مشاكل حدودية مع اليونان وبلغاريا، إضافة إلى تنازعها السيادة على بعض الجزر مع اليونان فى بحر إيجه، ونزاع البلدين المشهور حول جزيرة قبرص.

***

المبحث الخامس

القنبلة الديمغرافية القسرية

هناك أعداد كبيرة من المهجَّرين فى العالم الإسلامى، إما نتيجة حروب ومشاكل إنسانية، وإما نتيجة كوارث طبيعية، وتتراوح تقديرات هؤلاء بالملايين، وعلى سبيل المثال فإن عدد المهجَّرين من أفغانستان وحدها ناهز الخمسة ملايين، والصوماليين حوالى ثلاثة ملايين، أما الفلسطينيين فالأرقام المسجلة والقديمة تصل إلى ٣,٥ مليون، بينما تزيد الآن عن ستة ملايين، غير النازحين فى داخل فلسطين.

وهناك نوع آخر من الهجرة، وهو الذى لاينتج عن حروب ولا عن كوارث طبيعية، بل هروبًا من الاضطهاد والفقر، وبحثًا عن هوامش الرزق والحرية، وفى هذا المقام تسجل الأرقام أن عدد الذين هاجروا أو فروا من العراق أيام حكم صدام حسين ما بين ٣,٥-٥ ملايين نسمة، وقد ظلت وسائل الإعلام فى هذا الجانب تتحدث عن بعض المآسى التى تعرض لها مهاجرون عراقيون فى لجج البحار أو فى بعض البلدان، وبالجملة فإن المسلمين يمثلون مابين ٥٠-٨٠٪ من جملة اللاجئين فى العالم حسب تقديرات منظمات دولية ومراقبين محايدين[١].

إن هذه القوافل التى تهاجر، لأى من هذه الأسباب، تمثل مشكلة من مشاكل العالم الإسلامى، فبقدر ماتدل على انعدام الفاعلية وروح التعاون الجماعى وقلة الإنتاج وانعدام السكينة والأمان السياسى والاجتماعى فإنها تمثل تحديًا جديدًا، يضاف إلى قائمة التحديات.

فالهجرة عندما تتم لهذه الأسباب بهذه المجاميع الضخمة، تشكل مشكلة كبيرة إما للبلد الطارد أو للبلد المستقبل، أو لكليهما، وربما تشكلت من كل ذلك مشكلة ديمغرافية تضاف إلى مشاكل بعض المجتمعات.

---

(١) انظر مثلا: مجلة الدعوة، رمضان ١٤١٨هـ، يناير ١٩٩٨م، ص (٢٤، ٢٥).

أولاً: أضرار عامة:

تعانى بعض البلدان من ندرة فى الأيدى العاملة أو فى الخبرات فى بعض التخصصات، ليس لأنها لاتجد من بين أبنائها من يتولون هذه الأعمال، ولكن لأن هؤلاء وجدوا فرصًا أفضل فى بلدان أخرى، أو لأن هامش الحريات الضئيل وربما المعدوم لايسمح لهم بالبقاء فيضطرون للهجرة، وهنا تقول الأرقام: إن مصر تعانى مع مطلع الألفية الثالثة من ندرة كبيرة فى المبرمجين، وأن السوق المصرية بحاجة إلى ما بين ٣٠ - ٤٠ ألف مبرمج، وهناك آلاف من المبرمجين تدفع بهم الجامعات المصرية سنوياً، لكنهم يتسربون إلى الخارج.

وكنا قد أشرنا إلى بعض الأرقام التى تخسرها الدول العربية والإسلامية سنوياً بسبب نزيف الأدمغة إلى بلاد الغرب، هذا فضلاً عن مئات الآلاف من المعارضين السياسيين الذين يجدون لهم مأوى فى الغرب، ثم يستخدمون كسلاح ضد أنظمة بلدانهم لتقديم المزيد من التنازلات، وإلا فإن البديل يكون جاهزاً، كما فعلت الولايات المتحدة عندما أزاحت نظام طالبان فى أفغانستان ونظام صدام حسين فى العراق، فقد جاءت بالقيادات البديلة من نيويورك وواشنطن ولندن وباريس، وهذا جزء من هذه المشكلة.

ويوجد فى الغرب، حسب تقديرات قريبة من الحقيقة، حوالى ثلاثين مليون من الوطن العربى يعملون هناك فإضافة إلى ما تخسره سنوياً معركة التنمية بسبب غياب هؤلاء وخاصة أن عددًا كبيرًا منهم هم من أصحاب التخصصات الدقيقة ومن النوابغ والموهوبين، فإن هؤلاء يتعرضون لخطرين عظيمين أحلاهما مر: إما أن يذوبوا فى المجتمعات الغربية، ويتشربوا ثقافاتها ويصبحوا غرباء بين المسلمين، مبشرين بالتغريب، لو عادوا إلى بلدانهم، وإما أن يظلوا متمسكين بثقافاتهم وخصوصياتهم وبالتالى فإنهم سيتعرضون لأشكال كثيرة من الأذى النفسى والمادى فى المجتمعات التى يعيشون فيها.

وهناك دراسات كثيرة، بعضها ميدانية أثبتت أن الجاليات العربية فى الغرب تتعرض للكثير من أصناف الأذى، وخاصة بعد تفجير مركز التجارة الدولى

بنيويورك، فقد صار المسلم متهمًا حتى تثبت براءته، وعند الجماعات المتطرفة والأحزاب اليمينية، فإن المسلم مهما يكن الوضع لايمكن إلا أن يكون مذنبًا، وبهذا الصدد ذكرت منظمة مراقبة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) وهى منظمة حقوقية عالمية، ذكرت فى تقرير لها أن جرائم الكراهية المرتكبة ضد المسلمين تصاعدت فى الولايات المتحدة بنسبة ١٧٪ خلال عام ٢٠٠١م واستند هذا التقرير إلى نتائج أبحاث وتحريات أجريت مع الشرطة ووكلاء النيابة وناشطى المجتمع المحلى وضحايا جرائم الكراهية فى ست مدن كبرى، وشملت هذا الجرائم: القتل العمد، والاعتداء والإحراق والتخريب المتعمد للمبانى والممتلكات.

وعودة إلى مسألة الثلاثين مليون عربى الذين يوجدون فى الغرب، وإضافة إلى ما بقى، لنفترض أن مشكلة ما نشبت بين الغرب والعالم العربى، وقام الغرب بطرد هذا العدد الضخم من أراضيه ماذا سيحدث للدول العربية والمجتمعات العربية؟ لاشك أنه سيكون إعصارًا كبيرًا، سيتلف الكثير من الأوضاع والقيم التى تعتبرها الأنظمة العربية من الثوابت، وخاصة فى ظل هذه الأوضاع العربية المهترئة، حيث تعيش المجتمعات حالة من الانسداد السياسى ومن العوز الاقتصادى ومن التحلل الاجتماعى ومن الضحالة الثقافية.

ثانيًا: تحول موجات المهاجرين إلى براميل بارود:

يمكن أن تتحول موجات المهاجرين من بلد إلى آخر، من مزية إلى رزية، إذا كانت هذه القنبلة ستقلب الميزان الديمغرافى لصالح الوافد على حساب الأصيل، فى مجتمعات تعانى من التخلف والعصبيات ومحاطة بالمؤامرات من كل جانب، وسنضرب هنا مثالين، أحدهما قائم بالفعل والآخر مستقبلى محتمل.

١- المهاجرون فى باكستان:

عندما كان المسلمون والهندوس يواجهون الاستعمار الإنجليزى فى الهند، واتفقوا على قيام دولتين، أتفق أيضًا على أن من أراد من المسلمين الهجرة إلى باكستان فليهاجر، ومن أراد من الهندوس الهجرة من باكستان إلى الهند فليفعل، وعندما قامت الدولتان عام ١٩٤٧م حدثت موجات هجرة متضادة، ووصلت

أعداد كبيرة من مسلمى الهند إلى أقليم السند، وخاصة إلى مدينة كراتشى التى كانت عاصمة باكستان، واستقبلهم السنود كما فعل الأنصار مع المهاجرين حتى أنهم أطلقوا عليهم (المهاجرون).

ولما كان هؤلاء المهاجرون فى الغالب من علية مسلمى الهند علمًا وثقافة ومالاً، وكانت أعدادهم كبيرة فقد انتشروا فى إقليم السند، وجاءت الانتخابات ليسيطروا على نصيب وافر من مقاعد البرلمان الإقليمى والبرلمان المركزى، حتى أنهم شكلوا الحكومة الإقليمية، وفى المقابل كان السنود يعانون من ارتفاع نسبة الأمية وانتشار الفقر والتخلف فى أوساطهم، وأدى هذا وذاك إلى نشوء هوة بين المهاجرين والسنود، فبدأت بعض الاتجاهات الحزبية تلفت أنظار السنود إلى هذه القضية وتحرضهم ضد المهاجرين الذين اتهموا بمصادرة مقدرات ومقومات إقليم السند، وحرمان أبنائه منها، وفى عهد الرئيس ضياء الحق بدأت هذه المشكلة تظهر إلى الوجود فى أوساط بعض الأحزاب اليسارية والقومية فى السند، فأراد النظام الحاكم آنذاك أن يشكل نوعًا من التوازن فشكل تجمعًا للمهاجرين بزعامة ألطاف حسين، وبعد فترة قصيرة من الزمن تحول تجمع المهاجرين إلى مشكلة جديدة لباكستان، إذ أن قادة التجمع جنحوا نحو العنف فى تصفية خلافاتهم السياسية والاجتماعية مع السنود.

وعندما جاء نواز شريف كانت المشكلة قد تفاقمت، حيث أن ٦٠٪ من سكان مدينة كراتشى من المهاجرين، وكراتشى هى العاصمة الاقتصادية لباكستان، إذ أن ٦٠٪ من الحركة الاقتصادية والتجارية فى البلد موجودة فى هذه المدينة، إضافة إلى أنها الميناء الرئيسى، حيث تمر ٩٠٪ من صادرات باكستان عبر موانئها، ولهذا فقد كبد المهاجرون باكستان أفدح الأضرار نتيجة كثرة الإضرابات، وخاصة أن تجمع المهاجرين عندما يدعو لإضرابٍ ما، فلا يجرؤ أحد على مخالفته حتى السنود أنفسهم، مما كبد باكستان خسائر بمليارات الدولارات، لأن أيام الإضرابات كثيرة.

وبجانب الخسائر الاقتصادية الفادحة، ظهرت مشكلة انعدام الاستقرار السياسى، حيث سقطت عدد من الحكومات بسبب مشكلة المهاجرين مع السنود، وبالتالى أصبح المهاجرون «القشة التى قصمت ظهر البعير» ووصل الأمر إلى حد

تعامل بعض الجهات من المهاجرين مع الهند، العدو اللدود لباكستان، حيث حدث فى بعض المواجهات بين الشرطة وهؤلاء فى كراتشى، أن أطلقت صواريخ من بين الأحياء على طائرات الهيلوكوبتر التابعة للأمن كما يحدث فى بعض أفلام المطاردات لسينما هوليود! وفى الجهة الأخرى، ظهرت اتجاهات وأحزاب سندية تدعو لانفصال إقليم السند عن باكستان وطرد المهاجرين، تلويحًا أو تصريحًا.

وهكذا رأينا كيف تسبب التغيير الديمغرافى فى الخارطة السكانية للسند عمومًا وكراتشى خصوصًا فى مشاكل كثيرة أقضّت مضاجع باكستان، بسبب انعدام التخطيط الموضوعى والواقعية العملية والفهم الدقيق والتمثل الصادق لقيم الإسلام، لأن هذا كله وفرّ بيئة خصبة لمن يتربص بباكستان الدوائر لكى يستفيد من هذه المشكلة، ويحولها إلى قنبلة موقوتة يمكن الضغط عليها فى أى وقت مالم ينزع منها الصاعق!.

٢- اللاجئون فى مدينة الخرطوم:

تتكون مدينة الخرطوم من ثلاثة أضلاع ضخمة هى: الخرطوم والخرطوم بحرى وأم درمان، ويسكنها حوالى ستة ملايين إنسان، نصفهم تقريبًا جاءوا إليها إما نازحين أو لاجئين. فبسبب الحرب فى الجنوب نزح إلى الخرطوم حوالى مليونيين من سكان الجنوب، وهم ليسوا عربا وأكثرهم غير مسلمين، ويوجد فى الخرطوم أيضًا ما يصل إلى مليون لاجئ من جنسيات إريترية وأثيوبية وتشادية وأوغندية بل ونيجيرية!. والنصيب الأوفر من هؤلاء ينتمى إلى إريتريا.

إن هذه الخارطة الديمغرافية خطيرة على وضع الخرطوم وعلى هويتها العروبية والإسلامية، والمشاهد لايخطئ النظر إذا لاحظ أن عدد الكنائس فى الخرطوم يقترب من عدد المساجد، ولولا الطبيعة المتسامحة للسودانيين بكافة أطيافهم الدينية وأعراقهم الجنسية، لكانت هذه المشكلة قد تفجرت، ولكن هذا لايمنع من القول: إن الخرطوم يمكن أن تكون مستودع بارود، ولو تدخلت قوى معينة لإشعال النار فى شىء منه لحدث الانفجار، أى: أن إمكانات التفجير قائمة وموجودة.

وإضافة إلى هذا وذاك، نحن نعرف كيف استغل الوجود الفلسطينى فى الأردن لتفجير الوضع فيها نهاية السبعينيات لدرجة نشوب حرب ضخمة فى أيلول الأسود

١٩٧٠م بين الجيش الأردنى والمنظمات الفلسطينية، سقط فيها آلاف الضحايا، ولم ينج منها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات إلا بهروبه متنكرًا بزى امرأة، ومايزال هذا الأمر مصدر قلق فى الأردن إلى الآن حيث إن الفلسطينيين ربما يتفوقون على الأردنيين فى العدد.

وفى لبنان كان تواجد ثانى أكبر تجمع للفلسطينيين بعد الأردن، مبررًا لجهات نصرانية لإشعال الحرب الأهلية والفتنة الطائفية والتى استمرت من ١٩٧٥م إلى بداية التسعينيات، متسببة فى مقتل عشرات الآلاف، وتشريد وهجرة مئات الآلاف إضافة إلى تدمير البلد بكامله وتركه قاعًا يبابًا تعبث إسرائيل بأمنه وتنتهك أجواءه ومياهه الإقليمية، بل وتتحرك على أرضه كما يحلو لها.

إذن، هذه القنابل الموقوتة هى فى الغالب عرض من أعراض التخلف والضعف، وسبب من أسباب التمزق ونتائجه، ولذلك فإن أعداء الأمة الحضاريين ينامون قريرى الأعين، فتحت عنوان (تفرق الأمة الإسلامية) كتب سيفربلوتسكر فى صحيفة (يديعوت أحرونوت) «الإسرائيلية» يقول: إلى هؤلاء اليهود الخائفين من تظاهرات العالم العربى والإسلامى التى تعبر عن غضبهم وكراهيتهم لليهود ولإسرائيل، أقول لهم: لا تخافوا ولا تتشاءموا، فإن العالم الإسلامى متفرق، وكل دولة مشغولة فى همومها وأوضاعها الاقتصادية السيئة «ثم يبشر قومه بأن حرب الغفران عام ١٩٧٣م لن تتكرر مرة أخرى. و«السبب- كما قال- ببساطة أن المسلمين لايمكنهم التوحد والاتفاق على شىء إلا الخلافات فيما بينهم»[1].

والآن ما هوموقف المسلمين من العولمة؟ وأين موقعهم من النظام العالمى الجديد؟

هذا هو موضوع الفصل التالى:

*** مراجع للاستزادة:**

من أراد المزيد حول موضوعات هذا الفصل يمكنه الرجوع إلى المراجع التالية:

(١) مجلة البيان: العدد (١٨٧)، ص (١٠٧).

١- محمد ضيف الله المطيرى: مشكلتا الموصل والاسكندرونة والعلاقات العربية-التركية.

٢- د. عبد اللطيف البونى: البعد الدينى لقضية جنوب السودان.

٣- فرانسيس دينق: صراع الرؤى: نزاع الهويات فى السودان.

٤- د. محمد بشير: مشكلة جنوب السودان: خلفية النزاع.

٥- د. مدثر عبد الرحيم: مشكلة جنوب السودان، طبيعتها وتطورها.

٦- عبد الوهاب محمد بكرى: دور الحرب والسلام فى جنوب السودان.

٧- د.عبد السلام إبراهيم بغدادى: الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات فى أفريقيا.

٨- د.فايز صالح أبو جابر: الاستعمار فى جنوب شرقى آسيا.

٩- جون سوندرز: العالم الإسلامى عشية توسع أوربا، ترجمة: محمد ظافر الصواف.

١٠- د.أبو الحارث محمد: مؤامرة الصهيونية والهندوكية.

١١- د.لواء فوزى محمد طايل: آثار حرب الخليج على منظومة القيم الإسلامية العليا.

١٢- جون ر.ويكس: ديمغرافية الدول الإسلامية، ترجمة: فوزى سهاونة.

١٣- د.إحسان حقى: المسلمون أمام التحدى العالمى.

١٤- محمود شاكر: العالم الإسلامى اليوم.

١٥- عباس العقاد: الإسلام فى القرن العشرين: حاضره ومستقبله.

***

الفصل الخامس

العالم الإسلامى ورياح العولمة

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأول: المقدمات والميلاد

أولاً: مقدمات النظام العالمى الجديد

ثانيًا: تدشين النظام العالمى الجديد

المبحث الثانى: العولمة: المعانى والمجالات.

أولاً: معانى العولمة

ثانيًا: مجالات العولمة.

المبحث الثالث: آليات أمركة العالم بدعوى العولمة.

أولاً: العولمة محاولة لأمركة العالم.

ثانيًا: آليات أمركة العالم

المبحث الرابع: المسلمون والعولمة:

أولاً: المسلمون فى مهب العاصفة.

ثانيًا: أخطار العولمة على العالم الإسلامى.

ثالثًا: الإسلام أقوى من العولمة.

رابعًا: كيف يستفيد المسلمون من العولمة.

المبحث الأول

المقدمات والميلاد

فى العصور الوسيطة والقديمة كانت الأمم تعيش معزولة عن بعضها إلى حد كبير، وكان التأثر والتأثير قليلاً بينها، أما فى العصر الحديث، فقد حدث تداخل بين الأمم نتيجة سهولة وسائل المواصلات، ولذلك وجد نظام عالمى واحد، وإن كان هذا النظام يحمل بصمات الأقوياء وحدهم، فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تم تشكيل أول هيئة دولية من نوعها، يتم الركون عليها فى تنظيم علاقات الأمم ببعضها، وهى عصبة الأمم التى تأسست سنة ١٩١٩م.

وفى عام ١٩٣٩م اندلعت الحرب العالمية الثانية، فقضت على أشياء كثيرة، من ضمنها حياة أكثر من ستين مليون إنسان، وقضت على النظام الدولى الذى كانت تقوم عليه عصبة الأمم، والذى بموجبه كان هناك قطبان رئيسيان فى العالم، هما بريطانيا وفرنسا.

ومن رحم الحرب العالمية الثانية، خرج نظام دولى جديد، تقوم عليه دولتان عظيمتان هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتى، وتنظمه هيئة الأمم المتحدة التى تأسست سنة ١٩٤٥م، لتصبح الأقطاب الأربعة الحليفة ضد ألمانيا هى صاحبة الكلمة التى لا ترد فى مجلس الأمن الدولى، والتى أعطاها ميثاق الأمم حق النقض (الفيتو) وهى: الولايات المتحدة، الاتحاد السوفياتى، بريطانيا، فرنسا، ثم أضيف إلى الدول الأربع الصين، نتيجة لثقلها السكانى ولدورها فى الحرب على اليابان، وحتى لايقال بأن هذه المنظمة تمثل فقط العالم المسيحى.

أولاً: مقدمات النظام العالمى الجديد:

إن المتفحص فى قصة تشكل النظام الدولى الجديد ، سيجد أن حجرة الأساس قد وضعتها وسائل الإعلام، فإن التطور الخطير الذى أحدثته فى حياة البشر، هو الذى أوجد الإمكانية لتحقق مثل هذا النظام.

والبداية فى وسائل الإعلام هى الإذاعة، فعندما اكتشفت الإمكانات اللامحدودة للموجات القصيرة التى أتاحت انتقال البرامج الإذاعية عبر القارات، قال مارشال ماكلوهان مقولته الشهيرة: «لقد أصبحت الكرة الأرضية أشبه بالقرية الكونية»[١].

هذا دور الإذاعة فقط فى إيجاد القرية الكونية ، فكيف إذا عرجنا إلى كل وسائل الارتباط واختصار المسافات ابتداء من وسائل الاتصال: الهاتف بكل أنواعه والتلكس (الفاكس) والإنترنت، ومروراً بوسائل المواصلات الجوية والبحرية والبرية والتى اختصرت المسافات وقربت العالم من بعضه، وانتهاء بوسائل الإعلام والتثقيف، من وسائل مرئية ومقروءة، إلى مراكز البحوث والمعلومات ودور النشر والكتب والمعاهد العليا والجامعات، كل ذلك ساهم فى تقريب العالم من بعضه وتحويل هذه الدنيا الواسعة إلى قرية صغيرة.

إذن، يمكن القول: إن هذه الوسائل تسببت فى اختفاء الفوارق الزمنية، حيث اختزلت ثورة المعلومات الكرة الأرضية فى قرية كونية واحدة، هذا الأمر استخدمته الولايات المتحدة الأمريكية كمدخل وكمبرر لإلغاء الفوارق المكانية (الجغرافيا) عن طريق العمل الحثيث بكافة الوسائل والأساليب لإلغاء الحدود السياسية والثقافية والاقتصادية، وفتح الأبواب على مصاريعها تحت دعوى (العولمة)!.

ومن هنا بدأ الإلحاح الأمريكى على ضرورة إيجاد نظام دولى جديد يقوم على إلغاء الحدود والفوارق وتجاوز الخصوصيات، وترك الأمور للتنافس، وقد بدأ السعى المحموم لإنشاء مثل هذا النظام، ومازال الاتحاد السوفياتى قائمًا، فعند لقاء الرئيس الأمريكى جورج بوش الأب بالرئيس السوفياتى ميخائيل جورباتشوف فى (هلسنكى) قال بوش: (إننا نضع حجر الزاوية لنظام عالمى أكثر سلمًا).

ثانيًا: تدشين النظام الدولى الجديد:

كما رأينا فى تخلق الأنظمة الدولية السابقة أنها كانت تأتى بعد أحداث عالمية كبرى، فقد حدثت الحرب العالمية الأولى، نظام عالمى تحت الإشراف الظاهر لعصبة الأمم، وبعد الحرب العالمية الثانية، قام نظام دولى جديد على أنقاض النظام

(١) مجلة العربى: العدد (٥١٧) ، ص(٨).

القديم، فالمرجعية لم تعد عصبة الأمم، لكنها هيئة الأمم المتحدة، والقطبية لم تعد متركزة بين بريطانيا وفرنسا، ولكن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى، والمواجهات بين الدول الكبرى لم تعد تنحو المنحى العسكرى العنيف، وإنما مواجهات باردة، يتم تصفية الحسابات بين الكبار فى أرض غير أرضهم، وبغير جنودهم، فقط بأسلحتهم، ولكنها الأسلحة التى اقتطعت شعوب العالم الثالث من لقمة عيشها من أجل شرائها!.

وبعد كر الليالى وفر الأيام، تغيرت الكثير من الأمور التى ألحت على الأمريكيين بضرورة وجود نظام دولى جديد، يقوم على الواحدية القطبية، ويؤثرهم وحدهم بالسيطرة والاستعمار، لكن هذا الانتقال الهائل من نظام إلى آخر، بحاجة إلى حدث هائل كبير، فماذا صنع الأمريكان؟!

ظلت الولايات المتحدة تعد العدة لصناعة هذا الحديث الضخم، واختارت المنطقة العربية كمكان له، لأن القابلية للتدخل والتبعية متوافرة فيه أكثر من أى مكان فى العالم، ولأنه المستهدف بالدرجة الأولى من النظام الجديد، نظرًا لإمكاناته الهائلة، وخاصة فى مجال الطاقة، ولوجود (إسرائيل) فيه، ثم لأن طبيعة النظام الجديد، سينتقل الصراع الحضارى فيه إلى صراع بين الغرب الليبرالى- المسيحى- والثقافة الإسلامية التى يبدو أنها تشهد محاولات للإقلاع الحضارى، عبر صحوة المسلمين والتحامهم بدينهم.

وبعد دراسة مستفيضة لواقع العالم العربى من قبل صناع القرار الخلفيين فى الولايات المتحدة الأمريكية تم التحديد الدقيق لأرض المعركة، بأنها فى رأس الخليج العربى، وبدأ العد التنازلى لهذه الحرب، باستدراج النظام العراقى إلى المربع الذى سيفجر الحرب، حيث وهبت أمريكا للنظام العراقى عود الثقاب لإشعال النار فى المنطقة، عبر الضغط على الكويت للتشدد إزاء العراق فى نقاط الاختلاف بين البلدين، وفى نفس الوقت نجحت السفيرة الأمريكية، فى بغداد فى وضع طعم لصدام حسين، حيث أخبرته أن سياسة بلادها تقوم على عدم التدخل فى الخلافات العربية- العربية، وأن على العراق حل مشاكله مع الكويت بعيدًا عن أمريكا، وهكذا وقع صدام فى الفخ، فأرسل جنوده إلى الكويت، لتبدأ أمريكا على الفور

إجراءات الحرب الضخمة التى ستحقق نقل العالم إلى نظام دولى جديد، حيث أرسلت قواتها وأساطيلها إلى الشرق الأوسط عامة والخليج العربى خاصة، وحشدت العالم كله لمشاركتها فى هذا الأمر، حتى تبدو الحرب بالفعل، كأنها حرب عالمية!

وكانت قد ظهرت ألعاب وخطط الحرب فى الخليج، منذ وقت مبكر فى الولايات المتحدة، لكن أحدًا لم يأخذها مأخذ الجد، إضافة إلى أن أغلب العرب لايقرؤون فى الأصل، لقد تنبأت هذا الألعاب بغزو عراقى محتمل للكويت، حيث وضعت مسودتها فى (البنتاغون) كما أن مقالات قد نشرت فى المجلات الأمريكية تتحدث عن احتمالية من هذا القبيل، فقد نشرت مجلة (فورتشن) فى عددها الصادر يوم ٧ / ٥/ ١٩٧٩م سيناريو لعبة حرب تضمنت تفصيلاً لكيفية رد الفعل الأمريكى العسكرى والخطط التى ستطبقها الولايات المتحدة فى حالة غزو عراقى للكويت قائم على نزاع الحدود أو حول أمور أخرى[1]، وظهر فى سينما هوليود أكثر من فيلم حول هذه القضية بعضها يقترب بشدة من السيناريو الذى حدث فى الواقع بصورة مذهلة!

وفى صبيحة ٢ أغسطس ١٩٩٠م تحقق المخطط الأمريكى، حينما قام جيش صدام حسين باكتساح الكويت، وفى اليوم ذاته جمدت كل أموال العراق والكويت فى كل بنوك العالم، وبدأ التداعى العالمى نحو (القصعة العربية) واشتركت ثلاثون دولة بصورة مباشرة فى الحرب ضد العراق، فإن الأمريكان الذين ظلوا سنوات طويلة يرسمون الخطط ويتخيلون (السيناريوهات)، ويدفعون بالأوضاع من وراء الكواليس إلى هذا الوضع رفضوا التراجع، واستمر التسارع والتداعى، لتندلع أول حرب إلكترونية فى التاريخ البشرى.

وفى هذه الحرب تجسدت العولمة لأول مرة بصورة مذهلة، فقد قامت شبكة (C.N.N) التليفزيونية الأمريكية بنقل الحرب مباشرة على الهواء، ولأول مرة فى تاريخ البشر تحدث حرب فى مكان ما، فيشاهدها ملايين من البشر، فى أماكن مختلفة من العالم.

---

(١) انظر تفاصيل اللعبة ثم الإجراءات التى وقعت على الأرض لدفع صدام لغزو الكويت، ومن ثم الإطباق على قواته وتدمير العراق كما تنبأت اللعبة: عبد الحى يحيى زلوم: نذر العولمة: ص (١٩٨-٢٠١).

وفى هذه الحرب اتضح سقوط المعسكر الاشتراكى الذى كان يمثل الطرف النقيض للمعسكر الليبرالى، وتأكد الجميع أن روسيا لم تعد القطب الدولى الثانى الذى بإمكانه تحقيق التوازن الدولى المطلوب، وإنما أصبح دولة من الدرجة الثانية، تمتلك استعدادات تابعية للولايات المتحدة، ولذلك فإن هذه الحرب التى وصفها كثيرون بأنها الحرب العالمية الثالثة، فقد حققت الانعطافة التى أرادها الأمريكيون، فانتهت بتدمير العراق وتدمير النظام الدولى القائم آنذاك.

وفى يوم ١٦ يناير ١٩٩١م بدأ جورج بوش يتحدث بصورة واضحة عن النظام العالمى الجديد، الذى أصبح بعد ذلك حديث ملايين المفكرين والكتاب والمثقفين فى كل أنحاء العالم، حيث كتبت حوله مئات الكتب وآلاف المقالات، دون أن يدرك أحد ماهية هذا النظام بصورة واضحة وحاسمة، غير أن الواضح تمامًا أن السيطرة ستكون فيه للولايات المتحدة، وأن الاتحاد السوفياتى قد خرج من الحلبة، ليصبح تابعًا للعملاق الأمريكى الذى بدأ يضع الإسلام كعدو جديد بدلاً عن الشيوعية، لاعتبارات استراتجية ليس مجالها الآن.

وأصبح لسان حال الغرب ما قاله المعلق الصحفى الكبير «دافيد هول»: «إن تهديد المسلمين العدوانيين لأوربا ليس شيئًا جديدًا، فكل التاريخ الأوربى يلفه رداء كثيف من النضال المستمر ضد العرب والمغاربة والبربر والعثمانيين الذين حملوا لواء الإسلام، والذين صمموا جميعًا بدرجات متفاوتة على تدمير المشركين الأوربيين. وتوصيل رسالة الإسلام إلى قلب العالم المسيحى». ويعتبر الكاتب أن الحرب الباردة بين العالم الرأسمالى والعالم الشيوعى فى أوربا، كانت مجرد انحراف وقتى فى مسيرة التاريخ الغربى ويقول: (هل عاد التاريخ إلى مساره الصحيح الذى كان قد انحرف عنه لحظات قصارًا؟ ومن ثم يعود الصراع القديم المتأصل بين الإسلام والغرب.. لكن كل ماهنالك هو تغيير فى محوره»[1]. هذا الكلام يشى عن الحقيقة مع أنه كتب قبل غزو العراق للكويت ببضعة أشهر، ولكن كانت عدد من أوربا الشرقية قد عادت إلى أحضان الكنيسة، وقد سقطت كثير من الحواجز بين أوربا الشيوعية وأوربا الرأسمالية، بما فيها سور برلين!.

(١) مجلة الاعتصام- مصر، أبريل ١٩٩٠م، ص(٣١).

المبحث الثانى

العولمة: المعانى والمجالات

بعد الانتصار الكاسح للولايات المتحدة الأمريكية على العراق فى ١٩٩١، وبأقل خسائر ممكنة وخاصة بعد اتضاح تقزم روسيا، وانجرار العالم كله وراء المخططات الأمريكية، بما فيه العالم العربى الذى مزقت عذرية بحاره وأجوائه، وانساق حكام أنظمته فى المشاركة بتدمير ذواتهم وتمزيق أوصالهم بأيديهم وأيدى الأمريكيين، فى تلك الأثناء شعر الأمريكيون بالزهو والغرور، سياسيين ومثقفين، حتى خرج أحدهم، وهو فرانسيس فوكوياما ليعلن عن الانتصار النهائى للحضارة الغربية على كل الحضارات، وبالتالى يكون التاريخ قد انتهى، وهذا بيِّن حتى من عنوان الكتاب(نهاية التاريخ وخاتمة البشر). بينما خالفه آخرون فى أن هناك حضارات ماتزال تمتلك أسسًا يمكن أن تقوم عليها من جديد، أو جيوبًا مقاومة أو خلايا حية، ولذا يرون ضرورة استمرار الصراع الحضارى حتى يصبح العالم كله بالفعل على شاكلة الإنسان الغربى الليبرالى، ومن هؤلاء المفكر الشهير صموئيل هنتجتون فى كتابه (صدام الحضارات) الذى أثار ضجة كبرى فى العالم.

إذن، فإن هنتجتون وأمثاله من المفكرين، وبجانبهم عدد هائل من السياسيين والإعلاميين والمستثمرين ورجال الأعمال فى الغرب، وخاصة من أصحاب الشركات العابرة للقارات، يرون ضرورة استخدام قوة من نوع ما، واستخدام الإكراه من درجة ما- مع التفاوت فى النسبة- من أجل صالح البشر، حيث لابد أن تتخلى الشعوب والأمم عن خصوصياتها، وأن تعتنق الثقافة الغربية الليبرالية التى أثبتت كفاءتها وقوتها فى نظر هؤلاء، ومن هنا ظهر مصطلح (العولمة) كمرحلة تالية بعد مصطلح (النظام الدولى الجديد)، فما هى العولمة؟ وماهى مقوماتها؟

أولاً: معانى العولمة:

العولمة: هى ترجمة دقيقة لمصطلحين يحملان هذا المعنى باللغتين الإنجليزية والفرنسية. وبهذا فإن العولمة من الناحية اللغوية تعنى: الحمل أو الإجبار أو الإكراه

على العالمية، فهى على وزن الأسلمة، أى: الحمل على الإسلام أو الكثلكة، أى: حمل الناس على الكاثوليكية، أو القولبة، أى: الإجبار على التقولب بقوالب جاهزة.

أما المعنى الاصطلاحى، فإن أصحاب الفكرة لم يضعوا لها تعريفًا محددًا، ولكن المثقفين والمفكرين خاضوا غمار هذا الأمر، استهداء ببعض الأفكار والتصريحات والأدبيات غير الرسمية أو غير المباشرة، واعتمادًا على مايجرى فى الميدان، وهذا كله لابد أن يكون مثار اختلاف ونقاش وجدال، وهو ما وقع بالفعل، فلم يختلف المثقفون فى هذا العصر على أمر بقدر ما اختلفوا على تحديد مفهوم العولمة، ويمكن أن نسرد بعض التعريفات التى وردت فى كتب عدة:

- الغطاء النظرى أو الفلسفة النظرية لاقتصاد السوق، ولمجموعة الدول الصناعية، والشركات متعددة الجنسيات، من أجل فتح أسواق العالم أمام الصناعات الغربية، بدعوى المنافسة، والانفتاح، وتشجيع الدول الأقل نمواً على التنمية، ويرى آخر أن العولمة عبارة عن اتجاه تأريخى نحو انكماش العالم، وزيادة وعى الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش، ويرى ثالث أنها الرأسمالية فيما بعد مرحلة الإمبريالية. ويذهب رابع إلى أنها حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء، فى ظل هيمنة دول المركز، وسيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ[١].

- وتعنى العولمة فى نظر البعض: إزالة الحواجز والمسافات بين الشعوب بعضها وبعض، وبين الأوطان بعضها وبعض، وبين الثقافات بعضها وبعض، وبذلك يقترب الجميع من (ثقافة كونية) (وسوق كونية) و(أسرة كونية)، ويعرفها بعضهم بأنها تحويل العالم إلى (قرية كونية). ولذا نرى بعض الباحثين يستخدم هنا (الكونية) اشتقاقًا من كلمة (الكون) بمعنى العالم أيضًا. كما أن بعضهم استعمل كلمة (الكوكبة) إشارة إلى كوكب الأرض التى نعيش عليها. ولكن الكلمة التى ذاعت وانتشرت هى (العولمة)[٢].

ويستعرض د. القرضاوى تعريفات (العولمة) فى دراسته ويصل إلى نتيجة مفادها (أن العولمة فى حقيقتها وأهدافها وطرائقها اليوم إنما هى (الاستعمار) بلون جديد، وباسم جديد. أو هى بعبارة صريحة «أمركة العالم»)[٣].

---

(١) د. بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة- رؤية نقدية (من تقديم: عمر عبيد حسنة): ص(٢٢، ٢٣).

(٢) د. القرضاوى: المسلمون والعولمة ص (٩).

(٣) المصدر نفسه ص (٥ - ١٧).

وعندما أجلت النظر فى تعريفات علماء الغرب، وخاصة الأحرار منهم والمنصفين للعولمة، وجدت أنها تدور جميعًا حول استغلال الشمال الغنى للجنوب الفقير واستعباد الأقوياء للضعفاء، وباختصار حول (الاستعمار) و(الأمركة)، وهذه نماذج من هذه التعريفات.

- اعتبر كرولين طوماس وبيتر ولكين العولمة فى كتابهما (العولمة والجنوب) آلية لتكريس الفوارق بين الشمال المتخم بالغنى والجنوب الذى يعانى من الفقر المدقع).

- اعتبر رجاء جارودى العولمة الاسم الجديد للاستعمار!

- يصف بنجاين بابر فى كتابه (الجهاد ضد السوق الكونية) العولمة بأنها «ذلك المستقبل مجسدًا فى تلك الصورة المفعمة بالحركة لقوى اقتصادية وتكنولوجية وإيكولوجية مندفعة، تطلب التكامل والتناغم، وتغرق وعى البشر فى كل مكان فى طوفان الموسيقى السريعة، والكمبيوترات السريعة، والوجبات السريعة، دافعة الأمم باطراد نحو حديقة ملاه عالمية واحدة متجانسة التكوين».

- ويتفق عدد من المفكرين على أن العولمة آلية يمكن أن تؤدى بشكل متسارع إلى نشوء نظام عالمى جديد بواسطة ثلاثية التكنولوجيا ورأس المال والإدارة، وتشمل السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع والأعراف، ليؤسس القرية الكونية الجديدة التى تقوم على ثورة الكمبيوتر والاتصالات والثورة المعلوماتية والأسواق المفتوحة والشركات متعددة الجنسيات لتوحيد مصير الإنسانية[١].

- عرفها بعضهم بأنها نظام عالمى جديد يقوم على العقل الإلكترونى والثورة المعلوماتية القائمة على أساس المعلومات والإبداع التقنى غير المحدود، دون اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية القائمة فى العالم، وعرفها آخرون بأنها (القوى التى لايمكن السيطرة عليها للأسواق الدولية والشركات المتعددة الجنسية التى ليس لها ولاء لأية دولة أو قومية»[٢].

(١) د. إبراهيم الناصر: البيان: العدد (١٦٧)، ص (١١٧).

(٢) أحمد عبد الدايم: البيان: العدد (١٥٩)، ص (١٢٥).

ثانيًا: مجالات العولمة:

من التعريفات السابقة يتضح أن العولمة منظومة حضارية متكاملة، ذات رؤى خاصة فى كل مجالات الحياة، من ثقافة، ودين، واقتصاد، وسياسة، وتربية، ومعارف، وسنمر على أهم هذه المجالات مرور الكرام:

١- العولمة الثقافية:

وتعنى أن الثقافة الغربية المعاصرة- والناتجة عن اختلاط الجذور الثقافية الإغريقية والرومانية بالمفاهيم المسيحية، بالتجارب والنظريات والتيارات الثقافية الحديثة- لابد أن تسود فى العالم كله، وهنا لابد أن تسود المفاهيم الثقافية الغربية وتختفى أمامها المفاهيم الأخرى فى ثقافات العالم أجمع، وخاصة فى قضايا هامة مثل:

- العلاقة بين العقل والدين: إذ لابد أن تخضع الحياة كلها للعقل وللنهج التجريبى، حتى الأديان نفسها لابد من غربلة مفاهيمها بمقياس العقل، وهذا يعنى أن كل العقائد ذات الارتباط بالغيب، وكل الشعائر التعبدية التى لايستطيع العقل تعليلها، يجب رفضها وردها، أو تكييفها مع العقل.

- الموقف من حقوق الإنسان، وحقوق الإنسان هنا هى ما يعتبرها الغرب حقوقًا، فالعولمة ليست للحقوق المتفق عليها ذاتها، ولو حدث هذا لكان خيرًا عظيمًا، لكن العولمة هى للفهم الغربى لهذه الحقوق، هذا فى الجانب النظرى، أما فى الجانب العملى فالأمر مختلف. حيث يستخدم الغرب هذا الأمر سلاحًا ضد الأنظمة غير المرغوب فيها، بحجة أنها تنتهك حقوق الإنسان.

- الموقف من المرأة: فتصور الغرب لماهية المرأة وموقعها داخل المجتمع هو الذى ينبغى أن يسود فى العالم، حيث تختفى هنا مسألة الفوارق بين الرجل والمرأة، ويصبح متاحًا للمرأة مايتاح للرجل.

- اعتماد الأصل البشرى الواحد، ورفض كل أنواع التمييز القائمة على الأعراق والأجناس، وعدم قبول الدعوات القومية، وتساوى الناس فى الحقوق والواجبات من حيث المبدأ، وهذا الأمر يتفق فيه الإسلام مع العولمة النظرية، وإن كان الجانب العملى فيها يقوم على استعلاء الرجل الغربى وتفوق الرجل الأبيض.

- رفض الفوارق الدينية، والسعى الحثيث لإزالة كل الحواجز أمام الحوار بين الأديان، سعيًا للوصول إلى دين موحد للبشر جميعًا.

وتدخل العولمة الدينية ضمن هذا الإطار، فهناك أسس دينية مشتركة بين القوى المسيطرة على أزمة أمور العالم اليوم، وهم اليهود والنصارى، وخاصة ما يتعلق بالإيمان بكتب العهد القديم (التوراة) وما هو ذو صلة بإقامة دولة إسرائيل الكبرى والنزول الثانى للمسيح -عليه السلام- وتفهم المؤسسات الدينية والكنائس النصرانية العولمة الدينية على أنها السعى لتنصير العالم، ورغم أن هذه المؤسسات ناشطة منذ زمن غير قريب، إلا أن العولمة أعطتها دفعة جديدة ووضعت بين يديها المزيد من الإمكانيات المادية والبشرية، فقد اقتربت ميزانيات التنصير من مائة مليار دولار فى العام، ووصل عدد المنصرين إلى أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف منصرٍ

٢- العولمة الاقتصادية:

هذا الميدان يمثل الجانب الأبرز فى العولمة، حيث أن كثيرًا من التعريفات للعولمة تركز على الجانب الاقتصادى، حتى ليخيل للبعض أن العولمة مذهب اقتصادى، وبهذا الصدد يعتبر البعض العولمة بأنها (رسملة العالم).

جدير بالذكر أن الرأسمالية، وهى الجانب الاقتصادى فى الليبرالية، عندما نشأت قبل ثلاثة قرون على يد آدم سميث، أصبح شعارها المشهور هو (دعه يعمل دعه يمر) وهذا يعنى إتاحة الحريات الكاملة داخل أى مجتمع لرأس المال لكى يستثمر ويعمل ويبدع، وإزاحة كل الحواجز والموانع من أمامه.

واليوم فإن العولمة الاقتصادية تعنى ضرورة تحقق هذا الشعار على المستوى العالمى، فالقوانين التى كانت تتيح تحرك الأموال بحرية داخل أى مجتمع رأسمالى، ينبغى أن تكون هى السائدة على مستوى العالم.

وإذا كانت الرأسمالية داخل المجتمعات الغربية المحصنة ضد المظالم الاجتماعية، والمسلحة بمؤسسات الرقابة والإعلام والقضاء والمحاربة للفساد، والمالكة لأنظمة الضمان الاجتماعى والتكافل السياسى والتأمين المعاشى والصحى، قد تسببت فى خلق فجوة هائلة بين طبقات المجتمع الواحد، حتى أن الأرقام تقول: إن ٩٠٪ من

ثروة أغنى بلد فى العالم، وهو الولايات المتحدة الأمريكية بيد ٥٪ من سكانها، بينما ليس لـ ٩٥٪ من السكان إلا ١٠٪ من الثروة، فكيف سيكون وضع العالم حينما تطبق الرأسمالية العولمية؟ لاشك أن الفجوة الهائلة بين الشمال المتخم بالغنى والجنوب المترع بالفقر ستتسع عشرات المرات، وهذا ما يحذر منه علماء الاقتصاد الأحرار وأكثرهم للأسف الشديد من البلدان الرأسمالية ذاتها.

وإذا كانت الأرقام المذهلة لأصحاب الثروات قد ميزت القرن العشرين، فإن تمركز الثروات أكثر فأكثر سوف يكون النتاج الطبيعى للعولمة الجديدة، حيث إن بعض المصادر تشير إلى أن ٣٥٨ ملياردير فى العالم يمتلكون ثروة تزيد عما يمتلكه نصف سكان العالم، وأن هناك ٢٠٪ من دول العالم تستحوذ على ٨٥٪ من الناتج العالمى الإجمالى، وعلى ٨٤٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها ٨٥٪ من مجموع المدخرات العالمية[١].

وهذه العولمة الاقتصادية تتم عبر صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، وعبر منظمة (الجات) التى نشأت بغرض توحيد التعريفة الجمركية فى العالم، بحيث تزال كل العقبات والموانع من أمام حركة (الفيلة)، فيلة رأس المال التى تدوس أمامها كل شىء.

ومن أهم أعراض هذه العولمة، سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على ما بقى من جيوب اقتصادية محصنة فى دول العالم الثالث، إما بسبب حيوية بعض الاقتصاديات، مثل النمور الآسيوية، وإما نتيجة منظومة حماية وطنية أو قومية، كما هو حال الاقتصاد الصينى، وهذه الجهات المحصنة هى أحد أهداف العولمة الاقتصادية، أما العالم الثالث فإن امكانياته ستصبح كرة فى أقدام صبيان العولمة.

٣- العولمة السياسية:

وهى ضمان عبور المفاهيم الليبرالية فى الحياة السياسية الغربية إلى العالم الثالث دون عقبات أو حواجز، فالديمقراطية على النسق القائم فى الغرب، هى مكمن القوة فى المعجزة الغربية، حيث وفر الاستقرار المصحوب بالحريات بيئة خصبة

(١) فتحى يكن- رامز طنبور: العولمة ومستقبل العالم الإسلامى: ص (٥٧).

للعمل والإنتاج، إذ أن سقف الحريات المرتفع يسمح بنمو القامات وظهور العمالقة فى كل مجالات الحياة المختلفة، أما سعة الهامش الأفقى للحريات، فقد سمح للناس بالحركة الواسعة التى فجرت الطاقات وأظهرت المواهب على كل المستويات.

هذا الكلام صحيح من حيث المبدأ، مع ملاحظات على الديمقراطية التى لا تعترف إلا بثوابت المتعة والأغلبية، ولأن العولمة إنما هى موجة استعمارية جديدة لكنها مزخرفة، فإن الاهتمام بالحريات والتركيز على الديمقراطية، هو هذا الثوب المزركش الذى يراد منه فقط أن يستر الوجه الكالح للعولمة الثقافية، ويغطى الأنياب البارزة والأظافر الحادة للعولمة الاقتصادية، ولذلك فإن تركيز الغرب منصب على الأشكال وليس على الجواهر، فهناك أنظمة تمرغ كرامة الإنسان فى الوحل، ومع ذلك فهى تملك صكاً من صكوك القبول الغربى، إما لأنها ملتزمة بالشكل الديمقراطى أو لأنها متفانية فى تحقيق رغبات الغرب النهم، ولو على حساب شعوبها.

وأبرز مظاهر العولمة السياسية هى أحادية القطب الذى يرتكز عليه النظام العالمى الجديد، فالنظام القديم كان يقوم على قطبين ضخمين، إضافة إلى مجموعة من القوى الكبرى، وخاصة الدول الثلاث الأخرى صاحبة العضوية الدائمة فى مجلس الأمن. إن الهيمنة اليوم لقوة واحدة فى العالم هى الأكبر على مستوى الأرض قديمًا وحديثًا، وهى الولايات المتحدة الأمريكية، ولذلك فإنه بالإمكان تلخيص التعريف الدقيق للعولمة بكلمة واحدة وهى (الأمركة) كما سيأتى معنا فى المبحث التالى.

***

المبحث الثالث

آليات أمركة العالم بدعوى العولمة

نجحت العولمة فى تجاوز الحدود الجغرافية والسياسية، بل وتجاوزت المنازل حيث تسللت إلى غرف النوم، وتحول العالم إلى قرية صغيرة، ومن ثم ظهرت (العولمة) بالمفهوم الشامل، وهى امتداد للنظام الدولى السابق، والجديد فيها أنها أقرب إلى القهر والإجبار (عولمة)، حيث يمكن اعتبارها مشروعًا قسريًا للضم والإلحاق وتتبيع الآخر وجعله ذيلاً للطرف الأقوى، ولكن بغير استخدام الوسائل العسكرية إلا فى حالات نادرة.

أما أبرز خصائص نظام (العولمة)، إضافة إلى النقطة السابقة، فهى تفرد الولايات المتحدة الأمريكية، بإدارة الدنيا وقيادة العالم، وبناء عليه فإن (العولمة) هى الأمركة، فما هى حيثيات هذا الحكم بصورة أوضح؟ وما هى آليات تنفيذ هذه العولمة؟

أولاً: العولمة محاولة لأمركة العالم:

هناك مبررات وأسس للقول بذلك، يمكن تلخيص أهمها فى النقاط التالية:

١- وجود جذور ومقدمات هذه العولمة الأمريكية فى الفكر السياسى للنظام الأمريكى، حيث يشعر المسؤولون هناك وصناع القرار أن الله أوجد أمريكا لأداء رسالة نحو هذا العالم، حيث يجب أن تقوم بدور الشرطى والقاضى والحاكم، وهذا المفهوم يقترب من مفهوم الحملات الصليبية فى القرون الوسطى، إذ يصر الآباء المؤسسون للجمهورية - أو الإمبراطورية - الأمريكية على أن الفكر الذى قامت عليه بلادهم هو المثال البشرى الذى يجب الاقتداء به من قبل الآخرين، وإلا وجب على الأمريكيين نشره ولو اضطروا إلى استخدام القوة.

ويسخر العالم الأمريكى (هانزجيه مورجنتاو) من هذا المفهوم، فيقول: (وهنا يمتزج المفهوم التنصيرى عن العلاقة بين وضعنا الداخلى وبين سياستنا الخارجية ليشكلا شيئًا ثالثًا هو الحملات الصليبية، فنحن باعتبارنا (مبشرين) برسالة التجربة

الأمريكية كنا نقدم مساعدتنا للآخرين وهم أحرار فى قبولها أو رفضها، أما نحن باعتبارنا فرسانًا طيبين فسنفرضها فرضًا على بقية العالم بالنار والسيف إذا كان ذلك ضروريًا، وستكون الحدود العقلية لهذه الحملة الصليبية هى حدود القوة الأمريكية، فإن حدودها الممكنة ستكون حدود الكرة الأرضية، لقد تحول النموذج الأمريكى إلى صيغة فكرية للخلاص الشامل، ستلتزم بها الأمم ذات التفكير الصحيح طوعًا. أما الأمم الأخرى فيجب أن تخضع لها كرهًا).

وجاء عام ١٩١٤م ليشكل بداية التدخلات الأمريكية فى العالم، ففى أبريل من هذا العام خاطب تيودور روزفلت الكونجرس من أجل إقرار استخدام القوات المسلحة الأمريكية ضد المكسيك، لأن المكسيكيين لم يقوموا بتحية العلم الأمريكى، ومن بعدها اتسعت دوائر التدخلات الأمريكية فى العالم، ويعيد كاتب نابه جذور هذه التدخلات إلى عدة مبادئ أمريكية وهى: مبدأ القوة العسكرية هى الفيصل النهائى، المصلحة الذاتية المستنيرة، القدر المرموق، الحرب العادلة، مبدأ مونرو، خطاب (مسيرة الراية)، استنتاج روزفلت[١].

ويرى قادة أمريكا وصناع قرارها أن أمريكا اختارها الله لتلعب دورًا مركزيًا فى العالم، فهذا جورج واشنطن أول رئيس أمريكى فى خطابه الرئاسى عام ١٧٨٩م يقول: (إنه موكل بمهمة عهدها الله إلى الشعب الأمريكى). وهذا ما قاله توماس جيفرسون فى خطابه الرئاسى عام ١٨٠١م (الأمريكيون شعب الله المختار) أما الرئيس دوايت إيزنهاور فقد خاطب أمته عام ١٩٥٣م قائلاً: (لمواجهة تحديات عصرنا حمّل القدر بلدنا مسؤولية قيادة العالم الحر)[٢]. ويقول دين راسك وزير خارجية أمريكا فى ١٩٦٥م: (إن هذا الكوكب الذى نعيش عليه قد أصبح صغيرًا، وعلى الأمريكان أن يهتموا بجميع هذا الكوكب: بأرضه ومياهه وأجوائه والفضاء المحيط به)، ويقول ستانلى هوفمان: (إن أمريكا تنظر لنفسها باعتبارها الأخ الأكبر

(١) انظر: حسن أبو حلو: الجذور الفكرية للتدخلات الأمريكية المسلحة فى العالم (البيان: العدد (١٣٠)، ص ٨٤ - ٩١).

(٢) انظر ما يقوله المفكرون الأمريكيون فى السياق ذاته حسن قطامش: نهاية الجغرافيا - سيادة الدولة أم سيادة العولمة (البيان: العدد (١٤٩)، ص ٩٥، ٩٦).

لهذا العالم، وسوف يتطور هذا الوضع لتصبح الوالد له، وأنها تسعى لكى تكون النموذج أو المعلم أو الإطار الذى يدور فيه تحسين هذا الكوكب)[١].

وكلما تقدمت الأيام، بدا الأمريكان أكثر صراحة فى هذا المجال، يقول الرئيس بيل كلينتون: (إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشرى، وأننا نستشعر أن علينا التزامًا مقدسًا لتحويل العالم إلى صورتنا)!. ورأى دان كويل - نائب الرئيس الأمريكى - أن أمريكا وحدها هى القادرة على قيادة العالم لتوفر الشروط والمتطلبات المادية التى تؤهل أمريكا لهذه المهمة. إذن هذا هو المبرر الثانى والذى تضمنه كلام كويل.

٢- امتلاك أمريكا للثروات والقوى العابرة للقارات: يدرك الأمريكان أن عليهم رسالة نحو العالم بأمركته، لشعورهم بنهاية التاريخ وضرورة نهاية الجغرافيا حتى يعمم النموذج المثالى فى أمريكا على العالم أجمع. ويؤجج هذا العامل الفكرى الثقافى عامل آخر، وهو عامل واقعى، يقوم على قوة أمريكا فى العالم، فصادراتها تساوى ثلث صادرات العالم أجمع، وهى تمتلك وسائل الإعلام الضخمة التى تصل حد الإمبراطوريات، وتتحكم فى حركة المعلومات، حيث يرتبط العالم كله بشبكة (الإنترنت) التى أوجدتها هى أولاً، وهى أكبر مُصدِّر فى العالم للمعلومات، وأكبر مستثمر، وتمتلك أقوى جيش فى العالم بصواريخه العابرة للقارات، وأكبر اقتصاد فى العالم بشركاته المتعددة الجنسيات، والتى يبلغ دخل بعضها، أكثر من دخل عشرات الدول الفقيرة فى العالم. وعلى سبيل المثال فإن دخل شركة جنرال الكتريك فى العام يزيد عن مائة مليار دولار، وهو ما يزيد عن دخل عشرات الدول الأفقر فى العالم.

ويمكن القول: إن أهم معطى فى هذا الجانب هو امتلاك؛ الثروة المعلوماتية. وإذا رجعنا إلى الأرقام فإننا سنجد العجب العجاب، فإن أكبر وسيلة للتبادل المعرفى فى العالم اليوم هو الإنترنت، تقول إحصائية لليونسكو: إن ٧٥٪ من الإنتاج العالمى يصدر عن الولايات المتحدة، و ٢٥٪ لبقية العالم، وأن ٨٨٪ من معطيات الإنترنت باللغة الإنجليزية و ٩٪ بالألمانية، و٢٪ بالفرنسية و١٪ لبقية اللغات[٢]. وتمتلك

(١) كمال الهلباوى: السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط: ص (١٧٣).

(٢) د/ بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة - رؤية نقدية: ص (٤١).

الولايات المتحدة النصيب الأوفر فى العالم من براءات الاختراع، ففى عام ١٩٩٨ بلغ عدد الاختراعات المسجلة فيها أكثر من ١٥١ ألف اختراع. هذه الثورة المعلوماتية وهذا الإنفجار المعرفى يمثلان أساسًا متينًا للسعى الأمريكى المتصاعد من أجل (أمركة) العالم. تحت لافتة (العولمة) التى تبدو لأول وهلة بأنها موضوعية وعامة.

٣- إدراك العالم الواعى أن العولمة ما هى إلا محاولة محمومة لأمركة العالم. ومما يبين ذلك:

- التعريفات التى أوردها كثير من العلماء للعولمة على أنها استعمار جديد أو أمركة بلغة أوضح، وخاصة من علماء الغرب، وقد سبق أن أوردنا مجموعة منها.

- كثرة الكتب التى ألفت حول العولمة، محذرة من أخطارها وعواقبها على العالم أجمع، ويمكن أن نلحظ مقدار الرعب من هذه العولمة أو الأمركة من خلال عناوين الكثير من هذه الكتب، وعلى سبيل المثال يمكن إيراد العناوين التالية: «الرعب الاقتصادى»: فيفيان فورستر، «العولمة والأقلمة»: ريتشارد هوبت، «الفجر الكاذب - أوهام الرأسمالية العالمية»: جون جراي، «ما العولمة؟ الاقتصاد العالمى وإمكانات التحكم»: بول هيرست وجراهام طومبسون، «أفول السيادة - كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا»: ولتر ريستون، «الجهاد ضد السوق الكونية: بنجاين بابر.

ومن أبرز الكتب الناقدة للعولمة: (فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) للألمانيين هانس بيتر مارتين وهارالد شومان. وقد نشر بالألمانية سنة ١٩٩٦م، وطبع تسع طبعات خلال عام واحد، دلالة على تفاعل الناس مع ما أوردا فيه من قضايا حول خطورة العولمة، بروح ناقدة وعقلية منصفة مستبصرة. لقد أبرز المؤلفان أخطار العولمة، مركزين على المجال الاقتصادى، ومنها: اتساع الهوة بين الشمال الغنى والجنوب الفقير، ازدياد الفجوات بين الأغنياء والفقراء داخل المجتمعات، ازدياد البطالة وانخفاض الأجور، تقلص مستوى الخدمات الاجتماعية التى تقدمها الدول. ولا شك أن هذه المشاكل، التى ستدفع بها العولمة

إلى السطح، سيكـون لها الكثيـر من التداعيـات على تماسك المجتمـعات ،وعلى النظام الديمقراطى وحقوق الإنسان.

- انتقاد كثير من المفكرين والسياسيين فى العالم للعولمة لمعرفتهم أنها اسم خداع لمصطلح حقـيقى هو (الأمركة)، واشـترك فى هذا النقد كثـير من أنصار الليبـرالية وأصدقاء أمريكا فى العالم.

وعندما أصدر هنتجتون كتابه (صدام الحضارات) تشكلت صدمة عند الكثير من المثقفين فى العالـم، وتصدى لهذا الفكر الأمريكى المتعصب مـئات المثقفين فى كل أنحاء العالم، إضافة إلى سياسيين وأكـاديميين، وعلى المستوى العربى رد عليه كثير من هؤلاء، حـتى أن د/ سليمـان العـسكرى رئيس تحرير مـجلة (العـربى) شبَّـه هنتجتون بابن لادن فى التسويق لصدام الحضارات والتمييز الدينى والعرقى والدعوة لاستخدام العنف ضد الآخر، ويقول فى السياق ذاته:

(يحاول هنتجتـون وأمثاله تحويل هذه الحضارة الكونية إلى أمركـة للعالم، حضارة جوهرها هيمنة أمـريكية مطلقة، عسكرية واقتصـادية وتكنولوجية وإعلاميـة وثقافية، واجتماعية، وهى هيمنة منفلتة العقال إلى حد دفع وزير الخارجية الفرنسية هوبيرفدرين إلى ابتكار لفظ جديد فى العلوم السـياسية، فكلمـة دولة عظمى لم تعد برأيه تكفى، وأنه يتعين من الآن فصاعدًا تسمية الولايات المتحدة دولة (فوق عظمى)[1].

- قيام عشرات المظاهرات والاحتجاجات فى أهم المدن فى العالم، فى مناسبات متعددة، أهمهـا على هامش المنتديات السياسية والاقتصـادية ذات العلاقة بموضوع (العولمة)، ومناهضة عشرات المنظمات حول العالم للعولمة وتحذيرها منها.

٤- الولايات المتحدة هى المستفيد الأكبر من العـولمة، لاعتبارات كثيرة، أهمها: أن العولمة فى الأصل بضاعة أمريكية ذات جذور ثقافـية عميقة فى الوعى السياسى الأمريكى، وأن أمريكا هى الطرف الأقوى عسكريّاً واقـتصاديّاً وبشريّاً وعلميّاً، وتتحكم فى مـعظم الثروة المالية والمعـرفية فى العـالم، وتمتلك الأجهزة الضخـمة والآليات التى تمكنهـا من امتصاص خـيرات العالم أجمع، دون أن تقـدم له سوى

(١) مجلة العربى: العدد (٥١٨)، ص (١٣).

الفتات، من شركات عملاقة، وأموال هائلة، واقتصاد عملاق موحد، وقبل ذلك وبعده، تمتلك المنظومة الدولية الكاملة التى تضفى على كل هذه القرصنة، غطاء الشرعية، فهى تحكم بأهم المنظمات الدولية فى كل المجالات وعلى كل الاتجاهات والمستويات.

وتملك العصا الغليظة للتسيير الإجبارى نحو تنفيذ ما تريده من هذه القرارات والأدبيات التى ستدفع بها إلى تلك المؤسسات لتخرج باسم العالم أجمع، وخاصة أن جذور أمريكا فى هذه المنظمات عميقة، بسبب دورها فى إنشائها وتسييرها المالى، وبسبب تحالفها مع الحركة الصهيونية التى تسيطر على مفاصل هذه المنظمات، وهذا يعنى أن أمريكا تمتلك الآليات القادرة على (أمركة) العالم.

ثانيًا: آليات أمركة العالم:

تسير أمريكا فى طريقها لأمركة العالم بخطى ثابتة، مستخدمة عدة آليات فى تحقيق أهدافها:

الآلية الأولى: هيئة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها: قد تحولت هذه المنظمة الدولية وإداراتها إلى مجرد أدوات لتمرير رغبات أمريكا، وإعطاء الشرعية لمغامراتها العسكرية وتقنين اتجاهاتها فى كل الجوانب:

١- فى الجانب السياسى: أصبح مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة عصا أمريكا الغليظة لتأديب من يجرؤ على التمرد على شرعيتها، أو لتهديد من يفكر بشىء من ذلك، وقد رأينا كيف استغلت هذه العصا ضد العراق منذ ١٩٩٠م، حتى إسقاط النظام العراقى فى ٢٠٠٣م، فقد ظل هذا المجلس يبرر لأمريكا قيامها بدور الراعى لقطعان (الأمم المتحدة)، حيث حرصت أمريكا على الظهور بصورة الراعى (الكاوبوى) استنادًا إلى ميراثها السابق فى رعى الأبقار، ومن يشرد عن القطيع فإن عصاها غليظة ويدها طويلة، والعراق كان الدرس الأكبر والضحية الأخطر، لكنه لم يكن الوحيد ولن يكون، فالقائمة الأمريكية عريضة وطويلة، وتستطيع أن تستوعب الكثير من البلدان، فقد صرح جورج بوش بعد ١١ أيلول ٢٠٠١م أن قائمة الإرهاب تضم ستين بلدًا فى العالم.

٢- فى الجانب الاقتصادى: تستخدم الولايات المتحدة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى إماتة وإحياء الأنظمة حسب مصلحتها، وعن خطورة هاتين المؤسستين على الشعوب الحرة، يقول جيسى جاكسون: (لم يعودوا يطلقون الرصاص ويعلقون المشانق، بل أصبحو يستعملون صندوق النقد الدولى). ويقول ميلتون فريدمان - وهو اقتصادى حائز على جائزة نوبل - فى مقالة له بمجلة «تايم» الأمريكية (٣١/ ٥/ ١٩٩٨م): (فى نظرى فإن صندوق النقد الدولى يعتبر مسؤولاً إلى درجة كبيرة عن الأزمة التى حلت بالدول الآسيوية)[١].

وهناك منظمة التجارة العالمية (الجات) التى لعبت أمريكا الدور الأبرز فى تأسيسها عام ١٩٤٤م، وهى الآن إحدى مؤسسات النظام العولمى الجديد الذى تقوده أمريكا، فهذه المنظمة أصبحت مساهمة بقوة فى إدارة دفة العالم، وأصبحت تضع التشريعات التى تضمن إزالة التشريعات المحلية الحامية لاقتصادات الدول الفقيرة.

٣- فى الجوانب الثقافية: هناك منظمات عدة تقوم بدور نشر الثقافة العالمية، عبر سلسلة من الندوات والمؤتمرات والقرارات، مثل منظمة اليونسكو. ومهمة هذه الجهات هى إعطاء صك العالمية للثقافة الغربية بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، والتضييق على ثقافات الآخرين بكل وسيلة، ومواجهتها فى كل سبيل، ومحاولة تجفيف منابعها، بقرارات واتفاقيات، مثل التدخل فى المناهج الدراسية، والترويج لمفردات ثقافية محددة فى بلاد العالم الثالث، وهى التى تساهم فى تحقيق الاستراتيجية الثقافية للعولمة.

وخطورة هذه المنظمات تأتى من كونها تتبنى الرغبات الأمريكية كاملة تقريبًا، لتمنحها الصورة الأممية والشرعية الدولية، من خلال ندوات ومؤتمرات وقرارات فى كافة جوانب الحياة.

ففى جانب المرأة، جرت محاولات حثيثة لعولمتها، عبر مجموعة من المؤتمرات الدولية التى تنتهى بعقد وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات العالمية والملزمة للحكومات، وبحيث تصبح مرجعية عالمية جديدة، أو (أيديولوجية نسوية لها قوة الأيديولوجيات السياسية، التى عرفها القرن الماضى). بل أنها تكاد أن تتحول إلى

(١) عن دور هاتين المؤسستين فى العولمة انظر: عبد الحى يحيى زلوم: نذر العولمة (مواضع متفرقة).

دين جديد يراد من الجميع اعتناقه وإلا تحولت إلى سبب ومبرر لغزو العالم وشعوبه والقضاء على خصوصياته. ومن أدوات هذه المرجعية الجديدة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م، ووثيقة بكين حول الأسرة والمرأة والتى يتضح منها سعىٌ محمومٌ لتدمير الأسرة والمرأة بل وتدمير الحضارة البشرية ذاتها.

وفى مؤتمر (السكان) الذى عقد فى القاهرة فى صيف ١٩٩٤م، حاولت التيارات العولمية تمرير وثيقة تتيح الإجهاض بإطلاق، وإجازة الأسرة الوحيدة الجنس، وإطلاق العنان للأولاد فى السلوك الجنسى والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعى. ومن هنا وقفت كل المؤسسات الدينية فى العالم الإسلامى، مثل الأزهر ورابطة العالم الإسلامى والحركات الإسلامية، جنبًا إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة فى مقاومة هذا التوجه المدمر[١]. وما لم يتحقق فى القاهرة ١٩٩٤م تحقق فى بكين ١٩٩٥م، بل وأصبح وثيقة، تحمل الكثير من الإلزام، وفى السياق ذاته عقدت الأمم المتحدة مؤتمرًا أطلقت عليه «مؤتمر الأديان» انتهى بتوقيع زعماء العالم الدينيين على أن كل الأديان سواء، ولا فرق بينها[٢].

الآلية الثانية: تحول الولايات المتحدة إلى حكومة للعالم، بقدر ما ظلت الولايات المتحدة تلعب أدوارًا فى دفع العالم للأمركة عبر المؤسسات الدولية، فإنها بدأت بالتدرج تعتمد على ذاتها فى هذا الأمر بصورة مباشرة، حيث بدا للعيان فى حالات عدة التوحد الكامل بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة العالم، من خلال الأمور التالية:

١- إصدار التشريعات التى تؤسس لهذه الحالة، فقد أصدر الكونجرس فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين قانون (الاضطهاد الدينى) الذى يعطى للإدارة الأمريكية الحق فى التدخل فى أى بلد فى العالم بحجة حماية الأقليات الدينية من الاضطهاد. ويعطى هذا القانون الرئيس الأمريكى (١٥) إجراء ضد الدول التى تمارس هذا الاضطهاد، ثمانية منها ديبلوماسية وسبعة تتعلق بوقف المعونة الأمريكية

(١) انظر: د/ القرضاوى: المسلمون والعولمة: ص (١٤، ١٥) وكمال حبيب: مجلة البيان: العدد (١٥٠)، ص (٣٦ - ٤١).

(٢) أنظر: البيان: العدد (١٥٦)، ص (١٢٧).

أو فرض عقوبات اقتصادية[١]. ومع مطلع الألفية الثالثة أوجدت أمريكا قانونًا يحرم على أى دولة فى العالم محاكمة مواطنيها إذا ارتكبوا أى جرائم حرب جنائية، وضغطت على كثير من الدول للتوقيع على هذا القانون الذى أحالته إلى اتفاقيات ثنائية، بل وألزمت تلك الدول بعدم تسليم المواطنين الأمريكيين إلى أى محكمة دولية، حيث إن المواطن الأمريكى فوق القانون الدولى، مثلما هى دولته!.

٢- استخدام ديبلوماسية التسيير الإجبارى، بدخول القوة المادية الأمريكية والمعنوية مباشرة فى المعركة مع الاتجاهات التى لا ترضى عنها الولايات المتحدة، وذلك باستخدام الضغوط السياسية والديبلوماسية، وشن الحروب الإعلامية والنفسية واغتيال الشخصية المواجهة لها بهذا الأسلوب، والضغوط الاقتصادية إما بتجميد الأموال فى بنوكها، أو بوقف المساعدات والقروض، أو بتحريض الشركات المتعددة الجنسيات على سحب استثماراتها من ذلك البلد، وصولاً إلى إعلان الحصار الاقتصادى، الجزئى أو الكلى.

وهناك استخدام للقوات العسكرية فى هذا الجانب، من خلال التطوير الدائم لمنظوماتها التسليحية واستخدامها كرادع، والتحكم فى السوق الدولية للأسلحة، والعمل الحثيث للحد من انتشار الأسلحة التى لا ترغب فى انتشارها، وإيجاد صورة أسطورية عن العسكرى الأمريكى، وخلق هالة ضخمة حول القوة الأمريكية، مع الحرص على ربط جيوش الدول المختلفة بقواتها، من أجل تعزيز الصورة النفسية للجندى الأمريكى وزعزعة الجندى الآخر، ومن أجل أمركة النخب العسكرى فى تلك الدول.

٣- القضاء بصورة مباشرة على هوامش الحركة وتقليص مساحات الظل فى كل دول العالم: بالنسبة للقضاء على هوامش الحركة، فبعد سقوط حلف (وارسو)، لم يعد هناك منظمة ذات شأن فى العالم، حيث أن بقية المنظمات صورية، ومع ذلك فهى فى عمل دائب - أى أمريكا - من أجل تفريغها مما بقى لها من رصيد، وتسعى لتدميرها. وتبدو اليوم منظمات، مثل: منظمة عدم الانحياز، ومنظمة

(١) أنظر: البيان العدد (١٣٣)، ص (٨٨).

المؤتمر الإسلامى، وجامعة الدول العربية، ومنظمات إقليمية أخرى، أشباحًا بلا أرواح، وأشكالاً بلا مضامين.

أما إلغاء مساحات الظل، فهى تلجأ دومًا إلى احتواء الأنظمة التى تستظل بغير الراية الليبرالية العولمية، سعيًا لاستئصالها، إذ ارتكبت أدنى أمر يمكن أن يوفر لها المبرر للتدخل العسكرى المباشر، كما فعلت مع نظام (طالبان) الذى كان يستظل بالراية الإسلامية، ويمكن أن تفعل مثل ذلك مع السودان وإيران وإلى حد ما السعودية وباكستان واليمن، وكما فعلت بنظام صدام الذى كان يستظل بالراية القومية، ويمكن أن تفعل مثل ذلك مع ليبيا وسوريا، ويمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة البلدان التى تستظل بالراية اليسارية، مثل كوريا الشمالية وكوبا، والصين إلى حد ما.

الآلية الثالثة: استثمار المنظمات والتجمعات التى تنتمى إليها للضغط فى اتجاه تحقيق أهداف أمريكا الاستراتيجية، سواء أرادت تلك الدول أم لم ترد، من خلال التلويح بشىء من المزايا أو ببعض العقوبات إضافة إلى التهويل مما تعتبرها أمريكا أخطارًا تهدد الدول المتقدمة، مثل خطر الإرهاب، وتقديم نفسها كخط دفاع عن تلك الدول (حامية الحمى). ومن هذه المنظمات والتجمعات:

١- حلف شمال الأطلسى الذى كان يفترض أن ينتهى بزوال حلف (وارسو)، لكنه تعزز لمواجهة أخطار جديدة، وضعت (أجندتها) الولايات المتحدة، وفى مقدمتها خطر الأصولية والإرهاب، ولا يستبعد أن تكون أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م مدبرة لتحقيق أهداف كثيرة فى الاستراتيجية الغربية، بعضها ذات صلة بما نحن بصدده الآن.

٢- المنظمة الاقتصادية لأمريكا الشمالية، وتجمعها الاقتصادى مع أمريكا الجنوبية.

٣- نادى الدول الصناعية السبع الذى انضمت إليه روسيا، بعد أن رتبت أولوياتها وفقًا للاستراتيجية الأمريكية، وليس وفقًا لأجندتها القومية الخاصة.

وتدفع أمريكا بهذه التجمعات وغيرها لاتخاذ سياسات وقرارات تساهم فى التعجيل بدوران عجلات العولمة، رغم شعور بعض هذه الدول بالخطر على ثقافتها ومصالحها، مثل فرنسا التى تتساقط حصونها الثقافية والسياسية فى غرب أفريقيا أمام الاجتياح الأمريكى كأوراق الخريف، لدرجة أن أمريكا طردت بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة لاعتبارات عدة، واحدة منها لأنه يمثل الثقافة الفرنسية الفرنكفونية.

إذن، يمكن الجزم بأن (العولمة) ما هى إلا (أمركة) للعالم عامة، والعالم الثالث خاصة، فى صورة زاهية جديدة لما كان يسمى بالاستعمار!. فأين موقع العالم الإسلامى من هذه العولمة؟ وما هو موقف المسلمين منها؟ هذا موضوع المبحث التالى.

***

المبحث الرابع
المسلمون والعولمة

أولاً: المسلمون فى مهب العاصفة:

إن المتمعن فى أحوال العالم الإسلامى، والعارف بأهداف وأساليب واستراتيجيات العولمة، يستطيع أن يدرك بسهولة أن المسلمين هم الهدف الأبرز لعواصف العولمة، وأنهم يقفون أكثر من غيرهم فى مهبها، وذلك للعوامل التالية:

١- أنهم أكثر المستهدفين من قبل أهم القوى والتيارات التى تقف خلف العولمة، بسبب أنهم الأمة الأكبر مساحة على مستوى العالم، والأكثر سكانًا بعد النصارى، والأخطر موقعًا، والأغنى ثروة، والأقوى ثقافة، وهذا يؤكده الواقع ويثبته التاريخ حيث إن المسلمين تعرضوا لكبوات ونكبات عديدة، لكنهم لم يصلوا إلى درجة السقوط الكلى، لا بنهاية الحضارة تمامًا، ولا بتغيير أصول هذه الحضارة، وهو الإسلام.

ومما يزيد من تخوف دوائر التغريب والعولمة من المسلمين، بداية ظهور ما اصطلح على تسميتها بالصحوة الإسلامية. وقد أشرنا من قبل إلى أن المبرر الرئيسى الذى أبقى حلف شمال الأطلسى، وهو الذراع العسكرية للغرب، هو مواجهة الأصولية الإسلامية، وهذا ثابت فى أدبيات الحلف وبيانات وخطابات قادته ومسؤوليه، ومسجل فى كافة وسائل الإعلام فى العالم.

٢- أنهم الأوسع تماسًا مع الحضارة الغربية التى هى الأم الشرعية للعولمة، وعلى سبيل المثال فإن الحضارة الغربية ليست لها حدود جغرافية مع الحضارة البوذية أو الكونفوشية أو الهندوسية، بعكس العالم الإسلامى الذى يمتلك آلاف (الكيلو مترات) من نقاط التماس. وهذه النقاط تمثل سلاحًا ذا حدين، حيث إن العالم الإسلامى هو الأكثر تأثيرًا وتأثرًا بالغرب، بحكم نقاط التماس الجغرافية، وكذلك نقاط التماس التاريخية، سواء كانت إيجابية أو سلبية.

وبسبب نقاط التماس هذه، وبسبب التنافس التاريخى بين العالمين، فإن العالم الإسلامى هو الأكثر تحسسًا من مشاريع الغرب وأفكاره وتياراته، والأكثر تصديًا

لمشاريع الغرب الاستعمارية، والأبرز ثراء فى الصدام التاريخى مع الحضارة الغربية، وهذا العامل يجعل الغرب يولى اهتمامًا خاصًا بعولمة العالم الإسلامى أكثر من غيره، ومن هنا يتضح أن الأمر لا يعدو موجة استعمارية جديدة تتناسب مع المتغيرات الدولية والتطورات الحضارية.

٣- أنهم الأكثر تأثرًا بالعولمة من الناحية العملية، إن كانوا فى الجانب النظرى الأكثر حساسية ومقاومة، إذ أن العالم الإسلامى بجملته ينتمى إلى العالم المتخلف، الذى يعانى من آفات التخلف، حيث تنتشر الأمية بنسب عالية، وخاصة الأمية الثقافية، وينتشر الفقر والمرض، وتضعف أواصر التعاون وتغيب الروح الجماعية، وترتفع البطالة والأسعار ويقل الدخل، **ويضعف الإنتاج**، وهذا كله يزيد من إمكانات الوهن وقابليات التبعية، وبالتالى فإن المقاومة لموجات الغزو المعنوى والاقتصادى، المتمثلة اليوم فى العولمة، تكون فى أضعف حالاتها.

ولقد أخبرتنا عبر التاريخ أن الضعيف دائمًا مولع بتقليد القوى، والعالم الإسلامى اليوم فى أضعف حالاته، وبالتالى فإن كثيرًا من أبنائه يعانون من عقدة النقص ومركب الدونية، وهذا يعطيهم دافعية هائلة لتقليد الأمة الأقوى التى تريد تصدير عولمتها، وخاصة المفردات المرتبطة بالجوانب الثقافية والاجتماعية، مع إعطائها هالة من العلم، وبريقًا من التحضر، بحيث يتوهم المقلد أنه بهذه السلوكيات يردم الفجوة القائمة بينه وبين العالم المتقدم.

٤- أنهم يواجهون كيانًا انغرس فى قلب أمتهم، ويرفضون الاستسلام له، رغم ضعفهم وتمزقهم، والكيان الصهيونى لا يخفى علينا دوره فى الوقوف خلف العولمة، وتحريكها من خلف الكواليس لصالح اليهود فى محاولة للاستفادة القصوى منها، تعزيزًا لثرواتهم ومكاناتهم، سواء فى الغرب أو فى فلسطين المحتلة، مع ما يستتبع ذلك من استخدام إمكانات العولمة لضرب المسلمين، إما بصورة الاستهداف المباشر بحجج مختلفة كثقافة وتيارات وأنظمة، وأما بتصدير أسوأ ما فى العولمة إلى المسلمين لنخرهم من الداخل، حتى لا يقوون على الوقوف أمام إسرائيل.

وتزداد خطورة هذا العامل، لأن اليهود اليوم هم أكثر الأمم نفيرًا، حيث صوتهم الإعلامى هو الأعلى والأكثر قبولاً، إضافة إلى تحكمهم بثروات هائلة، واستفادتهم من تنظيمات سرية قوية، ذات تواجد فى مفاصل المجتمعات الغربية. وهذا يوفر عامل إغارة إضافى للعولميين على المسلمين، خاصة وأن اليهود لا يخفى دورهم فى تحريض الغرب ضد العالم الإسلامى بكل الأساليب والوسائل الممكنة، وبهذا الصدد فإن أحد (السيناريوهات) القوية حول من يقف خلف تفجير مركز التجارة العالمى يشير إلى اليهود، وهناك قرائن كثيرة فى هذا المجال، يرقى بعضها إلى درجة الأدلة.

ثانيًا: أخطار العولمة على العالم الإسلامى:

إن أخطار العولمة العامة التى أشرنا إليها فى كل مجال من مجالات الحياة، هى ذات الأخطار على العالم الإسلامى، ولكن الفارق أن الضرر سيكون أفدح، لأن الهوة كبيرة بين العالم الإسلامى والعالم المتقدم بالمقياس المادى الحضارى، وقد ذكرنا من قبل نماذج لحالات الفاعلية فى الغرب ومقابلها فى العالم الإسلامى، وكان الفارق أرقامًا فلكية لا تكاد تصدق، حتى أن البعض يعتقد أن هذه الأرقام ذاتها جزء من الحرب ضد العالم الإسلامى، بإثارة الهزيمة النفسية، وهذا يدل على ضخامة هذه الأرقام والفوارق.

وأهم أخطار العولمة، إدقاع الفقراء، والتى بسببها يخرج عشرات الآلاف من الغربيين أنفسهم إلى الشوارع فى كل مناسبة للتظاهر دفاعًا عن الفقراء الذين سيزدادون فقرًا لحساب ازدياد الأغنياء غنًى فى ظل هذه العولمة.

وبهذا الصدد أعلن صندوق الأمم المتحدة للتنمية أن البون الشاسع بين البلدان الأكثر غنى والبلدان الأكثر فقرًا، قد تضاعف خلال ثلاثين سنة، ففى فرنسا مثلاً عام ١٩٩٢م تصرف ٦٪ من الشعب فى ٥٠٪ من الثروات.. وفى الولايات المتحدة يمسك ٥٪ بحوالى ٩٠٪ من الثروات الوطنية[١].

(١) عبد القادر الطرابلسى: أضواء على مشكلة الغذاء بالمنطقة العربية الإسلامية: ص (٢٣).

ولكى نعرف أن المشكلة ليست فى أمريكا فقط، بل فى الفاعلية والاحتكار الغربيين عمومًا، فإننا نذكر بأن السويد دولة أوروبية، لا يزيد عدد سكانها عن ٨,٥ مليون نسمة، تدير عائلة واحدة تنتمى إليها هى عائلة والنبرغ إمبراطورية شركات بلغت مبيعاتها فى العام ما يزيد على ١٠٥ مليار دولار، نشرت ذلك مجلة (بيزنس ويك) الأمريكية بتاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٧م، وهذا المبلغ يزيد عن مجموع عائدات النفط لدول مجلس التعاون الخليجى الست[١].

ومما يزيد من خطورة هذا الأمر على العالم الإسلامى، أن الشركات الغربية فى حالة توحد واندماج بصورة مستمرة، بينما تشهد الكيانات العربية المماثلة المزيد من التشرذم والانقسام، وهذا لا شك سيزيد من سعة الفجوة الهائلة بين الطرفين.

تقول الأرقام: إن ثروة ثلاثة أغنياء أمريكيين تعادل أو تزيد على ثروات ٤٨ دولة من دول العالم الفقيرة. وثروة ٤٨ أمريكياً تزيد على ثروة ١,٣ مليار صينى يبلغ الناتج القومى لهم حوالى ٧٠٠ مليار دولار سنويًا، وأن ٢٢٥ ثرياً من أثرياء الدول المتقدمة يملكون ألف مليار دولار، أى: ما يعادل الناتج المحلى الإجمالى لـ ٤٧٪ من سكان العالم، فى حين أن ٤٠ مليار دولار، أى: ما يوازى ٤٪ فقط من ثروات الـ ٢٢٥ شخصًا كافية لكى تؤمن لكل سكان المعمورة الخدمات الاجتماعية الأساسية التى يحتاجون إليها، أى: الغذاء والصحة والمياه والتعليم، وأوضحت الدراسة أنه فى ظل العولمة المتوحشة أصبح نصف سكان العالم، أى: ثلاثة مليارات نسمة، من الفقراء يعيش منهم ١,٣ مليار نسمة تحت خط الفقر، ويقبع أغلبهم فى الدول النامية، فى حين أن ١٠٪ فقط من القابعين على قمة العالم فى الاتحاد الأوروبى وأمريكا يستحوذون على ٥٠٪ من تجارة العالم، وأن ١٣٪ فقط من سكان العالم ينفقون ٦٨٪ من الإنتاج العالمى، الأمر الذى يعكس عدم المساواة الصارخ الذى تتعرض له شعوب العالم الثالث. كما أشارت الدراسة إلى أن خمس دول فقط وهى: الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا واليابان وبريطانيا تتوزع بها ١٧٢ شركة من أصل ٢٠٠ شركة هى الأكبر والأشرس عالمياً والمسيطرة على الاقتصاد العالمى. وتعرضت الدراسة للزيادة المستمرة فى عدد الشركات متعددة

(١) زلوم: نذر العولمة: ص (٣٤٧، ٣٤٨).

الجنسيات موضحة أن عددها ارتفع أخيرًا من ١١ ألف شركة تتحكم فى ٨٢ ألف شركة فرعية، تزيد مساحتها على ٢٥٪ من حجم التجارة العالمية عام ١٩٧٥م إلى ٣٧٥٠٠ شركة تتحكم فى ٢٠٧ ألف شركة فرعية تتعامل بأكثر من حجم التجارة العالمية عام ١٩٩٠م[١].

ويذكر هانس بيتر وهارالد شومان فى كتابهما «فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية»: «إن نمو العولمة يزيد من تركز الثروة، وتوسيع الفروق بين البشر والدول اتساعًا لا مثيل له. ويشير المؤلفان إلى أن ٣٥٨ ملياروديرًا فى العالم يمتلكون ثروة تضاهى ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة، وأن هناك ٢٠٪ من دول العالم تستحوذ على ٨٥٪ من الناتج العالمى الإجمالى، وعلى ٨٤٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها ٨٥٪ من مجموع المدخرات العالمية[٢].

وعودة إلى تزايد خطر اندماج الكيانات الغربية وتفتت الكيانات العربية والإسلامية، كانت الشركات المسيطرة على الإعلام فى الولايات المتحدة سنة ١٩٨٤م ٥٠ شركة، لتنكمش إلى ٢٦ شركة عام ١٩٨٧م، ثم إلى ٢٣ عام ١٩٩٠م، وإلى ٢٠ شركة عام ١٩٩٣م، وما إن حلت سنة ١٩٩٦م حتى استقرت عند زهاء ١٠ شركات[٣].

إذن، كيف سيكون وضع المسلمين فى واقع مثل هذا، حيث يزداد الكبار تضخمًا ويزداد الصغار تقزمًا وضآلة؟ . . . وخاصة أن هذا الأمر يسرى إلى الجانب السياسى، فالأنظمة الإسلامية ومجتمعاتها فى حالة تفتت دائم، بينما نجد الغرب القوى يزداد توحدًا وتضامنًا، حتى أن كل الدول الأوروبية ستصبح فى وقت قريب لحمة واحدة، بعد أن توحدت أوروبا الغربية بكاملها فى اتحاد واحد.

وتزداد خطورة العولمة على العالم الإسلامى مرة أخرى، بسبب استخدام أحداث تفجير مركز التجارة الدولى بنيويورك والذى نسب إلى مسلمين، من أجل

(١) مجلة البيان: العدد (١٥٦)، ص (١٢٢).

(٢) د/ القرضاوى: المسلمون والعولمة: ص (٩٩).

(٣) أنظر أسماءها وأسماء شبكات التلفزة والصحف المشهورة التابعة لها فى: زلوم: نذر العولمة: ص (٣٠٤).

حرق المراحل العولمية و التسريع بعجلتها، وخاصة فى المجالات الثقافية، والسياسية، بحجة تجفيف منابع الإرهاب، كأن الإسلام هو الإرهاب، وكأن ضرب ذلك المركز إنما كان من صنع صانع، لتجاوز العقبات التى لم تسمح بتسريع وتيرة الحركة، وتعجيل الزحف العولمى نحو اجتياح العالم الثالث، وفى مقدمته العالم الإسلامى.

والناظر اليوم إلى ما يجرى فى ساحة المسلمين سيجد عمليات تجفيف المنابع، من خلال تعديل المناهج، وإغلاق الكثير من المراكز العلمية والجمعيات الخيرية، وإيقاف العلماء والتضييق على الآخرين، والتلويح بتمزيق البلدان القوية، وإسقاط الأنظمة التى لم ترضخ حتى الانبطاح، إضافة إلى التضييق على حريات المسلمين فى الغرب ذاته، واتخاذ إجراءات ضدهم لم يسبق لها مثيل فى تلك المجتمعات منذ زمن غير قريب، حتى أن تقارير تتحدث عن عودة العمل الإسلامى هناك إلى الصفر، بعد أن كان قد قطع أشواطًا معقولة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين.

ثالثًا: الإسلام أقوى من العولمة:

عندما نقول: الإسلام، فنحن لا نقصد المسلمين، فهم فى حالة ضعف شديدة تغرى الأعداء باجتياحهم على كل المستويات، أما الإسلام فهو فى قوة ومنعة، ونقطة ضعفه العملية اليوم هى انتساب المسلمين إليه، فياله من دين لو كان له رجال.

ومن مفارقات العصر، ومن عجائب العولمة أنها كشفت بجلاء سافر المفارقات القائمة اليوم بين الإسلام وبين المسلمين، فالثروة العلمية الهائلة التى أفرزت العولمة أبرزت بهاء الإسلام، حيث تبين للعلماء والمفكرين والباحثين أن الإسلام يمتلك أصول هذه الحضارة فى جوانبها الإيجابية، وفى الطرف الآخر كشفت عن عورات المسلمين، حيث أبرزت نقاط ضعفهم ومكامن وهنهم ومناطق تفرقهم وشتاتهم، وأوضحت هوانهم على الأمم.

١- مكمن قوة الإسلام:

تكمن قوة الإسلام فى ذاته، وليس فى عنصر وافد على الذات، فهو دين شامل كامل يمتلك خصائص كثيرة تميزه عن سائر الأديان، حيث يجمع بين الثبات والتغير ليحتفظ بأصالته وليستفيد من عصره ويلبى حاجات الناس، ويجمع بين المثالية والواقعية، ويمتلك القدرة على بناء الإنسان بأبعاده الثلاثة بطرق متوازية، وهى: العقل، والجسد، والروح.

وهناك نقطة قوة أخرى أهداها الله لهذا الدين، بحسبانه الدين الخاتم، وهى سلسلة من المنح الربانية التى تضمن لهذا الدين الديمومة والبقاء، وهى أن الله يبعث للأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وبقاء الطائفة الثابتة على الحق وهى بذرة الإسلام التى لا تختفى مهما ساءت الأحوال، إضافة إلى أن الله تعهد بأن لا تجتمع هذه الأمة على خطأ. هذا إضافة إلى تعهد الله بحفظ (بوصلة) هذه الأمة وهو القرآن الكريم من التحريف والضياع.

٢- مظاهر قوة الإسلام:

هناك الكثير من المظاهر التى تدل على قوة الإسلام الذاتية حتى فى أسوأ حالات أتباعه، ومن هذه المظاهر:

- ازدياد الداخلين فى الإسلام، رغم الحملة الدولية الشاملة ضده، تشويهًا وتجفيفًا وحربًا لدعاته. وتقول الأرقام فى هذا السياق: إن الإسلام هو أكثر الأديان حركة وأسرعها انتشارًا.

- عودة شعوب ومجتمعات بكاملها إلى الإسلام، بعد أن عزلت عشرات السنوات عن العالم الإسلامى، ومنعوا عن كل ما يمت بصلة إلى الإسلام، كما فى جمهوريات وسط آسيا والقوقاز وفى شرق أوروبا والبلقان، إضافة إلى ظهور تجمعات إسلامية فى مجاهل أفريقيا، كان الاستعمار يحول بينها وبين عامة المسلمين.

- استعصاء شعوب إسلامية عديدة على محاولات منهجية طويلة للتذويب، رغم كثافة وشراسة تلك الحملات، والتى اشتركت فيها أجهزة داخلية وخارجية، مثل شعب إندونيسيا، حيث كان مخطط التنصير يقضى بأن تصبح عام ٢٠٠٠م دولة نصرانية، لكنها أصبحت فى هذا التاريخ أكبر بلد مسلم فى العالم الإسلامى برمته.

- يركز المنصرون على جهلة المسلمين وفقرائهم لتنصيرهم فى مناطق الأطراف، مستغلين حاجاتهم، وانبهار كثيرين منهم بالحضارة الغربية المتقدمة، وخاصة فى مجال الحقوق والحريات الإنسانية، فى مقابل تغيظهم من الظلم الاجتماعى الذى يُمارس على أوسع نطاق فى بلدانهم الإسلامية وأحيانًا باسم الإسلام. وفى الطرف الآخر، فإن أبرز علامات قوة الإسلام أن علماء المسلمين ودعاتهم لا يطمعون فى إسلام الآخرين إلا إذا كانوا أصحاب علم وفكر ومالكى شخصيات حرة ومستقلة، لأن الإسلام بقوته الذاتية يقنع هؤلاء، حيث يحتوى على أجمل ما فى الحضارة الغربية إضافة إلى توفيره الجانب المفقود فى هذه الحضارة، ولذلك فإن عامة الداخلين فى الإسلام هم من العلماء، فى مقابل أن الخارجين منه هم من شديدى الجهل والحاجة.

وحتى لا ندع مجالاً للشك فى هذه المقارنة ودقتها، وهى معادلة ترى أن المسلمين أضعف بكثير من الغربيين، بينما الإسلام أقوى بكثير من العولمة وما تقتات من ثقافات وطاقات، فإننا نقول: إن العالم الإسلامى فى المجال الثقافى يتفوق على الغرب، حيث - كما أسلفنا - لا يدخل الإسلام إلا العلماء والمثقفون، ولا يخرج منه إلا الأميون والجهلة، أما فى المجال العملى المرتبط باستعمار الحياة، فإن الغرب يتفوق على المسلمين تفوقًا ساحقًا، ولذلك فإنه يستقطب أفضل ما عند المسلمين من كفاءات وقدرات علمية وعملية، ولا يصدِّر إلينا لا أسوأ ما عنده من الكوادر والقدرات.

رابعًا: كيف يستفيد المسلمون من العولمة؟:

مادام أن المسلمين فى حالة الضعف هذه، فإنه لا سبيل أمامهم إلا الاستجابة لتحديات العولمة بطريقة إيجابية عملية، من خلال دراسة واقع العالم الإسلامى لسد الثغرات ومعرفة من أين يتم البدء، وكيفية المواجهة مع العدو والخصم. وهنا فإن المعركة بالدرجة الأولى هى مع الذات، حيث لابد من مواجهة التخلف، ومواجهة مشاريع التبعية والتجزئة، ولابد من مواجهة أنظمة الاستبداد وأفكار العبودية وتيارات الضعف والوهن، فهذه كلها تمثل إمكانات الوهن وقابليات الاستضعاف.

وإذا استفاد المسلمون من العولمة فى معرفة أوجه الخلل فى حياتهم وابنيتهم، وبدأوا بناءً على ذلك فى معركة تحرير الذات من هذا الواقع والارتفاع به إلى المستوى العالى من التحضر بالمقاييس المادية والمعنوية، فإن العولمة تكون قد قدمت خدمة جليلة للمسلمين، ونجحت فيما لم تنجح فيه حتى الآن حركات التجديد والصحوة منذ عشرات السنوات.

أما على مستوى الإسلام، فقد ذكرنا بأنه يحمل قوته فى ذاته، وليس بحاجة من دعاته إلى أكثر من إيصال صوته إلى أبنائه أولاً، ليعرفوه كما هو، وإلى خصومه وأعدائه ثانيًا، وهو كفيل بإقناع قطاعات عريضة من الناس، حيث يستطيع أن يلبى حاجات الناس المادية والنفسية، ويستطيع أن يعمر لهم الحياة الدنيا ويوصلهم إلى الآخرة.

وهذا سيتحقق بفضل أدوات العولمة بأفضل ما يمكن، إذا عمل المسلمون على تحقيق ذلك، من خلال الاستفادة من القيم المشتركة بين (عالمية) الإسلام و (عولمة) الغرب، وتوعية البشر بالفوارق الأخرى حتى يتأكد الناس أن الإسلام لا يحمل عداء من حيث المبدأ لأى فكرة، لكنه يتفق معها بقدر ما تلبى حاجات الناس المادية والروحية، ويختلف معها بقدر ما تبتعد عن هذا الأمر.

والإسلام يتفق مع العولمة فى الأصل الإنسانى الواحد لجميع البشر، وفى أنهم أكفاء فى أصل الخلقة، ولابد أن يستمر التكافؤ فى سائر الحقوق والواجبات، حيث لابد من تمتع الناس بحقوقهم المادية وحرياتهم الإنسانية، لأن الله خلقهم أحرارًا بالفطرة. ويتفق الإسلام مع العولمة فى ضرورة إزالة الحواجز بين البشر، وضرورة توفير ضمانات وصول كل الأفكار إلى كل الناس، وتترك لهم كل الحرية ليختاروا ما يشاءون، ومن ثم سيكون البقاء للأفضل، وهنا سيستفيد الإسلام من هذا الأمر لو تحقق، وخاصة أن الغربيين مهيئون لقبول الإسلام أكثر من مسلمى هذا العصر، الذين توقفوا عند الشعائر والطقوس التعبدية، يؤدونها بدون روح، وعندما ينطلقون إلى الحياة العملية لا نجد لروح الإسلام أثرًا فى تعاملهم.

ويمكن أن يستفيد المسلمون من العولمة، باستغلال الحريات للتنقل بسهولة، والتحرك لدخول ميادين جديدة فى التعريف بالإسلام، وسلوك مسالك جديدة واستخدام أساليب جديدة فى الدعوة إلى الإسلام، مثل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، ابتداء بالصحيفة والتلفزيون، وانتهاء بالإنترنت.

ودور وسائل الإعلام فى خدمة الإسلام لا يحتاج إلى تأكيد، ولكن من باب التذكير، نشير إلى أن باحثًا مسلمًا لاحظ أن لوسائل الإعلام الغربية دورًا مثل شبكة (c. n. n) فى انتشار الروح الإسلامية بين المسلمين فى العالم الإسلامى[1]. فكيف لو وجدت فضائيات ومواقع على الإنترنت ذات استراتيجيات إسلامية، ومستفيدة من ثروات العلم وروح العصر؟!.

ومما يؤكد أن الإسلام، إذا أحسن أبناؤه تمثله وتوظيفه فى معركتهم مع الآخر، فإنهم سيكسبون معركة (العولمة)، إن كل الحقائق التى توصلت إليها العلوم المعاصرة تؤيد القرآن والسنة، ولا تنقضهما، وظهر الإعجاز العلمى للقرآن والسنة كفتح جديد للمسلمين فى ظل هزائمهم على أرض الواقع، وبسبب وصول بعض هذه الحقائق إلى بعض كبار علماء الغرب، اعترفوا للإسلام بالربانية، وذهب

(١) أنظر: د/ أحمد القديدى: الإسلام وصراع الحضارات: ص (٤٩).

بعضهم إلى اعتناق الإسلام، فى الوقت الذى تحاول فيه علوم ووسائل الإعلام والاتصال العولمية غواية جهلة المسلمين وأكثرهم تخلفًا وبعدًا عن العلم.

وأختم بمقولة، حول القوة العظمى الذاتية فى الإسلام، للأستاذ بايرفنج - أستاذ فى جامعة تنسى الأمريكية - وهو يخاطب تجمعًا للمسلمين فى مدينة «جلاسجو» البريطانية: (إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً أو تقنيًا أو اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا تلك الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذى تحملون، والذى تتعطش إليه أرواح الناس فى مختلف جنبات الأرض، تعلّموا الإسلام وطبقوه، واحملوه لغيركم من البشر تنفتح أمامكم الدنيا ويدن لكم كل ذى سلطان. أعطونى أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا، ويطبقونه على حياتهم تطبيقًا دقيقًا، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح بهم الأمريكتين[١].

وهكذا، فإن الإشكال فى تخلف المسلمين، أما الإسلام فإنه متقدم، ولذلك فإن هناك فرصًا كبيرة للاستفادة من العولمة فى خدمة الإسلام وتحسين أوضاع المسلمين، إذا وجدت الإدارة، وبذلك يستطيع المسلمون قلب السحر على الساحر، وإحداث نقلة نوعية فى حياة العالم الإسلامى.

* مراجع إضافية حول العولمة[٢]:

لمن أراد الاستزادة حول موضوعات العولمة يمكنه مراجعة المصادر والمراجع التالية:

١- ميك فيذرستون وآخرون: محدثات العولمة: ترجمة عبد الوهاب علوبة.

٢- د. عبد السلام المسدى: العولمة والعولمة المضادة.

٣- بنجاين بابر: الجهاد ضد السوق الكونية.

---

(١) د/ زغلول النجار: قضية التخلف العلمى والتقنى فى العالم الإسلامى: ص (١٣٧).

(٢) هذه الكتب غير ما ذكر فى هوامش هذه الدراسة.

٤- د. عابد السفيانى: العولمة وخصائص دار الإسلام ودار الفكر.

٥- فؤاد العشا: النظام العالمى الجديد: عالم بخمسة رؤوس.

٦- على المؤمن: النظام العالمى الجديد: التشكل والمستقبل.

٧- أسامة عبد الرحمن: النفط، القبيلة، والعولمة.

٨- أسامة أمين الخولى (محرر): العرب والعولمة.

٩- عبد الواحد الغفورى: العولمة والجات: التحديات والفرص.

١٠- د. باقر النجار وآخرون: الثقافة الاجتماعية من منظور الحداثة والعولمة.

١١- د. حامد عمار: مواجهة العولمة فى التعليم والثقافة.

١٢- محمد الرميحى: ثورة المعلومات والإعلام الحائر.

١٣- د. تركى الحمد: الثقافة العربية فى عصر العولمة.

١٤- ناهد طلاس العجة: العولمة: محاولة فى فهمها وتجسيدها.

١٥- د/ برهان غليون: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة.

١٦- د/ إدريس الخرشاف: المعرفة الإسلامية والعولمة.

١٧- د/ محمد على حوات: العرب والعولمة.

١٨- د/ مصطفى عبد الغنى: المثقف العربى والعولمة.

١٩- توفلر: الموجة التالية.

٢٠- محيى محمد مسعد: ظاهرة العولمة: الأوهام والحقائق.

٢١- كرولين طوماس وبيترولكين: العولمة والجنوب.

٢٢- إلينور كوفمن وجيليان ينغر: العولمة: النظرية والممارسة.

٢٣- فيفيان فورستر: الرعب الاقتصادى.

٢٤- آلان ميك: العولمة السعيدة.

٢٥- ريتشارد هبوت: العولمة والأقلمة.

٢٦- جون جراى: الفجر الكاذب، أوهام الرأسمالية العالمية.

٢٧- د/ صادق العظم: ما هى العولمة؟

٢٨- بول هيرست، جراهام طومبسون: ما العولمة؟ الاقتصاد العالمى وإمكانات التحكم.

٢٩- ولترريستون: أفول السيادة - كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا.

٣٠- د/ عبد العزز التويجرى: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافى.

٣١- بيتر تايلور كولن فلنت: الجغرافيا السياسية - الاقتصاد العالمى، الدولة القومية، المحليات.

٣٢- بول كيندى: صعود وهبوط الإمبراطوريات.

٣٣- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ.

٣٤- صموئيل هنتجتون: صدام الحضارت.

٣٥- د/ إبراهيم العيسوى: الجات وأخواتها: النظام الجديد للتجارة العالمية ومستقبل التنمية العربية.

٣٦- مجموعة من الباحثين: العولمة وتداعياتها على الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣٧- مجموعة من الباحثين: العولمة والعالم بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣٨- مجموعة من الباحثين: العرب وتحديات النظام العالمى، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣٩- د/ أسامة عبد الرحمن: تنمية التخلف وإدارة التنمية: إدارة التنمية فى الوطن العربى والنظام العالمى الجديد.

٤٠- د/ عبد المنعم سعيد: العرب ومستقبل النظام العالمى.

٤١- د/ عثمان التوم وعبد الرؤوف محمد آدم: العولمة: دراسة تحليلية نقدية.

٤٢- د/ عمرو عبد الكريم فى قضايا العولمة: استشكالات قرن قادم.

٤٣- د/ أحمد صدقى الدجانى: النظام العالمى الجديد.

٤٤- سعد حقى توفيق: النظام الدولى الجديد.

٤٥- مجموعة من الكُتَّاب: الإسلام والغرب صراع فى زمن العولمة (كتاب العربى ٤٩).

٤٦- أحمد منصور: قضايا العالم الإسلامى فى ظل النظام العالمى الجديد.

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول	
الطريق إلى (حاضر العالم الإسلامى)	
المبحث الأول: العالم الإسلامى معنى ومبنى	١١
أولاً: معنى العالم الإسلامى	١١
ثانيًا: مقومات العالم الإسلامى	١٢
المبحث الثانى: أطلس (الجسد الإسلامى)	١٦
أولاً: عبقرية الموقع	١٦
ثانيًا:السكان	١٨
ثالثًا: الثروات	٢٣
المبحث الثالث: أهمية دراسة حاضر العالم الإسلامى	٢٧
أولاً: الاهتمام بالعالم الإسلامى فريضة شرعية	٢٧
ثانيًا: ضرورة واقعية	٢٨
- مراجع إضافية	٣٠
الفصل الثانى	
خماسية المعضلات الكبرى للعالم الإسلامى	
تمهيد	٣٥
المبحث الأول: التخلف الحضارى وضعف الفاعلية	٣٧
أولاً: التخلف العلمى	٣٨
ثانيًا: التخلف العملى	٤٢

١- العجز الغذائى ٤٢
٢- العجز الصناعى ٤٦
- مراجع إضافية حول التخلف ٥٠
المبحث الثانى: غياب الاستقلال الكامل ودخول جُحر الضبّ ٥١
أولاً: على المستوى السياسى ٥٢
ثانيًا: على المستوى الثقافى ٥٨
ثالثًا: على المستوى الاقتصادى ٦٠
- مراجع إضافية حول التبعية ٦٥
المبحث الثالث: التآكل السياسى وإهدار حقوق الإنسان وحرياته ٦٦
أولاً: تحول الوطن إلى (عزبة) للحاكم ٦٧
ثانيًا: تضخُّم الحكام وتقزُّم الشعوب ٦٧
ثالثًا: انسداد آفاق التجديد أو التغيير ٦٨
رابعًا: الحرب الدائمة على الأولياء ٦٩
خامسًا: الولاء للأجنبى ٦٩
سادسًا: انتهاك آدمية الإنسان والاعتداء على حقوقه ٧١
سابعًا: الانهزام أمام المعتدى ٧٥
- مراجع إضافية حول الحريات السياسية والاستبداد فى العالم الإسلامى ٨٠
المبحث الرابع: الظلم الاجتماعى والعبث المالى ٨١
أولاً: تسيُّد المعايير الفاسدة ٨١
ثانيًا: انقلاب الهرم الاجتماعى ٨٣
ثالثًا: اتساع الهوة بين (الملأ) و(الجمهور) ٨٦
رابعًا: التبذير والتقتير فى غير موضعهما ٨٩

- مراجع إضافية حول الظلم الاجتماعى ٩٣
المبحث الخامس: تفرق (القلوب) وتمزق (القوالب) ٩٤
أولاً: ائتلاف المسلمين على الاختلاف واختلافهم على الائتلاف ٩٤
ثانيًا: توحد الغربيين على تفريق المسلمين ٩٧
ثالثًا: الوحدة أو الانقراض ١٠١
- مراجع إضافية عن التجزئة والوحدة ١٠٥
المبحث السادس: المخرج من معضلات العالم الإسلامى ١٠٦
أولاً: منابع المعضلات فى أوساط الشعوب الإسلامية ١٠٧
ثانيًا: الإسلام هو داعية الخروج من التيه الحضارى ١١٣
١- السبيل الوحيد للتحرر من التخلف والهزل الحضارى ١١٤
٢- الطريق الأكيد لتحقيق الاستقلال الشامل ١١٥
٣- الضمانة الكبرى لتحقيق الاستقرار السياسى وتقديس حريات الناس وحقوقهم ١١٦
٤- الأقدر على توفير العدل الاجتماعى ١١٧
٥- القادر الوحيد على تحقيق الوحدة ١١٨
- مراجع إضافية ١٢٠

الفصل الثالث

المناطق الساخنة فى العالم الإسلامى

المبحث الأول: المناطق الساخنة فى أفريقيا ١٢٥
أولاً: منطقة القرن الأفريقى وجوانبها: ١٢٦
١- الصومال ١٢٦
٢- إريتريا ١٢٨
٣- أثيوبيا ١٣٠

٤- السودان ١٣١
٥- جيبوتى ١٣٣
٦- تنزانيا (زنجبار) ١٣٤
٧- كينيا ١٣٥
٨- أوغندا ١٣٥
٩- رواندا وبورندى ١٣٧
ثانيًا: منطقة غرب أفريقيا: ١٣٧
١- ليبيريا ١٣٧
٢- سيراليون ١٣٨
٣- بوركينا فاسو (فولتا العليا) ١٣٩
٤- نيجيريا ١٤٠
- مراجع إضافية حول قضايا المسلمين فى أفريقيا ١٤١
المبحث الثانى: المناطق الساخنة فى آسيا ١٤٣
أولاً: منطقة وسط آسيا والقوقاز: ١٤٣
١- الشيشان وجمهوريات القوقاز ١٤٣
٢- جمهوريات تركستان ووسط آسيا ١٤٦
٣- أفغانستان ١٤٨
ثانيًا: منطقة جنوب آسيا (شبه القارة الهندية) ١٥١
١- الهند ١٥١
٢- باكستان وكشمير ١٥٤
٣- سريلانكا (سيلان) ١٥٨
ثالثًا: منطقة جنوب شرق آسيا ١٥٩
١- إندونيسيا ١٥٩

٢- الفلبين (عذراء ماليزيا)..... ١٦٢
٣- فطانى (تايلاند)..... ١٦٤
- مراجع إضافية حول مسلمى قارة آسيا..... ١٦٥
المبحث الثالث: المناطق الساخنة فى البلقان وشرق أوروبا..... ١٦٧
أولاً: البوسنة والهرسك..... ١٦٧
ثانيًا: المسلمون الألبان:..... ١٧٣
١- جمهورية ألبانيا..... ١٧٤
٢- ألبان كوسوفا..... ١٧٥
٣- ألبان مقدونيا..... ١٧٧
ثالثًا: مسلمو بلغاريا..... ١٧٨
رابعًا: أقليات أخرى..... ١٧٩
- مراجع إضافية حول مسلمى أوروبا..... ١٨٠
المبحث الرابع: السرطان اليهودى يستوطن القلب ويشل الأطراف..... ١٨١
أولاً: السرطان يغزو القلب..... ١٨١
١- مراحل السرطان..... ١٨١
٢- الصدامات بين السرطان وخلايا الأعراب..... ١٨٣
٣- دور الأعراب فى نجاح السرطان بتحقيق أهدافه..... ١٨٤
٤- مستقبل السرطان..... ١٨٥
ثانيًا: اليد الطولى لـ(إسرائيل)..... ١٨٦
١- فى كل نكبة للمسلمين يوجد دور لليهود..... ١٨٦
٢- حركة لا تعرف الحدود..... ١٨٧
٣- التحالف مع أعداء الأمة..... ١٨٧
٤- إسرائيل تحلم بإمبراطورية بحجم العالم الإسلامى..... ١٨٨

٥- التعامل مع القنابل الموقوتة ومحاولة تفجيرها فى الأوقات المناسبة ١٨٩
- مراجع إضافية حول القضية الفلسطينية ١٨٩

الفصل الرابع

خماسية القنابل الموقوتة فى بلدان العالم الإسلامى

المبحث الأول: القنبلة الدينية ١٩٣
أولاً: النصارى ١٩٣
ثانيًا: اليهود ١٩٦
ثالثًا: الوثنيون ١٩٧
المبحث الثانى: القنبلة الطائفية ١٩٩
أولاً: الشيعة والسنة ٢٠٠
ثانيًا: الأقليات الطائفية القديمة ٢٠٢
١- الإسماعيلية والبهرة ٢٠٣
٢- الدروز ٢٠٤
٣- النُصيرية ٢٠٤
ثالثًا: الأقليات الطائفية الحديثة ٢٠٥
١- البابية والبهائية ٢٠٥
٢- القاديانية ٢٠٥
المبحث الثالث: القنبلة العرقية ٢٠٧
١- القنبلة الكردية ٢٠٧
٢- القنبلة الأمازيغية فى شمال أفريقيا ٢٠٨
٣- الزنوج فى السودان وموريتانيا ٢١٠
المبحث الرابع: القنبلة الحدودية ٢١١
أولاً: الحدود الملتهبة (العراق نموذجًا) ٢١١

ثانيًا: الحدود العربية - العربية ٢١٣
ثالثًا: الحدود الإسلامية - الإسلامية ٢١٣
رابعًا: الحدود الإسلامية - الأجنبية ٢١٤
المبحث الخامس: القنبلة الديموجرافية القسرية ٢١٦
أولاً: أضرار عامة ٢١٧
ثانيًا: تحول موجات المهاجرين إلى براميل بارود ٢١٨
١- المهاجرون فى باكستان ٢١٨
٢- اللاجئون فى مدينة الخرطوم ٢٢٠
- مراجع للاستزادة ٢٢١

الفصل الخامس

العالم الإسلامى ورياح العولمة

المبحث الأول: المقدمات والميلاد ٢٢٥
أولاً: مقدمات النظام العالمى الجديد ٢٢٥
ثانيًا: تدشين النظام الدولى الجديد ٢٢٦
المبحث الثانى: العولمة: المعانى والمجالات ٢٣٠
أولاً: معانى العولمة ٢٣٠
ثانيًا: مجالات العولمة ٢٣٣
١- العولمة الثقافية ٢٣٣
٢- العولمة الاقتصادية ٢٣٤
٣- العولمة السياسية ٢٣٥
المبحث الثالث: آليات أمركة العالم بدعوى العولمة ٢٣٧
أولاً: العولمة محاولة لأمركة العالم ٢٣٧
ثانيًا: آليات أمركة العالم ٢٤٢

المبحث الرابع: المسلمون والعولمة ٢٤٨
أولاً: المسلمون فى مهب العاصفة ٢٤٨
ثانيًا: أخطار العولمة على العالم الإسلامى ٢٥٠
ثالثًا: الإسلام أقوى من العولمة ٢٥٣
١- مكمن قوة الإسلام ٢٥٤
٢- مظاهر قوة الإسلام ٢٥٤
رابعًا: كيف يستفيد المسلمون من العولمة ٢٥٦
- مراجع إضافية حول العولمة ٢٥٨
الفهرس ٢٦٣

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

تعريف بالباحث

* من مواليد عام ١٩٦٧ م قرية دمنة نخلان - إب.
* حاصل على المركز الأول فى الثانوية العامة عام ١٩٨٦ م على مستوى اليمن.
* بكالوريوس تربية عام ١٩٩٠م بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف من جامعة صنعاء.
* معيد بكلية التربية بتعز - جامعة صنعاء (١٩٩١ - ١٩٩٣م).
* ماجستير فى الثقافة الإسلامية من جامعة السند بباكستان عام ١٩٩٦م بتقدير ممتاز
* دكتوراه فى الفكر السياسى الإسلامى عام ٢٠٠٠م بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف مع جامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.
* أستاذ الفكر الإسلامى المساعد فى كلية الآداب بجامعة تعز.
* له عدد من الكتب والأبحاث بين مطبوع ومخطوط وفى طريقه للنشر، ومن كتبه المطبوعة دراسته للدكتوراه، وهى تحت عنوان «الإخوان المسلمون والسلطة السياسية فى مصر».
* يكتب فى عدد كبير من الصحف والمجلات فى اليمن، وقد نشر فى هذا السياق مئات المقالات.
* حضر عدداً من المؤتمرات العلمية والندوات الفكرية والحلقات النقاشية، وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات المتنوعة.